



فكر

٢٠١٥

الإسلام والعلم الأصولية الدينية ومعركة العقلانية

تأليف: برويز أمير علي بيود

ترجمة: محمود خيال
تصدير: محمد عبد السلام



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الفكر هو الأرضية الصلبة التي يقف عليها الإنسان المعاصر: ليتسلح به في مواجهة الأسئلة، التي تدور بخلده، وقد كان الفكر الفلسفي بتياراته المتباينة على مدار التاريخ، هو الكون الأساسي لوجدان الإنسان وعقله، وهذه السلسلة تقدم للقارئ المعاصر وجبة متكاملة للرؤى الفكرية المختلفة لأشهر وأبرز المفكرين و، الفلاسفة الغربيين والعرب، حتى يتسنى للمتلقى أن يقف على أهم التيارات الفكرية القديمة والجديدة، ويلم بأصول وأسس المعارف من ينابيعها الحقيقية.



الإسلام والعلم
الأصولية الدينية ومعركة العقلانية



اللجنة العليا

هـوزى هـمى رئيسا
أحمد على عجيبه
أحمد زكريا الشاق
جرجس شكرى
جمال الغيطانى
خالد منتصر
خلف عبد العظيم الميرى
سيد حجاب
فاطمة المعدول
محمد بدوى
محمد شعير
محمد عنانى
مصطفى لبيب
نبيل عبد الفتاح
هالة خليل
أحمد مجاهد المشرف العام

الوزارات المشاركة:

وزارة الثقافة
وزارة التخطيط
وزارة التربية والتعليم
وزارة السياحة

تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفنى

على أبو الخير
صبرى عبد الواحد
هشام متولى حامد

تنفيذ

الهيئة الوطنية العامة للكتاب

الإسلام والعلم **الأصولية الدينية ومعركة العقلانية**

تأليف

. برويز أمير على بيود

ترجمة

محمود خيال

تصدير

البروفيسور محمد عبد السلام



بيود، برويز أمير على.

الإسلام والعلم .. الأصولية الدينية ومعركة العقلانية/ تأليف:

برويز أمير على بيود: ترجمة: محمود خيال: تصدير: محمد عبد

السلام . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

٣١٢ ص، ٢٤ سم .

تدمك ٨ - ٥٤ - ١٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - الإسلام والعلم.

أ- خيال، محمود (مترجم).

ب - عبد السلام، محمد (مقدم).

ج - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب، ٢٢٧٤٩/٢٠١٥

I.S.B.N 978- 977- 910-054-8

توطئة

مشروع له تاريخ

الحقيقة المؤكدة التى تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هى أن تجليات الارتقاء فى الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفى والفكرى والثقافى للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة فى استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشة جاهزة متوارثة فى مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفى الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، فى حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته فى سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التى تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التى تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضاً أن لا شئ يتأبد فى الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام - بوصفه أداة الانتصار الإنسانى - يشكل إدراكاً معرفياً عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التى تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحوُّلاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابياً فى مواجهة صورة الوجود الحقيقى أمام الممكنات المفتوحة التى ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحوُّلها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلى لزمان اجتماعى، فالقراءة هى البداية الكبرى التى إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث فى غياب القراءة تتجلى

علامات العجز عن إحداث شيء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينباع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبيًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولها، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقًا لحوية مجتمعية تعقلن قبول التغير باستباق الفهم، وممارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكايف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبديد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرم الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكايف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبي طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًا وثقافيًا فى ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

المحتويات

- مقدمة المترجم: 9
- تصدير: 13
- تمهيد: 21
- الفصل الأول: الإسلام والعلم: هل هما متوافقان؟ 25
- الفصل الثاني: العلم: طبيعته ومنابعه 37
- الفصل الثالث: الصراع بين العلم ومسيحية القرون الوسطى 65
- الفصل الرابع: حال العلم في البلاد الإسلامية 81
- الفصل الخامس: ثلاثة ردود إسلامية حول تخلف النمو 121
- الفصل السادس: ثلاثة ممثلين للعالم الإسلامى: بوكاي، نصر وسادار 147
- الفصل السابع: هل يمكن تواجد علم إسلامى 171
- الفصل الثامن: نهضة العلم الإسلامى 187
- الفصل التاسع: الأصولية الدينية فى مواجهة علم المسلمين 207
- الفصل العاشر: خمسة زنادقة كبار 231
- الفصل الحادى عشر: لماذا لم تحدث ثورة علمية فى الإسلام 247
- الفصل الثانى عشر: بعض الخواطر للمستقبل 273
- ملحق: يسمونه علمًا إسلاميًا 283

هذه ترجمة كتاب

Islam and Science

Religious Orthodoxy and the

Battle for Rationality

By

Pervez Hoodbhoy

Copyright © Pervez Hoodbhoy, 1991

Original Publisher: Zed Books Ltd.

مقدمة المترجم

يأتى هذا الكتاب فى وقت يعانى فيه العلم فى مجتمعنا من أزمة طاحنة، فالمدارس محشوة بالتلاميذ، والجامعات والمراكز البحثية مكتظة بأصحاب القاب الدكتوراة والأستاذة، وأما الإنتاج العلمى الفعلى فحدث ولا حرج. يلاحظ فى ذات الوقت تصاعد أسهم التيارات الإسلامية الأصولية وتغلغلها فى مختلف قطاعات المجتمع وسيادة خطابها على أجهزة الإعلام الرئيسية فى كثير من الدول العربية. تخرج مناقشة هذا الموضوع وما يتعلق به عن نطاق هذا الكتاب اللهم إلا فيما ترفعه تلك التيارات وأتباعها من مقولات عن أسلمة العلوم (وتعريبها) وكثرة الحديث عن المعجزات العلمية فى التراث وغير ذلك من عقد مؤتمرات لا تنتهى عما يسمونه بالإعجاز العلمى فى القرآن والسنة والعلاج ببول الجمال.. إلخ. وهو ما أصبحت كبرى الصحف وقنوات الإذاعة والتلفزيون تفرد له مساحات واسعة من صفحاتها ووقتها ولا تخصص فى المقابل إلا أقل القليل لعرض الآراء العلمية السليمة الأخرى، التى لا ترى فى هذه الفوضى إلا نوعاً من الدعوة للتخلف المدمر لحاضر ومستقبل أى مجتمع معاصر.

أقدم هذه الترجمة وكلى أمل فى أن يجد المسلمون العقلاء الذين يمثلون أمل الأمة فى النهوض من كبوتها فى صفحات هذا الكتاب ما يعينهم على تحقيق مآربهم المستتيرة فى إصلاح المسيرة وتحقيق مستقبل أفضل للأجيال القادمة، خاصة أن المسلمين فى العالم يعيشون محنة قاسية من جراء سلسلة الممارسات الإرهابية والتفجيرات التى انتشرت فى العديد من الدول الإسلامية قبل الدول غير الإسلامية. كما يعيشون تحت وطأة القهر الفكرى الداخلى مما أسفر عن انحطاط شأن المسلمين فى نظر العالم وهو ما لا يرتضيه مسلم كريم بحال من الأحوال. فكما يشير معدوا تقرير الأمم المتحدة للتنمية عن عام ٢٠٠٣ فإن الإسلام الحق يحث على اقتناء المعرفة، كما يشيرون إلى بعض أنماط إساءة استخدام الدين وإلى التحالف بين بعض تلك التيارات الأصولية والمتطرفة وبعض الأنظمة الحاكمة كأحد أسباب عرقلة النمو فى المنطقة، كذلك يؤكد الخطاب فى الخلاصة إلى ضرورة الفصل بين الدين والسياسة.

بأخذنا الكاتب في رحلة ليست ببعيدة عن مجال حياتنا اليومية، ودعنا من الماضي البعيد لننظر في شأن حاضرتنا وعصرنا. أفلم تقم عصابة من الفقهاء الأجلاء بدعم وقيادة الهبات ضد نخبة من خيرة مفكرينا مثال طه حسين ونجيب محفوظ وفرج فوده ونصر حامد أبو زيد... إلخ (القائمة أطول بكثير من سعة هذا الكتاب). أليس صحيحاً أنهم كانوا وراء تضليل الجماهير والسلب والنهب وكشوف البركة؟ مستترين بعباءة الإسلام، والإسلام منهم براء. ينادون بأصواتهم بالحريّة، لكن بأيديهم يغالونها. لم يتعلموا العلم فرفضوه واعتبروه ضلالة، فاتهم أن العلم (والحق) لا يمكن أن يموت ما بقي الإنسان حيّاً على الأرض، ابتدعوا علماً عقائدياً فأضحكوا العالم عليهم وعلينا. وسيجد القارئ في الصفحات التالية ما يكفيني عناء الاسترسال.

اكفى هنا بذكر ملاحظة استوقفتني من واقع تقرير الأمم المتحدة، لعل لها علاقة بما نحن فيه فأكثر من نصف سكان المنطقة العربية يعانون من الجهل بالقراءة والكتابة وما زال هناك ٦٥ مليون مواطن أمي ومع ذلك يبلغ إنتاجنا من الكتب الدينية أكثر من ثلاثة أضعاف مثيلها في الدول الأخرى، هذا بالإضافة إلى تقرير البنك الدولي لعام ٢٠٠٣ الذي يشير إلى أن ثلث سكان مصر يعيشون تحت حد الفقر.

بدلاً من الالتفات إلى تنمية البنية الأساسية الواجبة لنيل المعارف الحديثة والتمكن منها، فمن المؤسف رؤية بعض المسلمين يوجهون اهتمامهم الأساسي تجاه تفجير مبنى مركز التجارة العالمي في أمريكا وضرب محطات مترو الأنفاق في إنجلترا وقتل السفير المصري في العراق، هذا في الوقت الذي كان "الغرب" مشغولاً فيه بإطلاق سفينة فضاء بدقة لم يسبق لها مثيل في التاريخ لترتطم بأحد النيازك الصغيرة على بُعد أكثر من ١٣٠ مليون كيلومتر من الأرض في محاولة لكسب المزيد من المعلومات عن كيفية نشأة وتكوين الشمس والأرض والقمر وباقي المجموعة الشمسية بأكملها. وهو الحدث الذي راقبه مباشرة عبر شاشات الكمبيوتر والإنترنت أكثر من بليون مشاهد في ٤ يوليو ٢٠٠٥ (يبلغ عدد المالكين لأجهزة

كمبيوتر خاصة في مصر حوالي ٤ من بين كل ألف مواطن). ويمكن تمثيله بمن يُطلق رصاصة من مسدس في الإسكندرية ليصيب بها ألف بعوضة أثناء طيرانها في أسوان.

اضطرت أثناء قيامي بالترجمة للجوء للاطلاع على ما تيسر من مراجع وكتابات حول بعض المواضيع التي ورد ذكرها بالكتاب، فعدت لقراءة محمد عبده والأفغانى والغزالي والطهطاوى وطه حسين وبعض كتب التراث، كما لجأت إلى عدد من أساتذة جامعاتنا لاسثنبيان بعض ما غمض على أو أنكره عقلى بحكم ما نشأت عليه في هذا المجتمع. لم أكن أتصور أن بعضاً من هؤلاء الرجال العظام الذين لا نتوانى عن التغنى بأمجادهم في كل مناسبة - أو من غير مناسبة أحياناً - ونعلى من شأنهم ونشخص بأبصارنا تجاههم ونعتر بهم كرموز وكرواد للتوير في مجتمعاتنا، كانوا في حقيقتهم من أسباب التخلف المعرفى الذى نعانى منه اليوم. على أية حال، أترك الأمر للقارئ لحين الانتهاء من مطالعة الكتاب وللرجوع إلى ما يشاء من مرجعيات مع ملاحظة أنه لا يمكن لعاقل أن يختلف على ما كان لمقولات أولئك العظام الخطابية من أثر كبير على نفوس الناس وعلى مسيرة الاستقلال وحرية الأوطان، بغض النظر عما آلت إليه تلك الحريات بعد ذلك.

ليس سرّاً أن العملة الوحيدة القابلة للتداول الآن في سوق صراع الأمم من أجل سيادتها، بل ولحفاظها على آدميتها، هي فقط عملة العلم وامتلاك المعرفة. وقد شرح المؤلف بجلاء مفهوم لفظ الـ "علم" ووسائله وحدوده بما يتضح معه أنه لا علاقة له إطلاقاً بمفهوم لفظ العلم الذى كان شائعاً عند العرب منذ أكثر من ألف عام والتي يحاول هواة الأصولية ومحترفيها الالتصاق به وتسخير العباد لاعتناقه. لم يعد للعقلاء مزيداً من الوقت لإضاعته في سفسة الفقهاء وعلومهم المغلوطة، وعلى من تبقى من ذوى الأبواب التقاط طرف الخيط والعمل بهمة وبلا خوف من أجل إحياء الأمل في مستقبل قد يكون أفضل.

يقولون أن "مصر ولادة" وإننى لمن المؤمنين بذلك، فشمعة الأمل دائماً مضيئة حتى فيما يبدو كأنه أحلك الأوقات. فها هى ذى كل الأجهزة البحثية فى المجتمع تكافح من أجل إعلاء شأن العلم بها وتلقى كل تشجيع من السلطات السياسية ولن يمض وقت طويل إلا وتنهض الأمة من كبوتها، والله الموفق.

تصدير

"لا شك أن العلم أضعف ما يكون اليوم في المناطق الإسلامية، وذلك مقارنة بمختلف الحضارات المعاصرة. ولم يعد مقبولا إغفال ذلك أو الاستهانة به، حيث أصبحت الحياة الكريمة للمجتمعات المعاصرة، مرتبطة ارتباطا مباشرا بمدى قوتها العلمية والتكنولوجية".

حين طلب منى الدكتور "بريز بيود"، أن أقدم لهذا الكتاب، ذكرنى بوعدى السابق له بذلك، وقال : أنكرت بأنك كنت قد وافقت على هذا العمل، بشرط أن تكون الآراء المطروحة مقبولة لديك، وأرجو أن لا تكون هناك خلافات جوهرية. أما فى حالة وجود خلافات حول بعض الأجزاء، فإني أفضل أن تكتب نقدك المستفيض، بدلا من الامتناع كلية عن الكتابة، كما أعتقد أن الكتاب يحتاج إلى وجهة نظر مخالفة، حتى تصل به إلى درجة من التوازن المناسب".

فى البداية، أنا لا أختلف مع "د. بيود" على أى مما كتبه فى هذا الكتاب، فعلى العكس، أنا أتفق معه تماما على أن حال العلم فى العالم الإسلامى متدنى للغاية، وإننى أكرر الفقرة المقتبسة من كتاباتى السابقة، المذكورة على رأس هذه الصفحة، والتي استعملها الكاتب فى استهلاله للفصل الرابع.

ثانياً، أنا أتفق معه، على أن الأصولية العقائدية، بالإضافة إلى روح عدم السماحة، هما من أهم عوامل قتل مسيرة الازدهار فى الإسلام. ولعل من شروط ازدهار العلم وتقدمه، وجود تجمع عددى مناسب من العلماء، ليشكل مجتمعا علميا قادرا على العمل فى صفاء وهدوء، وبدعم كامل من بنية تحتية حرة تمده بما قد يحتاجه من اختبارات، وتجارب، وقراءات، كذلك يحتاج إلى التمتع بمطلق الحرية فى إبداء رأيه فى المناقشات المفتوحة، وفى نقد الآراء الأخرى. وهذه المتطلبات غير متوفرة فى الإسلام المعاصر.

ثالثاً، هو مصيب فى رأيه أن "نصر (Nasr)" و"ساردار (Sardar)"¹ يقومان بعمل عظيم ضد العلم فى الدول الإسلامية، فهم يناديان بعلم إسلامى - أيما كان

¹ سيأتى الحديث عنهما لاحقا فى الفصل السادس من الكتاب. (المترجم)

المقصود بهذا التعريف - منبثقا من الإسلام، وليس من الحضارة كلها. هناك علم واحد عالمي، ومشاكله وأشكاله عالمية، ولا يوجد ما يسمى بالعلم الإسلامي، كما لا يوجد علم هندي، ولا علم يهودي، ولا كونفوشيوسي، ولا مسيحي.

أوافق أيضًا على مقولته، بأن العلم الإسلامي - كما أوضح الرئيس الباكستاني ضياء الحق - كان مزيفًا، أما الباحثون الذين باثروا هذا العلم - الذين تندر بهم الدكتور هودبهي - فعليهم أن يخلوا مما كتبوا باسم هذا العلم.

أخيرًا، أوافق على أن المنهج العملي (البرجماتي)، قد يوفر الأسلوب الوحيد لإعادة الحياة للعلم الحقيقي في البلاد الإسلامية، تمامًا كما قد يكون الحال مع مسألة الديمقراطية في الإسلام. أما ما يمكن أن أوجهه من نقد للأستاذ "بيود"، فهو أنه لم يتوسع وينمي الجزء الأخير من الكتاب بالقدر الذي كنت أتوقعه منه.

وفيما يتعلق بالكتاب، فيمكننا تقسيمه إلى جزأين، يتكون الجزء الأول من الفصول التي تناولت الوضع الراهن للعلم والتعليم في العالم الإسلامي، أما الجزء الثاني ففيه يسرد تاريخ العلم في الإسلام، كما يتناول مفهوم العلوم إبان فترة حكم ضياء الحق في باكستان.

دعوني في البداية، أؤكد على بعض نقاط القوة في الكتاب، لقد اتسم الفصل الذي تناول صراع الكنيسة الكاثوليكية مع العلم، على مر العصور (مع تسجيل عشرة أدلة من الخلافات) بالتميز الشديد كما برع الكاتب في سرده لقصة العلم في الإسلام.

كذلك استعان الكاتب، واقتبس من بحوث كلا من ستيفن فاينبرج (Steven Weinberg)¹ المعروف بالإنعاده، ومن بحوثي وأنا المعروف بإسلامي. وخلص

¹ ستيفن فاينبرج (Steven Weinberg): من أبرز علماء الفيزياء. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩، بالمشاركة مع اثنين آخرين، أحدهما الأستاذ محمد عبد السلام (صاحب هذا التقديم) عن إنجازاتهم في مجال توحيد نظريات القوى في الكون وضمها في نظرية واحدة. والمعروف أن القوى للحالية تنقسم إلى أربعة أنواع: قوة للجاذبية، القوى للكهرومغناطيسية، =

إلى عدم وجود خلاقات جوهرية بين أعمالنا البحثية، وأود أن أؤكد أنه على صواب. فقد كنا متباعين تمامًا - جغرافيًا وعقائديًا - عندما تناولت بحوثنا نقطة واحدة مشتركة، وهي نظرية توحيد القوى الكهرومغناطيسية والقوى النووية الضعيفة، وإذا كان هناك بعض التشكك من ناحيتي تجاه مسألة أحادية القوى، فلعله كان بسبب دوافعي الإسلامية الدفينة.

كما سبق وقلت، فإن نقدي الوحيد، ينصب على أن المؤلف لم يكن واضحًا حول أساليب علاج الموقف المعاصر، فلم يرجع إلى التساؤل الذي طرحه بنفسه في البداية : هل سيظل العلم مغبوطًا إلى الأبد في الإسلام؟ أم أنه سيظل هكذا، إلى حين أن ينهج المسلمون نهجًا غير أصوليًا.

أشعر شخصيًا بأن العالم الإسلامي اليوم، ليس قويًا ومتجانسًا كالصخرة الواحدة، فهو منقسم طبعية الحال إلى مناطق متعددة تختلف حضاريًا، خاصة من حيث نظرتها وتناولها لمسألة العلوم والتكنولوجيا. ودعوني أوضح تلك النقطة، فلقد كان على العرب الخليجيين، الغارقين في الثراء الكبير، أن يأخذوا على عاتقهم استثمار تلك الثروات في دعم بناء العلم في كل العالم الإسلامي، ومازال بإمكانهم فعل ذلك، لكنهم لم يفعلوا، ولا حتى مع أشقائهم المسلمين العرب، ثانيًا : هناك مصر وإيران وباكستان ونيجيريا وتركيا وماليزيا ولبنان، وكلهم من الدول الإسلامية، وهم بترتيبهم التنازلي، من أكبر المنتجين للكتابات العلمية في السنوات الأخيرة، ولكن في حين أن مصر تمتلك عددًا كبيرًا من العلماء، إلا أن المعايير العلمية المصرية، متفاوتة ومتواضعة بدرجة كبيرة، باستثناء بعض المجالات الهندسية والتكنولوجية البسيطة. ثالثًا : أصبحت إيران - بعد انتهاء الحرب مع العراق - في موقف جيد لاستعادة تميزها وتسيدها التاريخي للمسيرة العلمية في العالم الإسلامي، وقد زرت إيران مؤخرًا، ورأيت تعطشًا لدى شبابها، مدعومًا من الطائفة الشيعية (الطائفة الوحيدة الممّيزة بتنظيمها شبه الكنسي في الإسلام)،

= القوى النووية الضعيفة، والقوى النووية القوية، ولكل منهم نظرياته وقوانينه المنفصلة حتى الآن. (المترجم)

أما فيما يتعلق بباكستان، فهي بانتظار حاكم مثل جواهر لال نهرو في الهند، يتمنّع بنفس توجهاته نحو العلم والتكنولوجيا. وأما إندونيسيا، فلا أعلم عنها ما يكفي لإبداء رأي فيها، وللأسف، فإن بنجلادش، لا تستطيع أن تفعل شيئاً في مجال العلم نظراً لفقرها الشديد، وبالرغم من ذلك، فلدى شبابها من الرجال والنساء رغبة شديدة في جعل المشروع العلمي جزءاً من حياتهم، أما باقي الدول الإسلامية، فهم قليلو الوزن فيما عدا السودان، حيث يوجد بعض العلماء العرب المكافحين، وأيضاً تركيا، حيث تحاول التأهل، لرغبتها في الانضمام لأوروبا، وكذلك الجزائر، بمجتمعها المضطرب، مع بعض الاحتمالات لكل من المغرب والعراق.

ولعل من أكثر أبواب الكتاب تميزاً، هذا الجزء الذى يتعلق بموقف شيوخ الإسلام وفقهائهم من العلم، فكما يقول الكاتب : لا كنيسة في الإسلام، ولا استبداد لسلطة مركزية رسمية، على الرغم من ذلك، وعلى عكس المتوقع، فإن المكانة المعنوية السامية المتمثلة في حق الفرد في الاجتهاد، وفي التفسير والتأويل دون اللجوء بالضرورة إلى كبار رجال الدين، قد أنتجت ضغطاً منهجياً منظماً، أثبتت الأيام قدرته على قتل القوة السياسية، والقوة الاقتصادية، ناهيك عن النواحي العلمية والتكنولوجية، على المدى البعيد. وقد حدث هذا - في رأي من خلال الاستخدام البارع لسلح التكفير. حيث اشتملت قائمة المكفرين على العديد من الشخصيات المشهورة، أمثال الإمام على الذى كفره الخوارج، والإمام أبو حنيفة والإمام مالك بن أنس، وهما مؤسسى مذهبين كبيرين من المذاهب الأربعة فى مدرسة الفقه الإسلامى. وكذلك الإمام الغزالي والشيخ الأكبر بن عربى والإمام ابن تيمية وسيد محمد جونپورى (Sayyid Mohammad Jonpuri)، وطائفة من العلماء أمثال ابن رشد وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم. غالباً ما كان حكم التكفير حكماً طائفيًا، منحرفاً، لكن الأحكام بالقتل تم تنفيذها، ومن استشهد فعلاً على هذا الطريق كان بعض المتصوفة، مثل منصور الحلاج وشيخ الأشرق شهاب الدين سهروردى والشيخ علائى وسرمد¹. حدث كل هذا، رغم عدم وجود كهنوت في الإسلام، وقد

¹ محمد سعيد سرمد: ولد في كاشان لأسرة يهودية، إلا أنه اعتنق الإسلام ورحل إلى الهند. كان شاعرًا صوفيًا وله رباعيات شهيرة قال في أحداهما ما معناه أن الفقهاء يزعمون أن محمدًا قد =

كتب أبو الكلام آزاد^١ (Abul - Kalam Azad) في سرده لاستشهاد سرمد (Sarmad):

"على مدى الألف وثلاثمائة عام الماضية، عملت أقلام القضاة عمل السيف المشهر، لم يقف الاستشهاد على الصوفية وأحرار الفكر فقط، بل امتد أيضًا إلى كبار رجال الأصولية الإسلامية"

على ذلك فإن عدم وجود نظام كهنوتي في الإسلام السني، لم يساعد كثيرًا، بسبب ميل الأئمة لاستعمال سلاح التكفير ببراعة، وما كان على الحكام والشعوب إلا الاستماع والإذعان لهم. فما هو العلاج إذاً، حتى لا يعود سلاح التكفير مهددًا - على أقل تقدير - للأفكار والمعتقدات العلمية؟

قد يكمن أحد الأساليب، في التعامل مع كل شريحة من شريحتي الملقين بعلماء الدين على حدة. تتمثل الشريحة الأولى، في الأئمة العاديين، الذين يتلخص دورهم في إمامة الصلاة في المساجد بالقرى، ويرتزقون من خلال أدائهم لبعض الوظائف، مثل توثيق عقود الزواج وإحياء المآتم وحفلات الطهور. ليس لهذه الشريحة اهتمام يذكر بمضايقات الأصوليين وفتاويهم المزعجة، طالما توفرت لهم أسباب الرزق (مثلهم مثل طبقة القساوسة)، ولا يتوقع أن يعوقوا مسيرة العلم والتكنولوجيا، متى تم تأمين لقمة العيش لهم.

أما الطبقة الثانية من الأئمة، وهي الطبقة المخربة، فهؤلاء رجال - بلا ذريعة روحانية- يزعمون امتلاك فهم القرآن الكريم وتفسيره ويصدرون فتاوى التكفير،

= دخل الجنة، لكن سرمد يقول إن الجنة دخلت محمد. اتهمه الإمبراطور المغولي المسلم شاه جيهان بالزندقة، وتم إعدامه في عام ١٦٥٨ بعد تولى الإمبراطور "اورانجزيب" الحكم (انظر الهامش بالفصل الحادي عشر). (المترجم)

^١ للشيخ أبو الكلام آزاد : هندي الأصل، ولد في مكة في عام ١٨٨٨م، ثم توجه إلى الهند حيث أصبح رمزًا من رموز الإسلام هناك، وبطلًا من أبطال حركة التحرير من الاستعمار البريطاني، وله مركزًا للدراسات الهندية باسمه في شارع طلعت حرب في القاهرة. (المترجم)

وهو شيء لم يفعله النبي عليه السلام نفسه. كما يُدلون في خطبهم أيام الجمعة بأرائهم في كل شيء، من السياسة والاقتصاد، إلى القضاء وغير ذلك.

قد نشور بعض الاعتراضات القائلة بعدم وجود كهنوت وقساوسة في الإسلام السنى. وفي هذا الصدد، لابد من القول بأن الإسلام، قد ابتلى بأسنوا آفة دون الأديان جميعا في تاريخ البشرية. ففي معظم البلدان الإسلامية، توجد طوائف تكاد تكون أمية تماما، لكن جرت العادة في الممارسة الفعلية أن يسندوا إلى أنفسهم مكانة الكهنة دون أى وعى بسيط متبق لديهم بمدى سماحة دينهم. إن غطرسة هؤلاء وجشعهم، بالإضافة إلى ضعف مستواهم الفكرى والمنطقى، كان موضع سخرية نوى الشأن من الكتاب والشعراء، من بلاد فارس إلى الهند وآسيا الوسطى وتركيا. هذه الشريحة هي المسئولة عن إثارة الجماهير والدهماء على مر التاريخ الإسلامى، كذلك كانت مسئولة عن الكبت والقمع فى الإسلام، الذى يتشابه إلى حد بعيد مع ما حدث فى بعض المجتمعات المسيحية، من ارتكاب قمع منظم من خلال محاكم التفتيش. إن العلاج الوحيد الناجح على المدى الطويل، هو منع هؤلاء الأشخاص، وتجريدهم من منبع قوتهم لإصدار الأذى، وذلك من خلال تجمعات صلاة الجمعة، التى يحولونها عن هدفها الأساسى - وهو التسامى الروحانى - إلى خطب سياسية. لا بد من وقف هذا التسييس.

ولقد سألت علماء الدين عن سبب عدم استغلالهم لخطبة صلاة الجمعة واستعمالها كأداة لاستنفار همم المسلمين وحثهم على التوجه نحو العلم والتكنولوجيا، خاصة وأن ثمن (واحد على ثمانية) القرآن يتحدث عن التفكير والتدبر - العلم والتكنولوجيا - وقد أجبني معظمهم، بأنهم يودون فعل ذلك، لولا عدم درايتهم الكافية بالعلوم الحديثة؛ حيث لا تصل معرفتهم بالعلم إلى أبعد من عصر بن سينا. تجدر الإشارة إلى محاولات أكاديمية العالم الثالث للعلوم لمعالجة الموقف عن طريق دعم الكتب والإصدارات - كما ساهمت فى دعم هذا الكتاب - التى يمكن لهؤلاء الاستعانة بها فى خطبهم.

فى الخلاصة، أرى فى النقاط الهامة التالية، ما قد يساعد على الارتقاء بالعلوم والتكنولوجيا فى بلادنا الإسلامية :

١ - زيادة عدد العلماء والتكنولوجيين الأكفاء، وتمييزهم حتى تصل أعدادهم إلى نسب مؤثرة. كما يجب دعمهم من حكوماتهم كي يؤسروا تجمعات علمية للبحوث والتقدم حسب القواعد التي يترتبونها (العلماء).

٢ - نحن في ميسيس الحاجة إلى العلماء في مجال العلوم الأساسية، فنحن - على أقل تقدير - نحتاجهم كمرجعيات للعلوم التطبيقية والتكنولوجية.

٣ - في ظل الظروف المعاصرة، فلا بد أن نتذكر دائماً، أن العلوم التطبيقية، والتكنولوجيا العالية، هما المحرك الأساسي للاقتصاد. فإذا تحقق نجاح بعض الأمثلة في مجتمعاتنا، فسنقل بالتبعية رغبة الحكام وعلماء الدين، في العبث بأعمال العلماء والتكنولوجيين.

٤ - على رجال العلم ونسائه (من المسلمين)، الحفاظ على تواصلهم مع أقرانهم في المجتمع الدولي، حتى تتوحد المعايير العلمية، كما هو حادث الآن خارج مجموعة الدول الإسلامية.

٥ - أخيراً، مازال هناك أمل، فبعد ٢٥ سنة من المطالبات وارتفاع الأصوات، ظهرت لأول مرة، بعض البوادر الإيجابية، متمثلة في تخصيص منح مالية لدعم العلوم من بعض دول الخليج. وقد حصل مركز ترستا هذا العام على ربع مليون دولار مخصصاً للعرب من خلال المنحة العربية للتطوير الاقتصادي والاجتماعي ومقرها الكويت. فإذا استطعنا الحصول على منح مماثلة للمسلمين بصفة عامة فلعل ذلك يؤدي إلى حدوث تغيير كبير في مستقبل العلوم الطبيعية في الدول الإسلامية.

البروفيسور محمد عبد السلام
الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء

١٩٩٠

تمهيد

لم تتم كتابة هذا الكتاب بناءً على تخطيط طويل مسبق، لكنه جاء كنتيجة للظروف والملابسات التي مرت بها، وأثارتني حتى دفعتني لكتابته.

بدأت المسألة - التي تطورت بعد ذلك - من محاضرة ألقيتها في عام ١٩٨٤ بناءً على دعوة من جمعية لاهور للتعليم وكان موضوعها "الإسلام والعلم". كانت تلك الفترة، فترة عصية على البلاد (باكستان) وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الأكاديمية. ففي أعقاب الانقلاب المزروع (عسكرياً وعقائدياً) في عام ١٩٧٧، أصبح الاختلاف في الرأي مع الخط الرسمي للدولة غير محتمل، وقد استقبلت السجون العديد من العلماء وأساتذة الجامعة - ومنهم بعض زملائي من جامعة القائد عزام - وتم تعذيبهم بسبب التعبير عن آرائهم التي لم تكن على هوى الحكام. وفي تلك الأثناء، كثر عدد الدجالين والمتملقين، ممن استجابوا لخطاب الحكومة بالأسلمة، وأمسكوا بزمام الأمور وأخذوا على عاتقهم أسلمة كل شيء من حولهم، بما في ذلك العلوم. وتسابق العديد من أعضاء المؤسسة العلمية الباكستانية لمساندة هذا التيار وقيادته، وفي سبيل تسليحهم للوصول إلى مراتب مرموقة، فقد أغفلوا وداسوا، ليس فقط على متطلبات العقل والمنطق، ولكن أيضاً على كل رؤية مستتيرة في العقيدة الإسلامية ذاتها. وزعموا بكل وقاحة، توصلهم إلى اكتشافات عجيبة وشاذة في غرابتها، تراوحت ما بين قياس سرعة الجنة، مستخدمين في ذلك نظرية النسبية لأينشتاين، إلى التوصل إلى التكوين الكيميائي للجن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تمادوا في مزاعمهم إلى استخلاص الطاقة من تلك المخلوقات النارية، وتوظيفها لحل مشاكل الطاقة في باكستان.

^١ الانقلاب الذي أطاح بحكومة ذو الفقار على بوتو، واتهم فيه بالخروج عن الإسلام، وقاد الانقلاب، الجنرال ضياء الحق، قائد القوات المسلحة في ذلك الوقت، بدعم من المؤسسة الإسلامية. (المترجم)

ومن المدهش حقاً أنه على الرغم من غرابة تلك الإدعاءات بنتائج العلوم الإسلامية، فقد قاموا بعرض وإلقاء هذه البحوث على أوسع نطاق، سواء فى المؤتمرات المحلية أو الدولية، كما قاموا بنشرها فى المجلات العلمية. هذا، ويتضمن الفصل الأخير (الملحق) من هذا الكتاب نسخة من أحد هذه البحوث بعنوان : ويسمونه علماً إسلامياً. وهو البحث الذى تم نشره أصلاً فى المجلة الباكستانية الشهرية "هيرالد"، فى عددها الصادر فى يناير ١٩٨٨، وألقى البحث فى المؤتمر الدولى الأول لمعجزات القرآن والسنة وهو المؤتمر الذى عقدته الجامعة الإسلامية فى إسلام آباد أثناء فترة حكم ضياء الحق. وقد أثار البحث - على مدى عام كامل - كثيراً من الجدل الساخن، بين أنصار تيار "العلم الإسلامى"، كما استغلته أيضاً التيارات المعارضة للدلالة على مدى إساءة استخدام الإسلام بواسطة الحكام فى الدول الإسلامية. وعلى الصعيد القضائى فقد تم استخدام البحث - بالإضافة إلى مستندات أخرى - فى بعض القضايا التى طعنت فى مصداقية النظام الإسلامى لحكومة ضياء الحق. جدير بالذكر أن البحث المنشور هنا، قد تم تحقيقه ومراجعته مع إضافة أسماء بعض المراجع إليه.

لقد حفزتنى الظروف العامة المحيطة إلى مناقشة محاولات أسلمة العلم، وشجعتنى على المزيد من التفكير فى الأمر، ودفعتنى لزيادة الاطلاع على ما يتعلق بالموضوع، ولم يمض وقت طويل حتى تبينت مدى ما للموضوع من روعة وإبهار بأبعاده المترامية وإسقاطاته المتعددة. وكانت هذه بدايتى على طريق معرفة المزيد عنه. كما اكتشفت أن للموضوع جوانب هامة للغاية ومعقدة، لم أكن وحدى جاهلاً بها، بل إن العديد من الآخرين، الأكثر تعمقاً فى تاريخ الإسلام، لم يعلموا شيئاً عنها، وعلى ذلك، فقد بدا ليس فقط منطقياً، بل أيضاً من المفيد، أن أقوم بجمع ما تعلمته، وأضعه فى صورة مناسبة لإصدار الكتاب.

وأود أن أقرر بوضوح تام، أنى لا أتوهم، ولا أزعم، تفوقى وسيادتى فى موضوع هذا الكتاب "الإسلام والعلم"، ولا حتى فى موضوع فلسفة العلم، كما لم يستقر عزمى على الكتابة بسهولة، فلم أكن أصلاً راغباً فى الكتابة فيه، كذلك

ساورنى الكثير من الخوف والتردد، فالموضوع بعيد تماماً عن مجال تخصصى العلمى، وهو الفيزياء النووية، لكن الأهمية العظمى لفهم العلاقة بين الإسلام والعلم، خاصة فى زمننا المعاصر، الذى ترتبط فيه المسألة ارتباطاً وثيقاً بحياة خمس سكان الأرض، كشفت عن الاحتياج الشديد لمن يتولى هذه المهمة. وكنت أتمنى أن يتولى المهمة شخص غيرى من ذوى الكفاءة المهنية المتخصصة، ولكن بدا من غير المنطقى الانتظار إلى الأبد لحدوث ذلك. وعلى أية حال، وبافتراض أحسن الفرضيات وأسوأها، فإن القارئ يحمل بين يديه، نتائج محاولة للنظر فى وضع العلم فى الإسلام، سواء فى الماضى أو الحاضر، وأما الحكم على قيمة المحاولة ومدى فائدتها، فانه أمر متروك لحكم القارئ.

أود أن أتوجه بالشكر والامتنان إلى كثيرين ممن حولى، خاصة زملائى فى قسم الفيزياء، فى جامعة القائد عزام بإسلام آباد، حيث أحاطونى بمناخ مناسب، فى وقت بدا فيه المجتمع بكل أبعاده، واقعاً فى برائن المعاناة والهذيان، ومن بين هؤلاء، أذكر ثلاثة أشخاص بالتحديد، وهم أولاً صديقى عبد الحميد نيار (Abdul Hameed Nayyar)، فطالما تبادلنا الآراء حول ما جاء بالكتاب من أفكار، وكان لنقاء فكره، وإخلاصه ودقته الشديدة، أكبر الأثر فى تنقيح عدة أجزاء. ثانياً : زميلى الأكبر عارف الزمان (Arifuzzaman)، الذى أفادنى كثيراً بمعلوماته الموسوعية فى التاريخ، كما أن تشاؤمه المستمر الذى لا يلين، أمدنى بروح التحدى المستمر، وأخيراً خورشيد حسنين (Khurshid Hasnain)، الذى اطلع على أقسام كثيرة من الكتاب، وكانت مقترحاته بالتحسين باللغة الأثر. أيضاً أدين بالشكر لإقبال أحمد (Eqbal Ahmed)، لتشجيعه ومقترحاته، ومراجعته الدقيقة لفصول الكتاب، ولعله من المناسب هنا أن أسجل مدى استفادتى منه ومن كتاباته، التى كان لها أكبر الأثر فى تشكيل أفكارى ورؤيتى.

وصلنى عبر المحيطات، العديد من المراجع، والمقالات، والتحليلات، والنقد البناء، من صديقى ضياء ميان (Zia Mian)، كذلك أشكر النور دنانى (Al-Noor Dhanani)، من قسم تاريخ العلوم بجامعة هارفارد، لإرشادى إلى

مرجعيات هامة، ولقراءته الحريصة للنص، ولإصلاح بعض الأخطاء التاريخية. وأتوجه بالشكر إلى الأستاذ قدرة الله فاطمي (Qudrutallah Fatimi)، لملاحظاته على النص الأصلي، وقد ضمنتها ضمن النص الحالي. كذلك أذكر بالعرفان، المنحة المقدمة من أكاديمية العالم الثالث للعلوم، لدعمها لشراء عدد من المراجع الهامة في مجالات التاريخ والفكر والعلوم.

كما أشكر الناشر، على شديد حرصه ودقته في شتى التفاصيل، ومقترحاته بالتحسين.

ختامًا، أدين بالعرفان اللامتناهي، لوالدي وعائلتي، وأخيرًا أشكر هاجرة (Hajra)، وعائشة (Asha)، وعلياء (Alia)، فحبهم ودعمهم المستمر لي، أسعدني جدًا، وجعل لحياتي معنى.

بروين أمير على بيود

إسلام آباد، ١٩٩١

الفصل الأول

الإسلام والعلم: هل هما متوافقان؟

لنتخيل سويًا أن فريقًا من علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) من كوكب المريخ قام بزيارة لكوكب الأرض فيما بين القرنين التاسع الميلادي والثالث عشر (٨٠٠ - ١٢٠٠). وانصبّت مهمتهم على دراسة النواحي الحضارية، وتطور مختلف مناحي الحياة للإنسان. ستكشف ملاحظاتهم عن أن بعض المجتمعات فى حركة ديناميكية نشطة وفى تطور واعد نحو أشكال حضارية أرقى وأسمى. على حين يتميز غيرها من المجتمعات، بالسكون والخمول وتبدو معاقة ومقيدة بالتقاليد والخرافات. وفى التقرير المقدم من بعثة زوار الفضاء إلى مقر قيادتهم، نجدهم يسجلون أن الحضارة الواعدة هى الحضارة الإسلامية، بما تملك من "بيت الحكمة"، والمراصد الفلكية، والمستشفيات، والمدارس. كما تبدو بغداد، بمن يؤمها من الدارسين من كل بقاع الأرض، كآلمع نقطة على سطح الكرة الأرضية، بصفتها مركز الحضارة فى العالم. كذلك يرصد علماء المريخ، شخصيات بارزة، مثل ابن الهيثم، وعمر الخيام، بصفتهم اللبنات الأولى لبناء العلم الحديث، وكوعاء حامل للذكاء العالمى والكونى. فى المقابل نجد أوروبا بمن فيها من الباباوات ورجال الدين من حارقى السحرة، تبدو بربرية ومتخلفة وغارقة فى ظلمات العصور السوداء.

لنفترض أن نفس مجموعة العلماء، القادمة من الفضاء عادت إلى الأرض مرة أخرى هذه الأيام لمتابعة الأحوال. سنجدهم بلا شك عاكفين على كتابة تقريرهم بحرج شديد، فعليهم أن يبرروا خطأ توقعاتهم السابقة. فإذا بالمجموعة البشرية التى بدت يومًا قوية فاعلة مبشرة بالتقدم، تبدو الآن عاجزة تمامًا، وقد تحجرت فى مناهة العصور الوسطى المظلمة، وإذا بها رافضة للحدثة، ومتشبثة بيبأس بالماضى القديم. على الناحية الأخرى فإذا بالأقوام المتخلفة سابقًا قد ركبت قطار التطور والتقدم حتى باتوا مستهدفين الذبوم والكواكب. وسيرى علماء التاريخ، أن صعود

وانهيار الحضارة الإسلامية من أكثر الأمور تشويشاً وبلبلة للفكر، وتراهم يتساعلون عما إذا كان هذا التحول العكسي الفاضح في الأدوار، جاء نتيجة لسوء حظ البعض وحسن حظ البعض الآخر؟ أم أن السبب يكمن في بعض الهزائم العسكرية والغزوات؟ أم أنه كان بسبب تحول آخر أساسى فى الرؤى والسلوك؟.

فقدت الحضارة الإسلامية، بشكل شبه كامل، عزمها، وقدرتها على صناعة العلم منذ حوالى ٧٠٠ سنة. ومنذ ذلك الحين، باستثناء بعض المحاولات التى تمت فى ظل الدولة العثمانية، وفى مصر - فى عهد محمد على - فلم تتواجد على الساحة أية محاولات ذات قيمة للنهوض. يقر كثير من المسلمين بهذا الواقع مع إيداء أسفهم للبالغ. ورغم أن هذا الأمر يمثل الشغل الشاغل لشريحة معينة من المسلمين المعاصرين من أنصار الحداثة. إلا أن الشريحة العظمى، المتمثلة فى المسلمين التقليديين، فلا يشعرون بأى أسف، بل على العكس، يبدو أكثرهم سعادة بحالهم، ومرحبين بخسارتهم. فمن وجهة نظرهم، أن الابتعاد عن العلم يساعد على الحفاظ على الإسلام ووقايته من التأثيرات الفاسدة للمدنية.

يرتبط التقدم العلمى ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات، ولا يمكن الفصل بينهما. من ثم يبرز السؤال المهم "هل يوجد توافق بين المعتقد الإسلامى وبين علوم العالم الطبيعية؟ أم أن هناك تناقض وتعارض غير قابل للتوفيق، بين نظام غيبى مبنى على الإيمان، وبين متطلبات المنطق والتساؤلات الموضوعية؟ لقد تناول فلاسفة المسلمين وفقهائهم تلك المسألة بالبحث والاجتهاد منذ أكثر من ألف عام، لكن الإشكالية مازالت قائمة حتى عصرنا هذا، عصر غزو الفضاء والسفر بين الكواكب، وعصر معرفة الجينات ودقائق تركيبها، ومازالت القضية مثار كثير من الجدل والاختلاف. كذلك يبدو أن الجدل الذى دار بين أنصار التجديد والحداثة من ناحية، وبين الإسلاميين الأصوليين من ناحية أخرى، حول مدى توافق الإسلام مع العلم، قد وصل بهم إلى أقصى درجات الإعياء، استمد الجميع نخيرتهم من نفس المنبع، وهو التراث الإسلامى، واستخدموا نفس الأساليب، من تفسير وتأويل للأحداث والنصوص، وانتقوا كل جانب منهم ما شاء من أمثلة، ليدعم بها ما شاء

من مواقف يعتبرها - من وجهة نظره - صحيحة في المقام الأول. يُبنى الجدل في جوهره، حول مسألة أساسية، فالعلم بطبيعته لا يمكن أن يكون إلا مسألة إنسانية مدنية (علمانية) بما لا يحتم إلغاء عنصر المقدس الغيبي، ذلك لأن إثبات الحقائق العلمية لا يعتمد على أى نوع من أنواع السلطة الروحية. فالمشاهدات والملاحظات والتجربة والمنطق، هى الحكم الوحيد للفصل بين الصحيح والرائف، فللعلماء أن يتدينوا كيف شاءوا، فى الوقت الذى يظل فيه العلم غير معترفاً بأية قوانين سوى قوانينه الخاصة.

إذا وضعنا حقيقة استمرار هذا الجدل طوال هذه العصور فى عين الاعتبار، فيبدوا أن الوصول إلى أى حل يرضى جميع الأطراف من المستحيلات. وعلى ذلك فمن السذاجة منى افتراض أن أية مناقشة إضافية - مهما كانت حجتها قوية - يمكن أن تضع حداً للقضية. كذلك يوضع فى عين الاعتبار، أنه مهما بلغت شدة الرغبة، فى إرجاع المسألة إلى منابع الوعى والفكر الإنسانى، فإن مبلغ أهمية المشكلة وعمقها، لا يسمح بإيجاد مخرج سهل. ومع الاقتراب السريع لنهاية القرن العشرين وقرب حلول عام ٢٠٠٠ فإن موقف الإسلام من العلم بشقيه النظرى والتطبيقي - يتخذ أهمية فائقة، غير مسبقة فى المجتمع الإسلامى. حيث لم يعد العلم، كما كان يمارس فى الردهات الفخمة لقصور هارون الرشيد والمأمون، مجرد وسيلة لتسلية الأمراء المتفتحين أو لتبادل الآراء والجدل بين العلماء والمتقنين، بل تغير الحال وأصبح العلم، شئنا أم لم نشأ، الوسيلة الأساسية المرتبطة وبلا رجعة، بتحول وتقدم الحضارة الإنسانية جمعاء. لقد أصبحت القوة العسكرية، والقوة السياسية، ودرجة الانتعاش الاقتصادى، أمور وثيقة الصلة، ونابعة من مدى قدرة الأمم المعاصرة على فهم العلوم الحديثة واستيعابها، والتحكم فيها، ثم الخروج منها بالابتكارات الرائدة. ولعل الحرب المشبعة بالتكنولوجيا العالية، التى شنها الغرب ضد العراق، والتى بنتها أجهزة الإعلام والتلفزيون لحظة بلحظة ليتابعها الناس فى شتى أنحاء العالم، لهى أصدق تمثيل على ذلك.

دفعت الحضارة الإسلامية ثمناً فادحاً على مر التاريخ، بسبب فشلها فى الاستحواذ على مقاليد العلم، مما تسبب فى تراجعها وتخلفها، مقارنة بتقدم الغرب

وارتقائه. كانت علاقة الإسلام بالغرب، فى العصور الوسطى، ذات طبيعة مختلفة، حيث كانت هناك أوقات من التعاون المثمر، كما كانت هناك أيضاً أوقات من المواجهة والعنف. كما أن سبعمائة عام من حكم المسلمين لإسبانيا قد منحت للأوروبيين - بالإضافة إلى أشياء أخرى- منافذ واسعة، للحصول على الكنوز المتراكمة للتراث اليونانى والإسلامى. على صعيد آخر فإن المواجهات المستفحلة والمريرة أثناء الحروب الصليبية، وما تلاها من سيطرة العثمانيين على مناطق البلقان، تركت لدى كلا الطرفين موروثة ضخمة من الاستياء والتضرر. وتسبب الشعور بالعداء، فى زيادة الفوارق بين الحضارتين، ولكن كما يشير إقبال أحمد (Eqbal Ahmed)، فقد كانت هناك أوجه للتشابه بين المجتمعين الإسلامى والغربى، حيث يقول:

"فى ذلك الوقت، كانت هناك حضارتان متشابهتين، فكل منهما تقليدية، زراعية ومنتمية إلى العصور الوسطى، مما أتاح درجة مناسبة من التقارب والمساواة فى تبادل الآراء والمنتجات. كلاً من الرابح والخاسر منهما، استعمل نفس الأسلحة، وتاجر فى سلع متماثلة، وتجاوزا على أرضية ثقافية مألوفة لكل منهما، كما كان هناك قدر من التوافق فى المصالح الطبقة، وتماثل فى الميول والاتجاهات، لدى شرائح المجتمعين المتناظرة، مثل طبقات الارستقراطيين، وطبقة العاملين، والتجار، والمتقنين." (مرجع ١)

ثم جاء عصر النهضة فى أوروبا، وانهار النظام الاقتصادى الاقطاعى، وبرزت الرأسمالية على نطاق واسع، ومن الشكل الاجتماعى الناتج، تولى العلم الحديث منذ حوالى ٤٠٠ سنة، وأصبح القياس العيارى، والتجربة، والتوقع، والتحكم، نموذجاً ومنهجاً للحضارة الجديدة. جاء العلم الحديث، وبحث عن فهم عقلانى لطبيعة الكون المادية، أتى بمبادئ التأكيد والتيقن، ونبت كل ما هو مريب ومثير للشكوك. هذا الأسلوب البحثى، المستمد من مجموعة متجانسة من الأسس والقواعد، المستقلة عن نفوذ السلطة ورأس المال، أصبح بلا شك أكثر معقولة وأرسخ فهما للأمور، إذ أنه مبنى على أسس من الحقائق التى يمكن لأى فرد

التحقق من سلامتها. وأصبح منهج التحقق من الصواب، في حاجة فقط لاتباع نفس الوسائل والخطوات البحثية والعلمية، ولم يعد معتمداً على الفتاوى الدينية أو الهيمنة العليا لأي فرد. لقد أصبح في مقدورنا اليوم، ولأول مرة في تاريخ البشرية، أن نفهم هذا الكون الهائل المحيط بنا، بكل غموضه وتقلباته، كعملية ميكانيكية مرتبة، نتحكم فيها الأرقام والمعادلات الرياضية في كل حركة أو تيار. كذلك أصبحت لمن يمتلكون المعرفة العلمية ووسائلها، قوة كبيرة، ما كان لهم أن يحلموا بها من قبل. لا شك، من وجهة نظر معينة، أنه تم استغلال قوة المعرفة، لفهم أعمق لقوانين الطبيعة، مما تأسس عليه خلق تكنولوجيات كثيرة جديدة. من ناحية أخرى، تحول العلم إلى سلاح لإخضاع واستعمار الشعوب الأقل امتلاكاً للمعرفة.

ويوضح لنا التاريخ كيف وقف المجتمع الإسلامي عاجزاً، بلا حول ولا قوة، في مواجهة الهجوم الشرس للاستعمار التجاري في القرن الثامن عشر، وكيف تم احتلال معظم الدول الإسلامية من غرب إفريقيا إلى شرق آسيا. لم تكن الهزيمة العسكرية المهينة، رغم قسوتها، هي الهزيمة الوحيدة في الأفق بالنسبة لحضارة تعودت على الفتوحات والانتصارات. لم يعتمد الاستعمار الحديث في قوته على الكثرة العددية بقدر ما اعتمد على القدرات العلمية والوسائل التحليلية، مما ترك المسلمين تائهين، ومخدرين، وفاقدى الثقة في أنفسهم. في الواقع، كانت المنافسة غير متكافئة. فالنظام الإستعماري، كنظام مركب متعدد الأوجه والأركان، يبدو مثل آلة كبيرة معقدة، تتحرك أجزائها بدقة فائقة. ولعل قوة تلك الآلة بدت كأوضح ما يكون في البنادق والمدافع الحديثة كما حدث في موقعة "بلاسى" (Battle of Plassey)¹ في عام ١٧٥٧، إلا أن التفوق التكنولوجي بصفة عامة، ممثلاً في التفكراف، والسفن البخارية، والمصنوعات الآلية، وكذا استعمال الأساليب التنظيمية

¹ موقعة بلاسى (Battle of Plassey) تعتبر أهم معركة في تاريخ التدخل البريطاني في الهند، حيث قامت مجموعة مكونة من ٢٥٠٠ جندي، بقيادة "كليف" الإنجليزي، بهزيمة جيش قوامه ٥٠٠٠٠، وبهذا تم لإنجلترا السيطرة على مناطق البنجال وغيرها، مما مهد لفرص سيادتها على الهند بعد ذلك. (المترجم)

الحديثة، هي التي وقفت خلف كل الانتصارات العملاقة. يلاحظ أن هذه العناصر جميعًا، كانت غربية تمامًا على حضارة زراعية رعوية. ومما لا شك فيه أن الجيوش المحلية الهائلة، قد قاتلت بكل بسالة ونبل، لكنها، ببساطة، لم تكن على دراية كافية بأساليب الحرب الحديثة، فتمت هزيمتها على يد فرق إنجليزية وفرنسية لا تزيد عن عشرين في العدد. وانتهى بذلك عصر التكافؤ الذي ميز العلاقة بين الإسلام والغرب لعدة قرون. لم يكن هناك مجال للشك في نتيجة المواجهة، وشكل نهايتها، بين الغرب بنظامه الصناعي والرأسمالي من ناحية، وبين مجتمع تقليدي، ما زال غارقًا في نظم ما قبل الرأسمالية. لقد زخرت المسيرة بالعديد من المآسي، خاصة وأن الاستعمار الجديد كان قد عقد العزم في مخططه، على إخال المدنية والحضارة إلى المجتمعات البدائية، مدمرًا في طريقه لحضارتهم التقليدية، ومحدثًا بذلك جراحًا عميقة لم تلتئم آثارها حتى الآن.

بعد ذلك، ومع ختام الحرب العالمية الثانية، بدأ عصر إنهاء وتصفية المستعمرات. وكانت العلاقات التقليدية مع الغرب، سواء منها العلاقات التجارية التقليدية، أو الاجتماعية، أو الثقافية والسياسية، قد تآكلت وضعت من جراء المواجهات المتعددة مع قوى الغرب الاستعمارية. كما كانت الحكومات الإسلامية مفتتة، وغير آمنة، حيث وجدت نفسها منخرطة في عالم ذي طابع جديد، لم تتح لها الفرصة في المشاركة في تشكيله، فحتى الحدود الجغرافية الحالية للعديد من البلدان المسلمة، رُسمت لهم حسب أهواء ومصالح السادة المحتلين السابقين. ثم استقلت تلك الدول، وجاء الاستقلال بكثير من التفاؤل والنشوة، إلا أن احتلال فلسطين وطرد أهلها من موطنهم، ثم ما تلا ذلك من هزائم عسكرية، إضافة إلى فشل الدول الإسلامية في تحقيق مؤسسات ديمقراطية قوية في بلادهم، كل هذا جعل التفاؤل المنشود أقصر عمرًا مما كان متصورًا. تسبب الفشل المتكرر، إضافة إلى أفول الحكومات المدنية القومية الاشتراكية - كما حدث مع مصدق في إيران، وعبد الناصر في مصر، وسوكارنو في إندونيسيا، وذو الفقار على بونو في باكستان - في ظهور درجة عالية من الإحباط وخيبة الأمل، كما مهد الطريق لظهور التيارات الأصولية الحديثة.

بعد ذلك، ساد في الدول الإسلامية الحديثة، إما حكم البيروقراطية العسكرية، أو حكم النخبة الإقطاعية القبلية، ممن لا يشغلهم شاغل أكثر من احتفاظهم بمناصبهم، وعلى غير ما كان مرجوا، فقد انتهج هؤلاء الحكام نهجاً استبدادياً، بعيداً كل البعد عن الأخلاقيات الاجتماعية للإسلام ومثله العليا، ولكن، استناداً على قوتهم الذاتية - وبالتالي قوة الدولة المعنية- اعتمدت هوية المجتمع الإسلامي وتماسكه. لقد أظهرت النخب الحاكمة للدول الإسلامية المعاصرة، قدرة محدودة للغاية، ولم يُبدوا أية رغبة ولو بسيطة، لمواجهة وحل المشاكل المتعددة، أو التحديات التي فرضها العالم الحديث. وعلى رأسها تقف مسألة تنمية وتطوير العلوم وتنمية المجتمع الواعي العقلاني. حتى أصبح من الواضح تماماً أن إنجازات الدول الإسلامية أقل كثيراً، مقارنة بغيرها من الدول الأخرى غير الإسلامية، حتى تلك الدول التي تشابهها من ناحية الموارد ومستوى الثقافة. وهذه نقطة مُهمّة جداً، وإشكالية عظمى، يتمحور حولها هذا الكتاب، وسأحاول في الفصول القادمة تحقيقها وإظهار صحتها كما وبالأرقام.

لا شك في أن تخلف البنية العلمية، يعد من أهم أركان الأزمة التي تغلف العالم الإسلامي، وتشير بقوة إلى أن الغرب سيستمر في تفوقه السياسي، والاقتصادي، والثقافي، على امتداد المستقبل المنظور. وإذا كان العالم يقف الآن على عتبات القرن الواحد والعشرين، إلا أنه ما زال من الصعب رؤية أية حركة، ولو واحدة، في اتجاه حضارة مبنية على العلم في أي من الدول الإسلامية.

وعلى الرغم من أن الأزمة العلمية في تلك البلاد، هي الشاغل الأساسي لهذا الكتاب، إلا أنها لا تمثل في الواقع، إلا بُعداً واحداً من أبعاد العلة المتفشية، والناجمة من فشل الحكومات في تأمين سعادة بلادهم، ودعم مواردها لتلبية الاحتياجات الأساسية لشعوبها، وإخفاقها في تأسيس نظام حكم جماهيري سليم. حقاً، إن الأزمة في جوهرها، أزمة سياسية، فلم يحدث أبداً في السابق، ولا في أية حضارة أخرى، أن:

"بلغت العلاقات بين الثراء والضعف، أو بين الموارد المادية والإفلاس الأخلاقي، إلى ذلك المستوى المأسوي المشهود حالياً. لم يحدث أبداً من قبل في

تاريخ للشعوب الإسلامية، أن انفصلت تمامًا كل الصلات بين السلطة السياسية والمجتمع المدني. فمن المغرب إلى سوريا، ومن العراق إلى باكستان وإندونيسيا، يتم حكم المسلمين بواسطة أقلية مسلحة، برغم وصف بعضهم لذاته بأنهم حكومات اشتراكية ديمقراطية، حين يزعم آخرون بأنهم إسلاميون، والبعض الآخر يصفون حكوماتهم بأنها إسلامية اشتراكية ديمقراطية. في الواقع فإن جميع الحكومات الإسلامية، مكونة من نخبة فاسدة متحجرة، برعت في قمع شعوبها أكثر مما برعت في حماية مواردها الطبيعية أو سيادتها القومية. كما أن ارتباطهم بسلطة أجنبي، يبدو أكثر قوة، من اهتمامهم بإدارة شئون شعوبهم". (مرجع ٢)

إن قلة الإمكانيات والتجهيزات، والتخلف عن مسيرة النمو الصناعي، والوقوف موقف المتفرج من السباق العالمي المحموم، للوصول إلى مزيد من الاكتشافات والاختراعات، وهو كله يعتبر سينا، لكن الأدهى، هو الحرمان من التعليم الجاد، ووجود حكومات لا تلبي متطلبات الشعوب، مع استمرار ممارسة امتحان الكرامة الإنسانية... حقاً إنها لمأساة.

المهمة القادمة

لمباشرة البحث عن فهم للعملية العلمية وتطورها، يحتاج الإنسان إلى تفهم أساسى للبناء العلمى، وماهية الفلسفة العلمية، وآليات عمل العلم الحديث، ومدى اعتماده على طبيعة ونوعية النظام التعليمى، وماهية الأفكار والقيم التى ينتجها، حيث تعد هذه العوامل بدورها، مسألة حيوية، لا غنى عنها إذا قُدر للعلم أن يزدهر. وفى هذا السياق فمن الضروري الإشارة إلى ظاهرة الاقتران الغير قابل للفصل، بين الحضارة الإسلامية والماضى. فى البداية، وقبل الإقدام على أية محاولة جادة لتحليل الموقف التالى للعلم فى المجتمع الإسلامى، لا بد لنا من فهم عميق لكيفية دخول العلم إلى عالم الحضارة الإسلامية، وازدهاره فيها لما يقرب من الخمسمائة عام. يصطدم الباحث مباشرة بتساؤلات صعبة، أهمها: هل كان علم الإسلاميين، علماً إسلامياً فى طبيعته؟ ثم ما مدى تقبله واستيعابه ضمن منظومة الثقافة العامة السائدة بين الجماهير المحيطة به آنذاك، وما هى القوى الاجتماعية

التي ساندته، وكذا طبيعة، ومدى تأثير التيارات العقائدية المعارضة. من المهم أيضاً فهم القوى التي أدت إلى انهيار العلم والتعليم في المجتمع الإسلامي، بعد أن بلغ ذروته منذ قرن مضى. فجميع تلك القوى، بلا شك، ما زالت مهمة حتى اليوم. على صعيد آخر، يحتاج الفرد إلى استكشاف العلاقة الحميمة، بين العلم والتكنولوجيا وأثرهما على قوى الإنتاج في المجتمع، ونمط توزيع السلطة السياسية والاقتصادية، التي تؤثر بدورها على نمط اختيار التكنولوجيا وطابع التصنيع.

قد يستاء بعض القراء، من تقديري للحالة الكثيرة للعلم في البلدان الإسلامية اليوم، ونظرتي الموحشة لما ستكون عليه الأحوال لسنوات قادمة، لكن يجب الإشارة إلى أن الهدف هنا، هو الموضوعية، وليس بالضرورة الإرضاء. فلا أمل في تغيير بناء، ما لم يتم تفهم عميق للواقع. فبدون ذلك سيظل المسلمون - وهم يمثلون خمس (٥/١) سكان الأرض - في معاناتهم من واقع مهين، كما سيستمر ذلك طالما اعتبروا العلم، وخاصة المعالجة الموضوعية للمشاكل الإنسانية، مسألة غريبة بالنسبة للثقافة الإسلامية.

رغم كل ذلك، فما زال هناك أمل في المستقبل، حيث تتنامى أعداد المسلمين المدركين بمدى الاحتياج لحدوث تغيير في هذا الموقف، هذا، إذا كان للعلم أن ينمو من جديد في الأراضي الإسلامية.

1- Eqbal Ahmed, "Islam and Politics" , and the State, ed. Mohammad Asghar Khan (London, Zed Press, 1985). p. 14.

2- Ibid., pp. 15-25

الفصل الثاني

العلم : طبيعته ومنابعه

ما زالت مسألة الاعتقاد بأن الطبيعة مرتبة ومنظمة، مسألة جدلية، وغير متفق عليها عالميًا. سمعنا أن بعض الهمج يعيشون فى عالم ملئ بالأهواء والنزوات، فما زالت بعض الجماعات والمحاقل تصلى من أجل نزول المطر، فى الوقت الذى يترددون فيه إذا كانت الصلاة من أجل أن تقف الشمس مكانها، والسبب فى ذلك أن علم الفلك قد تقدم كثيرًا عن علم الأرصاد الجوية.

ج. و. ن سوليفان¹ J.W.N Sullivan

جاء العلم ليبقى. وأصبح مستقبل البشرية مرتبطاً برباط وثيق بالعلم، ويحكى لنا التاريخ أن وجود الحضارة والتمدن الإنسانى الحالى، أصبح معتمدًا فى أساسه على العلم، ومستعينًا فى طريقه بالقيم الأخلاقية العالمية. بدون العلم، وقفت البشرية فى الماضى عاجزة أمام الرياح والعواصف، طحنتها الأمراض ودمرها الطاعون. أرعبتها الخرافات، حيث غابت قوى الآلة الفريدة التى يمتلكها الإنسان، ألا وهى العقل البشرى. ثم أوجد الإنسان العلم الذى حرر البشر من الخرافات.

وعلى أى الأحوال، فقد بات واضحًا فى أيماننا هذه، أن العلم يتعرض لهجوم مريع، وهو أمر ليس بجديد، فقد كانت هناك دائمًا تيارات معارضة للعلم على مدى التاريخ، خاصة من قبل أنصار المعتقدات الدينية على اختلاف مذاهبهم، الذين كثيرًا ما قاموا بتحقيق العلم وإيمانه باعتباره عملاً شيطانيًا موجهًا نحو تدمير القيم

¹ ج. و. ن سوليفان J.W.N Sullivan أحد علماء الرياضيات والطبيعة والفلسفة، ومن أشهر كتبة، كتاب "حدود العلم Limitations Of Science ١٩٣٣"، وكتاب "نواحي العلم Aspects Of Science ١٩٢٦". (المترجم)

والأخلاق المستلهمة من التعاليم الإلهية المقدسة. من ناحية أخرى فقد تكتشفت - على نطاق واسع - كثير من الأوهام المتعلقة بالعلم، إذ لم تتحقق كثير من الوعود التي أعطتها العلم بشأن وضع أفضل للعالم، فمثلاً أفلح العلم فى تحويل العالم إلى قرية عالمية، لكن بقى عليه أن يعلم القرويين كيف يتكلمون ويتفاهمون مع بعضهم. أيضاً نحن نحيا فى عالم ملوث إلى حد خطير، حيث قامت مخلفات الحضارة الصناعية - وبلا رجعة - بتدمير العديد من أنظمة البيئة الطبيعية الهشة. كذلك، وفى كثير من الأحيان، نجد أن العسكريين، هم أكثر من استوعب قيمة العلم بتصميماتهم ومنتجاتهم الخطيرة. على صعيد آخر، يتواجد التفكير العلمى الاختزالى، الذى يختزل جمال براعم الربيع المتفتحة، إلى مجرد علم النبات، كما يختزل غروب الشمس بروعته، إلى علم الأرصاد الجوية. يبدو أيضاً أننا لن نفلت أبداً من ظلال الخطيئة الذرية لأوبنهايمر¹ (Oppenheimer). حقاً، لقد أصبح استمرار الجنس البشرى فى الوجود، شيئاً لا يمكن ضمانه.

تركز كثير من الجدل، حول ما إذا كانت مشاكل الإنسانية البارزة، التى تُعزى عادة إلى العلم، قد ولّدها سوء استخدام العلم، أم أنها من صميم طبيعة العلم ذاته. يذهب الخلاف إلى أبعد من مجرد الجدل القائل بأن بعض تطبيقات العلم، خلقت للإنسان مشاكل فى منتهى الخطورة، إن لم تكن قاتلة فى بعض الأحيان، وهذا أمر متفق عليه من الجميع تقريباً، إلا أن المعارضين للعلم يذهبون إلى خطوة أبعد من ذلك، إذ يصرون على أن فلسفة العلم ذاتها، وهى طبيعة المعرفة العلمية وأساليب استقصائها، معيبة بشكل قاتل من الأساس. من ثم تقام الحجة على أن الوقت قد أزف، للبحث عن تحرير للنفس البشرية من قيود المعتقدات الخائفة، ولخلق بدائل علمية مبتكرة لم تخطر على بال أحد من قبل.

¹ روبرت أوبنهايمر (Robert Oppenheimer) المعروف بلقب "أبو القنبلة الذرية"، عالم أمريكى بارز فى الطبيعة ورئيس فريق الباحثين الذى صمم القنابل الذرية الأولى التى ألقيت على هيروشيما وناجازاكي باليابان فى الحرب العالمية الثانية، ومن مقولاته المشهورة "لن علماء الطبيعة قد تعلموا الخطيئة". (المترجم)

لكن قبل الدخول فى أية نقاش يتعلّق بالعلم البديل، سأقوم أولاً بمحاولة موجزة لتحديد معالم العلم التقليدى (المتعارف عليه). فى سبيلى إلى ذلك، سأستعرض المفاهيم المستعملة بين العلماء، ولن أتعرض للأمور أو المفاهيم الغامضة، القاصر تداولها على مناقشات فلاسفة العلم.

ما هو العلم

للإجابة على السؤال : " ما هو العلم " ؟ قمت بوضع مجموعة من المفردات المناسبة للمفاهيم والأفكار التى تقع فى قلب التفكير العلمى الحديث.

الحقائق (Facts)

يبدأ العلم بافتراض وجود حقائق. فعلى سبيل المثال، يقبل العالم ما تسجله الحواس، أو قراءات مؤشرات الأجهزة كحقائق. تكتسب تلك الحقائق مصداقيتها بشرط أن يتفق عليها راصدون مستقلون، أو إذا أجريت المشاهدات فى أوقات مختلفة وأماكن مختلفة، وتطابقت النتائج. بهذا الأسلوب فقط يمكن استبعاد الآراء الشخصية والمعتقدات الفردية.

مثالاً على ذلك، إذا توافقت بالإجماع، نتائج عدد من الراصدين المجهزين بأكفا الأجهزة والتليسكوبات، على عدد أقمار كوكب الزهرة، ومدار كل منها، وحجمه، وشكله، فى هذه الحالة يمكن قبول نتائجهم كحقائق صحيحة. أما كون بعض هؤلاء، أو كلهم، من المعروفين بسوء الطبع، أو من ذوى التصرفات غير المقبولة أخلاقياً، مثل تناولهم للكحوليات بكثرة، أو ممن يضربون زوجاتهم، فهذا لا يمس صحة نتائجهم. الشئ الوحيد المهم، الذى يجب عمل كل حساب لمنعه، هو عدم السماح بتواجد مؤامرة بينهم، والتأكد من أنهم توصلوا إلى نتائجهم باستقلالية تامة، وبعيداً عن الآخرين. من ناحية أخرى، فإن أحلام وإلهامات الدراويش، الذين يتمتعون بلا شك بقدرة كبيرة من الاحترام والإجلال، لا يمكن قبولها كحقائق علمية بأى حال من الأحوال، حيث أنها لا تعدو كونها تجارب شخصية بحثية، كما أنها غير قابلة للاختبار والتكرار والتحقق.

القوانين (Laws)

ترتب الحقائق في مجموعات، والعلاقة الرابطة بين مجموعة من الحقائق المندرجة تحت نفس المجموعة تسمى قانوناً أو قاعدة، وهي مجرد تنظيم وترتيب لما يتم رصده. ونسوق مثالين على ذلك :

• إن الضغط الذي تشكله كمية معينة من الغاز على جدران وعاء مغلق يحوى هذا الغاز، يتناسب طردياً مع درجة الحرارة (قانون بويل).

• إن توارث الصفات لابد أن يتم من خلال وحدات (جينات) تنتقل من الآباء إلى الأبناء، والتي تتفرق ثم يعاد اتحادها مع بعضها بشتى الأشكال أثناء عملية التناسل (قانون مندل).

لابد من وجود حقائق حتى يمكن التوصل إلى القوانين وصياغتها. فالحقائق المجردة تظل عقيمة، حتى يأتي العقل الذى يستطيع أن يميز بينها، العقل القادر على أن ينظر تحت سطح الحقائق المجردة، ليرى أصل وروح الحقيقة. هذا ما يفرق بين العالم القدير والمدعى الزائف.

الافتراضات (Hypotheses)

الافتراضات ما هي إلا تخمينات محتملة، تمثل فهماً مبدئياً لموضوع البحث، وهي توضع بعد ذلك موضع التجربة والاختبار. وهاهنا مثالان لهذه الافتراضات:

• يتناسب احتمال الإصابة بسرطان الرئة تناسباً طردياً مع عدد السجائر المدخنة يومياً.

• تزداد كمية المطر في مكان ما، كلما زاد عدد المصلين وزادت دعواتهم بنزول المطر.

للتحقق من صحة أى من الفرضيتين السابقتين، لابد من جمع البيانات بأعداد كافية، حتى يصبح احتمال حدوث تذبذب نتيجة الصدفة، أبعد ما يكون. وإلا توصل الإنسان إلى استنتاجات غريبة، مثل تزايد عمر الإنسان كلما زادت كمية السجائر التى يدخنها يومياً أو تناقص كمية المطر كلما زاد عدد المصلين.

النظرية (Theory)

النظرية مفهوم واسع، يقبع فى جوهر الفكر، والنظرية تعطى صورة متكاملة للأمور الواقعة فى مجالها. إضافة إلى ذلك، فلا بد للنظرية العلمية أن تستوفى بعض الشروط الصارمة:

- لابد وأن تتمشى مع كل المشاهدات ونتائج الاختبارات المعروفة.
- لابد وأن تتضمن مفهوماً جديداً، يتيح لها توقع نتائج وحقائق غير معروفة مسبقاً، ولكن يمكن اختبار مصداقيتها.

حتى ترتفع النظرية من كونها مجرد افتراض مطلى بطلاء الإيمان، فلا بد وأن تكون شمولية وغير قاصرة على مجموعة ضئيلة من المشاهدات. فمن أكبر محددات النظرية الحقيقية، أن تكون شاملة لعدد واسع من الظواهر. فنجد مثلاً، أن نظرية الجاذبية لنيوتن، تنطبق تماماً على حالة نملة جالسة على كرة صغيرة، كما تنطبق على قذيفة منطلقة فى طريقها إلى هدفها، كذلك تنطبق على حركة القمر حول الأرض، وعلى مسار الأرض حول الشمس، وعلى حركة الشمس بدورها بالنسبة لباقي النجوم. النقطة الأساسية فى مسألة النظرية، هى أن تكون عامة، وجامعة، بحيث لا يضطر الفرد، إلى اللجوء للاستشهاد بنظريات أخرى، كلما أراد تفسير حدوث كل حقيقة جديدة.

من ناحية أخرى علينا أن نقر بعدم وجود تعريف شامل كامل للنظرية العلمية. فكما أكد كارل بوبر (Sir Karl Popper)، أحد فلاسفة العلم المرموقين، حين أشار بأن النظرية، فى أساسها، يجب أن تكون قابلة للنقض، حتى ترقى لمستوى النظرية (مرجع ١)، معنى ذلك أن على الإنسان، أن يكون قادراً على التعرف بوضوح، على الموقف الذى إذا طبقت فيه النظرية، قادته المحاولة إلى إجابة محددة للسؤال عما إذا كانت النظرية صحيحة أم لا؟ فالنظرية التى يمكنها تفسير بعض الأشياء، دون التنبؤ بشئ جديد، لا يمكن بالتالى لحضها ونقضها، ولا يمكن استخدامها كنظرية.

إن عنصر النقض مهم جدًا وذو فائدة كبيرة، فهو يساعدنا على الفصل بين العلم واللاعلم، إلا أن الأمر لا يخلو من بعض العيوب. وللتمثيل على عدم فائدة ذلك العنصر في بعض الأحيان، نتناول نظرية الأوتار الفائقة للجسيمات الأولية (Superstring Theory of Elementary Particles). هدف هذه النظرية في النهاية توحيد كل القوى الأساسية في الكون، وكذلك التنبؤ بجميع أنواع الجسيمات الممكن وجودها. وبالمناسبة فإن النظرية معروفة أيضًا باسم نظرية كل شيء (Theory Of Everything, TOE). للأسف، فبالرغم من أن أقوى العقول تتصارع حاليًا مع النظرية في محاولة لاستخلاص تنبؤ ما يمكن إخضاعه للتجربة والاختبار، إلا أن جميع المحاولات قد باءت بالفشل حتى اليوم، ذلك لأن النظرية على درجة عالية جدًا من التعقيد الرياضى. كما إن التنبؤات الوحيدة للنظرية، فتتعلق بكم الطاقة الموهلة التي تواجدت وقت بداية خلق الكون. بناءً على ذلك، فلا يوجد فيها حتى الآن، شيء محدد يمكن إخضاعه للاختبار، ولا حتى في أكبر المفاعلات النووية في العالم. معنى ذلك أن النظرية تقتصر إلى عنصر النقض. ومع هذا لم يتم الاستغناء عنها واعتبارها غير علمية، لعدة أسباب، منها، أنها مبنية على أسس القواعد النظرية الراسخة، التي أثبتت نجاحها في السابق، إضافة لكونها لا تتعارض مع أى من الظواهر المعروفة، وكذا فإنها تعطى أملاً معقولاً، لتوحيد كل المعرفة المتوفرة حاليًا، كما أنها تعطى أملاً للوصول في النهاية، إلى اكتشاف شيء جديد تمامًا. بناءً على كل ذلك، فبالرغم من أنها نظرية غير قابلة للاختبار، إلا أن عنصر الاختبار قد يتوفر في المستقبل.

الاستقراء والاستنتاج (Induction and Deduction)

إن التأمل في المتشابهات ضمن مجموعة ما من البيانات، يمكن الفرد من تجميع المعلومات بأسلوب استقرائى، مما يتيح الفرصة لوضع قوانين بسيطة. على سبيل المثال، فإننا برؤيتنا للشمس تشرق كل يوم من الشرق وتغرب في الغرب، نستطيع أن نستقرئ أن الشمس ستفعل نفس الشيء غداً. أما الاستنتاج فيعمل بطريقة أخرى، حيث نبدأ ببعض القواعد العامة، ثم نخلص منها باستنتاج معين باستعمال وتطبيق الججج المنطقية.

الأسلوب العلمى (The Scientific Method)

بعد الانتهاء من تعريف المفاهيم الأساسية للعلم، يمكن الآن الانتقال إلى تعريف الأسلوب العلمى، الذى يتضمن فى جوهره الخطوات المتتابعة التالية :

- تحديد الإشكالية، التى قد تكون شيئاً غير معروف فى طبيعته أو تكوينه أو تركيبه، أو تأثيراته وتفاعلاته مع أشياء أخرى.. إلخ. كما قد تكون واحدة، أو أكثر من العلاقات الغير معروفة فى السابق، أو ذات للتفسير الضعيف غير الكاف، كذلك قد تكون علاقة بين أشياء، أو أحداث، أو رموز.. إلخ. والمقصود بتعبير "غير معروف" هنا، أى أنه غير معروف فى ظل ما هو معلوم من نظريات وقوانين.
- تحديد ودراسة كل المراجع المتعلقة بالمشكلة، ثم ترتيب البيانات وتحليلها حسب ما هو متوفر من درجات المعرفة والفهم. بهذا يتم توضيح ما إذا كانت هذه البيانات تشير إلى شئ جديد أو أننا بصدد شئ معروف فى ظل الإطار المتعارف عليه.
- إذا كانت المشكلة أصيلة، بمعنى أنها جديدة وتبدو غير مفهومة، يتم تصميم إطار، أو سلسلة من الاختبارات والملاحظات التى قد تقود إلى أدلة جديدة هامة.
- بعد الحصول على أدلة كافية لتشكيل فرضية منطقية، يتم اختيار ما يبدو أنه أبسط الفرضيات وأكثرها جاذبية وقبولاً.
- استنتاج مختلف الإسقاطات والاحتمالات الناتجة عن تطبيق الفرضية بعد ذلك يجرى تصميم مجموعة من المشاهدات والاختبارات المناسبة لاختبار مصداقيتها.
- إذا تم الحصول على مجموعة من المؤشرات الدالة على صحة النظرية، بحيث تبقى بعض الاستثناءات بلا تفسير، فينحتم بالتبعية التشكيك فى النظرية ويجب وضع نظريات بديلة واختبارها.

• أما إذا ثبت نجاح النظرية إلى درجة لا يبدو معها وجود أية استثناءات،
فترفع النظرية إلى مستوى القانون.

• تُقبل صحة القانون حتى يأتي الوقت الذي يعجز فيه عن تفسير مشاهدات
أو تجارب جديدة. في هذه الحالة يفقد مكانته كقانون، ولا بد من البحث عن
نظريات جديدة لتُمر مرة أخرى عبر جميع الخطوات السابقة.

في واقع الأمر، لا يمر التقدم العلمي الفعلي بالضرورة بكل تلك الخطوات
بهذا التسلسل، فأحياناً تقوم الصدفة، أو الإبداع الفائق، بتخطي المراحل المرسومة
مسبقاً في تحدٍ سافر. ولا يغيب عنا أن نذكر أن مجرد التعرف على مشكلة ما،
وتحديدها، واختيار الفرضيات الملائمة، ثم تصميم مجموعة الاختبارات اللازمة،
كل ذلك يجعل منه فناً رفيعاً، أكثر من كونه علماً. يوضع في عين الاعتبار أنه
بغض النظر عن السبيل المتبع للوصول إلى نظرية معينة، فإن الحكم النهائي على
صحتها، يركز على اللجوء إلى الاختبارات والملاحظات، وفي النهاية، فإن مدى
فائدة النظرية يكمن في عدد الحقائق المعروفة سابقاً التي يمكنها تفسيره، إضافة إلى
كم الأشياء الجديدة التي يمكنها أن نخبرنا بها.

يجوز تشبيه العلم، بمبنى دائم التطور، لا تتقطع فيه أعمال التجديد، فالبناء
دائماً في اتساع، مضيفاً إلى نفسه أجزاء وملحقات كثيرة. ناقدًا لنفسه، ومهدمًا لنفسه
أحياناً. لقد نما العلم بثبات من طور الملاحظة البدائية الأولية للطبيعة، حتى وصل
إلى تكوينه المعقد الهائل، الذي نعرفه اليوم. أما أفراد العلماء، فهم مثل النملة
الشغالة، الكادحة، مسخرون لبناء صرح المعرفة الإنسانية العملاقة، يأخذون من
المخزون المتوفر في أية لحظة من التاريخ، ويضيفون إليه قدرًا ضئيلاً من عندهم.
لكن سرعان ما قد يتم استيعاب أعمالهم واستهلاكها، ثم يمضي زمانها، وقد تُفقد
أو تُضيع، مثلها في ذلك مثل أي من الانجازات الفردية الأخرى. أما أعمال أساتذة
العلم البارزين، فتمتزج في كيان العلم المعاصر. من ثم يندر أن يحتاج المرء
للعودة إلى دراسة الأعمال الأصلية الأولى. على سبيل المثال، فإن خريج الجامعة
الذي يتراءى له أن يدرس الضوء والبصريات من كتاب "المناظير" لابن الهيثم،

أو قواعد الميكانيكا من كتب نيوتن، فله أن يختار ويفعل ما يشاء، لكنه بذلك يضع مستقبله وفهمه للعلم، في موقف غاية في الحرج، واكبر نصيحة له، أن يقوم بدراسة بعض المراجع الحديثة، التي تضم خلاصة خبرات وأعمال الآلاف من الباحثين، الذين عملوا بكل جهد - منذ زمن هؤلاء العلماء العظماء الأوائل - من أجل تحسين وزيادة وتعميم وتبسيط الموضوع.

يأتى التقدم العلمى من داخل العلم ذاته، ويعد كتاب توماس كون (Thomas Kuhn) المعنون "تكوين الثورات العلمية" (مرجع ٢)، علامة مميزة فى دراسة الأسلوب العلمى. وفيه يفرق بين العلم العادى الذى تمارسه أعداد هائلة من معظم العاملين فى مجال العلم، والعلم الثورى المتطور. العلم العادى، هو ممارسة العلم داخل أطر من المعتقدات والممارسات المتعارف عليها مسبقاً. ويصف توماس كون هذا الأسلوب بأنه نمطى أو نموذجى، بمعنى أنه يتبع نموذجاً معيناً. والعاملون فى هذا النموذج، يدفعون بجبهة العلم حتى أقصاها داخل حدود النموذج، يستمر ذلك حتى يفقد النموذج قدرته على مزيد من التفسير والتوقع، فعلى سبيل المثال أثبتت قوانين نيوتن فى الميكانيكا، كفاءتها كنموذج للظواهر الواقعة فى حدود أية سرعات أقل من سرعة الضوء، ولكنها بدأت فى التهاوى عند تجاوز هذا الحد. وهنا حدثت قفزة كبرى فى المفاهيم حين انتقل العلم من الميكانيكا العادية إلى الميكانيكا الثورية التى وضحتها ونماها أينشتاين. ومع مرور الزمن أصبحنا ننظر اليوم إلى نظريات أينشتاين على أنها مجرد علم عادى. من المعروف أن عمر العلم الثورى قصير، ففور ثبوت تفوقه وتخطيه للعلم العادى، يقوم العلماء بتبنيه واحتضانه كنموذج، بالتالى يتحول تدريجياً إلى علم نمطى.

هذه الصفة التراكمية، والمؤقتة، لطبيعة العلم، تميزه تماماً عن صفات باقى المؤسسات الإنسانية العظيمة مثل المؤسسات الدينية والفلسفية والفنية. ذلك لأن الدين يقوم على أساس الوجود الأبدى والحقائق الثابتة، التى لا تقبل أى إضافة، أو أى نقصان من قبل الأجيال المتعاقبة. والحكمة فى الدين ليست متراكمة ولكنها قائمة منذ البداية. أما الحكم النهائى فى الأمور - مثل ما يجرى فى محكمة الاستئناف - لا يتم فى هذا العالم بل فى الآخرة. كل هذا لا يعنى أن العلم والدين

غير متوافقين من الأساس، بل يشير إلى أنهما يقعان في ميدانين مختلفين، ولا يمكن المزج بينهما.

نظرية ما قبل العلم

حتى تكون التفرقة بين الأسلوب العلمى والأسلوب اللاعلمى فى التفكير واضحة تمامًا، نسوق الرواية المسلية التالية عن مخلوقات البلوجلايز (Plogglies) الخرافية من مؤلفات الكاتب وندل جونسون (Wendell Johnson)، والتي تبين الفرق بوضوح بالغ :

فى يوم من الأيام، ظهر لغزان محيران، حيرا أهل البلاد وشغلأ أحكم حكماء القرية لسنوات طويلة، فكلما بحثوا عن قلم رصاص، لم يجدوه، وكلما بحثوا عن مبراة، وجدوها محشوة بنفايات برى الأقلام. لقد كان الموقف مزعجًا للجميع، فلما بلغ قلق الجماهير أشده وثارت الناس، شكلت الحكومة لجنة من المفكرين والفلاسفة المرموقين لبحث الأمر، ولإعداد تبرير مناسب لتهدئة الجماهير الثائرة. اجتمع الفلاسفة وتشاوروا تحت ظروف مرهقة وشاقة للغاية، فالاضطرابات فى ازدياد، كما وأن صبر الناس أخذ فى النفاذ، حتى علا صخبهم مطالبين بالنتائج. وأخيرًا وبعد ما بدا للجميع أنه وقت طويل جدًا، مثلت اللجنة أمام رئيس الدولة، للإفصاح عن نتيجة مشاوراتهم بشأن اللغزين المرتبطين.

فى النهاية، كان الأمر بسيطاً للغاية. فنظريتهم تقول بأنه يعيش تحت الأرض أعداد كبيرة من الأقزام اسمهم البلوجلايز، يصعدون فى المساء والناس نيام، وينطلقون بسرعة، فيجمعون كل الأقلام الرصاص، ثم يسرعون إلى البرايات، حيث يقومون ببرى الأقلام حتى آخرها، يعودون بعدها إلى باطن الأرض.

وبهذا هدأت ثورة الجماهير. من البديهي أن هذه النظرية العبقرية جاءت بالإجابة عن اللغزين بضربة واحدة (مرجع ٣).

لماذا يا ترى تعتبر نظرية البلوجلايز نظرية غير علمية؟ الإجابة واضحة وبديهية، فالنظرية مخططة لتتلاءم مع مجموعة واحدة من المعطيات ولا يمكن

تطبيقها فى أى مكان آخر، ثم أنها لا تنتبأ بشىء جديد. من المعروف فى السابق أن النظريات المشابهة لنظرية البلوجلايز، لم تنتج أية معرفة جديدة، كما لم تعط أية قواعد أو مؤشرات يمكن الرجوع إليها لتخبرنا متى يمكننا الاشتباه فى تورط هذه المخلوقات فى أى حدث من الأحداث الأخرى.

لا يجب نسيان أن البلوجلايز - بالتعريف - مخلوقات لا يمكن مراقبتها، فهم يصعدون فى الليل حيث لا يراهم أحد، كما أننا لا نعلم شيئاً عن طباعهم وميولهم الأخرى. على ذلك فلا ندرى ماذا يمكن أن نتوقع منهم عند خروجهم فى المساء، بخلاف مسألة الأقلام الرصاص. بمعنى آخر لا توجد نواتج يمكن اختبارها فى نظرية البلوجلايز، وعليه فلا يستطيع أحد حتى أن يفكر فى تصميم تلك الاختبارات، ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن يستمر الناس فى الاعتقاد بوجود البلوجلايز - كموضوع إيمانى - كيفما شاءوا، طالما رغبوا فى ذلك.

مولد العلم الحديث

جدير بالذكر أن أسلوب العلم - كما تم توضيحه فى الجزء السابق - قد تواجد بصفة منقطعة على مر الأزمنة، بما فيها الحقبة الإسلامية، وكانت تلك الممارسات المنقرقة مهمة للغاية فى سبيل تنميته وتطوره. فى واقع الأمر، تبلور الأسلوب العلمى مع الثورة الشاملة التى بدأت فى أوروبا فى القرن السادس عشر، والتى أفرزت فى نهضتها، عالماً متحولاً من الناحيتين الثقافية والمادية. من ثم أصبحت التجربة، والقياس المعيارى، والتوقع، والتحكم، مثلاً ونموذجاً للحضارة الجديدة. وتلاشت الأفكار القديمة القائمة بوجود عوالم منفصلة للمادة، وللحياة، وللروح. وبدلاً من ألغاز الغيبىات غير المدركة، أصبح من الممكن الآن فهم الكون كآلة ضخمة منظمة تحكمها قوانين الفيزياء. من بعد كوبرنيكوس (Copernicus)، لم تعد الأرض مركزاً للكون كما كان متصوراً من قبل، بل مجرد كوكب مثل كثيرين غيره، يدور فى فلك نجم غير ذى شأن، على حافة المجرة. كما تغيرت نظرة الإنسان إلى نفسه، فبدلاً من اعتقاده السابق بأنه حجر الأساس فى الخلق، بدأ وعيه

بمدى ضآلته وتفاوته الكونية. إلا أن عصر العقل والمنطق وضعه في قلب الكون الواعي والمفكر. وبتحرر الإنسان من سجون لاهوت مسيحية القرون الوسطى، انطلق الفكر الحر نحو أعماق الفضاء وأغوار الزمن. ولم يعد هناك صغيرة أو كبيرة مهما بلغت، خارجة عن نطاق استيعاب الذكاء الإنساني، ولم يعد هناك ما هو بعيد جدًا في الزمان أو المكان، إلا وأعطى له وزنه المناسب في تركيب وتشكيل الكون. مما لا شك فيه أن الإنسان قد تحول إلى كائن ذاتي المعرفة بالتاريخ، كما أصبح واعياً بذاتيته البشرية.

جاء الوعي الجديد - إلى حد بعيد - من خلال ثوار الفلاسفة في عصر ثورة العلم، ومن هؤلاء نذكر، رينيه ديكارت (Rene Descartes) (مرجع ٤)، ولعله أكثرهم أهمية، ولعل أسمى اكتشافاته يكمن في وضع هيكل ونظام للفكر، وهو ما يسمى الآن بالإطار الديكارتي أو المنهج الديكارتي. الذي يفسح المجال لوجود علم متكامل للطبيعة، يتميز باليقينية التامة، كما يركز على قواعد أولية قابلة للتحقق والتثبت. يتسم هذا الأسلوب بكونه تحليليًا، حيث يحتم تجزئة ونقث الأفكار والمشكلات المركبة إلى عناصرها الأولى. "الطبيعة ذكية" كما يقول ديكارت ويمكن الكشف عن أسرارها من خلال اكتشاف القوانين، وعن طريق التجارب والاختبارات. ولعل ما تلى ذلك من استفادة وتطوير لعلوم الميكانيكا، بما فيها نظرية نيوتن الكبرى، لم يكن إلا تطويراً لهذه الفكرة الأساسية. وهو ما يؤكد أن علم الرياضيات، بلغته الدقيقة، لا غنى عنه كمتطلب أساسي لفهم الطبيعة. على الرغم من كل التطور والتقدم وإنجازات علوم ميكانيكا الكم^١ (Quantum mechanics)، والنسبية، ونظرية الشواش (Theory of Chaos)، التي حدثت خلال الثلاثة قرون الماضية، فما زال الارتباط الوثيق قائماً بين علوم القرن العشرين والديكارسية. فلولاها لما وُجد البنسلين، والمضادات الحيوية الأخرى، ولما هبط الإنسان على سطح القمر.

^١ ميكانيكا الكم: هو فرع العلوم الذي يدرس سلوك الجسيمات الدقيقة والقوانين التي تحكمها وتصف التفاعلات التي تتم بينها. تختلف ميكانيكا الكم في أنها لا تعطي نتائج محددة ولكن تعطي احتمالات، ولكنها عالية بدرجة أنها تقارب تمامًا ما نتوقه في التجارب العملية. (المترجم)

جاءت فكرة الآلة الحيوانية، مع الاختزالية الديكارتية. كانت الساعة مثالا للآلة الأوتوماتيكية في عصر ديكارت، لذا نجده يقارن بين الحيوان والساعة المركبة من بضعة تروس ويايات، ثم امتدت مقارناته إلى جسم الإنسان، فيقول ما معناه "أنا أنظر إلى الإنسان على أنه آلة.. ورأى، أن يقارن الإنسان العليل بساعة سيئة الصنع، في مقابل الإنسان السليم الذي يشبه الساعة جيدة الصنع. فما الهيكل العظمي، إلا مجموعة من الروافع، وأما القلب فيعمل كمضخة". تتألت بعد ذلك الاكتشافات بسرعة كبيرة، وكما يقول فلاسفة المنطق بكل صدق فإن كل علم الأحياء ما هو إلا كيمياء، وكل الكيمياء في نهايتها، ما هي إلا فيزياء. وضحت نتائج المنهج التحليلي الديكارتى تماما في النصف الأخير من القرن العشرين، حيث أصبح علم الأحياء الجزيئى (Molecular Biology)، والهندسة الوراثية، بمثابة التعبير الأخير عن النظرة الديكارتية.

ولعل من أكثر عناصر الرؤية الديكارتية عمقا وأصاله، نظريته للمرض كخلل فى النظام الحيوى، وحالة من حالات الكائن الحى، ناشئة من أسباب محددة، كالتقائورات، والطعام الفاسد، والحشرات، إلخ. وكما سنرى فى الفصل القادم، فقد لطمت هذه الأفكار وجه المواعظ التى ردها بكل قوة، كبار رجال الكنيسة المسيحية وزعمائها على مر العصور السابقة.

أطاحت الثورة العلمية فى طريقها لهدم نظام القرون الوسطى، بالتسلط المركزى وهيمنة الكنيسة. ليس هذا فقط، بل إنها غيرت أيضا مفهوم الإله فى العقيدة المسيحية بشكل جذرى.

قد يبدو متناقضا للوهلة الأولى، أن هذا التغيير جاء على أيدى الكثيرين ممن عرفوا بشدة التدين وعمقه من مؤسسى العلم الحديث، والأسلوب العلمى فى التفكير. من البديهي أن بعضهم لم يكونوا متدينين، مثل لا بلاس (Laplace) عالم الرياضيات الفرنسى الشهير فى القرن الثامن عشر، الذى عقب يوما على تساؤل لنابليون عن حركة الكواكب بقوله "يا إلهى، نحن لسنا فى حاجة إلى هذه النظرية". أما بالنسبة لديكارت - فكما كان الحال مع جاليليو، ونيوتن - فإن وجود الله كان

ركنا أساسيًا لفلسفة تعترف بوجود كلا من العقل والمادة. وفي حقيقة الأمر، فإن النظرة إلى الكون باعتباره عملاقًا ذاتي الحركة، كانت منقوصة، وغير مرضية أو مقبولة، بدون وجود خالق. لكن تغيرت صفات هذا الخالق، ولم يعد كما كان في العقيدة المسيحية في السابق. فبعكس إله العصور الوسطى، الذي تميز بكونه متفاعلاً ومتداخلًا مع الأحداث، ومستجيبًا لأفعال وصلوات مخلوقاته، أصبح دور الإله في الكون الميكانيكي، هو وضع الكون في مكانه، متلازمًا مع القوانين الأبدية، التي أصبحت من ساعتها فصاعدًا، محددة لمصير الكون. وعلى حد تعبير فولتير: خلق الله الكون كما يصنع الصانع الساعة، فمتى تم الصنع انتهت علاقته بها، وستجعلها قوانين الفيزياء تعمل بكل دقة حسب ما أسبغته عليها المشيئة الإلهية.

دأب فلاسفة المنطق على إنكار التدخل الإلهي الواعي وما يستتبعه من وقوع المعجزات، ولقد استقرت هذه النقطة بالذات في قلب النزاع العتيق، بين رؤية العالم العلمي الناشئ حديثًا، وبين الرؤية الدينية التقليدية. فأتجه بعض الفلاسفة، في محاولة لفض الخلاف، إلى إعادة تعريف لفظ المعجزة، بحيث يصبح معناها ببساطة "شيء رائع". من هذا المنظور تصبح كل الأشياء رائعة ومعجزة. وبناءً على ذلك، يمكن النظر إلى دقة المدارات الفلكية، وأبعاد الفضاء الشاسعة، والتوازن الدقيق لنظم البيئة على الأرض، والتركيب المعقد لعقل الإنسان - الذي لا يمكن سبر أغواره - على كونها كلها معجزات سرمدية. لعل أكبر المعجزات قاطبة - من خلال نفس المنظور - هي أن كل شيء في الكون، من أدق مكونات الذرة إلى أكبر النجوم العملاقة، وحتى الكون نفسه، معكروم بنفس القوانين الفيزياء الصارمة. أما العلم فلا يمتلك تفسيرًا لتلك القوانين، ولا يحسنه أن يعارض أو يدحض من يقول بأنها من عند الله.

تجوز مقارنة هذا المفهوم، بالاستعمال التقليدي للفظ معجزة، الذي يُعنى به خرق أو إيقاف مؤقت لقوانين الفيزياء السرمدية الصارمة. فكما يقول فولتير "إذا حدث كسوف للشمس والقمر في اكتمال، أو إذا سار الميت بضعة أميال حاملًا

رأسه بين يديه، فنستطيع أن نسمى ذلك معجزة ". مما يذكر، أن فولتير اتخذ موقفاً معاكساً لتعريف المعجزة المذكور، فيرى أن الله لا يمكن أن يوقف العمل بقوانين وضعها هو بنفسه، فيقول " أليس من أسخف الحماقات تصور قيام الكائن الأولى (الله) بعكس المسرحية الأبدية ذات الآليات الموهلة التى تحرك الكون بأكمله، من أجل ثلاث أو أربع مائة نملة على رأس كومة الطين هذه؟"

منذ عهد فولتير، لم يتغير بتاتاً موقف العلم الحديث - ما بعد نيوتن - حيال أمر حدوث المعجزات. بالتأكيد يمكن لأى عالم جاد، أن يؤمن بالله الذى خلق ورتب الكون، لكن طبيعة العلم الحديث، لا تسمح بالإيمان بالله يتدخل بمحض مشيئته، ليغير من مسار كوكب ما، أو يؤجل الكسوف، أو يغير الأنماط المناخية، وسقوط الأمطار بما يتعارض مع ما تمليه القوانين الفيزيائية المعروفة¹ (Hydromechanics)، أو أن يغير من قوانين اللعبة الكونية بأى شكل آخر. إن تقلب قوانين الطبيعة بناءً على رغبة إلهية وليدة لحظتها، لا يكشف لنا عن شيء أكثر من نواياه الآتية، التى قد تكون مؤقتة. إن هذه المتاهة المطروحة، والممثلة فى وجود تداخلات إلهية، لهى من النوع الذى لا يستطيع العلماء مواجهته، وتصبح معه كل الاختبارات والتجارب العلمية مستحيلة. إنما يأتى التساؤل، فيا ترى ماذا يجب أن يفعل العلماء إذا واجهتهم ظواهر غامضة بلا تفسير؟ ولنفترض أنهم ووجهوا بمرض قاتل أو انحراف غير مُبرر لمسار بعض الكواكب، أو بظهور جزئى نرى غير متوقع؟ هل عليهم - بعد شئ من الوقت - أن يتوقفوا عن البحث عن المسببات المادية ويسلموا بحدوث الظاهرة كنوع من الاستجابة للرغبة الإلهية؟ إذا فعلوا ذلك، فالاحتمال الأكبر: أنه سيأتى زملاء آخرون، أكثر براعة منهم ليتوصلوا فى النهاية إلى حل المسألة، ويحصلون بذلك على كل الشرف والفخر بدلاً منهم.

¹ ميكانيكا السوائل: فرع العلم الذى يدرس اتزان وانسياب السوائل والقوانين التى تحكمها. (المترجم).

لقد حررنا العلم من قوى الطبيعة المتقلبة، كما يبدو أنه أعطانا اليقين، وهذا في النهاية كل ما كانت الثورة العلمية تدور حوله. لكن هل هناك احتمال في كون كل الثوابت العلمية التي قدمتها لنا الإنجازات العلمية الحديثة، ما هي في حقيقتها إلا ضربا من الأوهام؟

هل دمرت الفيزياء الكمية¹ (Quantum physics) العلم

ازدادت في السنوات الأخيرة الأصوات الإكلينيكية الحماسية، مطالبة بإعلان وفاة العلوم الحديثة التقليدية -على الأقل من الناحية الفلسفية - مع إشاعة أن سبب الوفاة كان الانتحار، وأن الأداة المستعملة -واسمها فيزياء الكم- كانت من محض اختراع العلم نفسه.

من الممكن تخيل الحوار على النحو التالي: بدأ العلم الحديث مرتكزا على قاعدة من المنطق العام وملاحظة الطبيعة. كذلك كان من المفترض، أن البدء بذات الأوليات في أية تجربة، سيقود دوماً إلى نفس النتائج، مع عدم إعطاء أهمية خاصة لموقف المراقب. ذاته واحتمال تأثيره على النتائج، نظراً لأن للعالم المادى حقيقة موضوعية ثابتة، لا تتغير بتغيير شخصية الراصد. في النهاية، أدت إجراءات الرصد والاستخلاص وبناء النظريات إلى مولد الفيزياء الكمية. ويستطرد الحوار، الفيزياء الكمية تشير بعدم وجوب الثقة والاطمئنان إلى المنطق، فالطبيعة على مستوى أصولها البحتة، ليست مثل الطبيعة التي نراها ونعايشها في حياتنا اليومية. وبناءً عليه فهذه التلميح والإيحاءات تحطم وتبعثر مفهوم الواقع، الذي يُبنى عليه تقدم وتطور العلوم الفيزيائية، كما تنقض الفرضية الديكارتية القائلة بأن "الكل ما هو إلا محصلة لأجزائه الصغرى". على ذلك يبدو أن الوقت قد أزف لترك سفينة العلوم الحديثة الغارقة. وعلى الإنسان أن يبحث لنفسه عن وسيلة للنجاة. ولعلها تكمن في البدائل التي أمدتنا بها الفلسفات الشرقية، وغيرها من الفلسفات. إذا

¹ الفيزياء الكمية: فرع العلوم الذي يدرس الظواهر الفيزيائية، ويحاول تفسيرها بناء على قوانين ميكانيكا الكم التي جرى تعريفها في هامش سابق. (المترجم).

ينبغي علينا أن نخلق وحدات جديدة للعلم، كالعلم التاوى¹ وعلم العالم الثالث، والعلم الإسلامى. إلخ.

على أية حال، إن الاعتقاد بأن العلم الحديث، راقد على سرير الموت، ما هو سوى ضرب من التصورات والأوهام المعسولة، إلا أنه يمنح بعض العزاء، لمن ينظرون إلى العلم الحديث كمحور للشر في العالم. لكن نادرًا ما يؤدي تمنى الموت للعدو إلى وفاته. وفي حقيقة الأمر فإن العلم الحديث اليوم، وبعيدًا عن كونه شعلة متأججة، فهو غاية النشاط ويتمدد وينمو بسرعة كبيرة، كما أنه أصبح آمنًا ومحصنًا بقوته الذاتية وتعدد مجالاته، أكثر من أى وقت مضى. ذلك إلى الحد الذى أصبحت فيه الذرة -فضل الفيزياء الكمية - مفهومة إلى حد بعيد بكل تفاصيلها الدقيقة، حتى كاد يُسدل الستار على دراستها. وبدلاً منها، تحول البحث فى مجال المكونات الأصلية للمادة، نحو المفاعلات العملاقة، التى يمكنها فحص جزيئات أصغر مليون مرة من الذرة. على الطرف الآخر من المسألة، نحن نقف فى مأمن معقول فيما يتعلق بمعرفتنا لكيفية بداية الكون منذ حوالى ١٥ بليون سنة، ومعرفتنا للأحداث الأساسية التى حدثت فى اللحظات القليلة التالية (التى تقاس بالميكروثانية). ليس هذا ادعاءً بمعرفة كل جوانب تطور الكون، لكن الثقة فى صواب القوانين الفيزيائية الحالية قد تنامى بثبات، حيث توافرت للبشرية مشاهدات ومعلومات أكثر تفصيلاً عن الضوء والصوت والأشعة السينية والأشعة الكونية.. إلخ.

لا يمكن إنكار أن ميكانيكا الكم، قد أدت إلى أفكار مثيرة للقلق وغاية فى الإزعاج، فبعضها مثلاً ينفى المنطق العام. ويتحتم علينا أن نتساءل: ما هى طبيعة التحدى الذى تمثله تلك الأفكار تجاه نظرية المعرفة العلمية؟ وهل يتطلب الأمر أن ننبد وسائل البحث العلمى التى شكلت حتى الآن القواعد الأساسية للعلم؟. ونظرًا للأهمية العظمى للإشكاليات الفلسفية التى تطرحها النظرية الكمية، إضافة إلى كون

¹ العلم التاوى: (Taoist Science) من "تاو" Tao، أحد أديان الصين الثلاثة للكبار. (المترجم).

تلك الإشكاليات في منتهى الصعوبة الفنية. وفيما يلي مجرد محاولة لتقديم عرض سريع، قد يكون غير واف، لها.

ولدت الفيزياء الكمية في الربع الأول من القرن العشرين، وتتسيد علم الفيزياء الحديثة اليوم، وقد نشأت من محاولة تفسير العديد من الحقائق المرصودة تجريبيًا والتي تدور حول الذرة والإشعاعات، تلك الحقائق التي عجزت قوانين الطبيعة النيوتونية بجدارة عن استيعابها. وصاحب نجاح الفيزياء الكمية، ثورة في مضمون مفهومنا لإدراكنا للعالم المادي. فمثلاً هي تتنبأ بأن أى جسم مادي في مثل حجم الذرة - أو أيًا كان صغره - يمكن النظر إليه إما كجسيمات وإما كموجات، يعتمد الاختيار فيما بينهما على نوع الأجهزة المستخدمة في المشاهدة والاختبار. الأسوأ من ذلك، أن قاعدة هايزنبرج (Heisenberg) المشهورة عن "التشكك"، أو "اللايقين" (Uncertainty) تقول بأن مكان وسرعة أى جسيم لا يمكن تحديدهما سوياً في نفس اللحظة، وهو شئ مريب للغاية، فقبل الفيزياء الكمية، كان ينظر إلى العالم كله على أنه ممكن التنبؤ به، هذا على الأقل من ناحية المبدأ. بمعنى أن أحداث الماضي تحدد الوضع الحالي وأن أحداث الحاضر تحدد تمامًا أشكال المستقبل. إن نفى هذا النوع من الحتمية كان محبطاً للغاية، حتى أنه - على سبيل المثال - تسبب في إطلاق أينشتاين لتعليقه المشهور "إن الله لا يلعب النرد مع الكون" وأن يعلن معارضته للميكانيكا الكمية. ولكن بالرغم من الإقرار العام والاعتراف بأينشتاين، كرائد الفيزياء الأول في حينه، إلا أنه لم يكن محبوباً من أقرانه ومعاصريه. كما كانت الأدلة قوية ضد نظريته البديلة عن "المتغير الخفي" (Hidden Variable)، والتي كان حرياً بها أن تعيد للحتمية مكانتها.¹

¹ يعيب الميكانيكا الكمية، أنها لا تملك التنبؤ بتحديد أى ناتج من نواتج بعض التفاعلات الجسيمية، رغم قدرتها على التنبؤ بالاحتمالات الممكنة. وقد تنبّه أينشتاين لذلك، ومن هنا جاء التساؤل عن وجود عامل مجهول (خفي)، إذا ما تم التعرف عليه، والتحكم فيه، يصبح في الإمكان الجزم بنتائج أى تفاعل. وهذا العامل هو عماد نظرية الحتمية. (المترجم)

لا شك أن الفيزياء الكمية قد أجبرتنا على قبول فكرة أن إدراكنا الحسى للحقيقة ساذج إلى حد كبير. ولناخذ مثلاً، مضمون بديهية أساسية من الفيزياء الكمية، والتي تقول بأن الأسلوب المتبع فى مراقبة ورصد نظام ما، غالباً ما يغيره. هذه الحقيقة من السهل استيعابها عندما يكون النظام المقصود عبارة عن إلكترون أو ذرة، فى الواقع فإن الإلكترون قد يكون فى أى حال من عدة أحوال محتملة حتى تنتهى عملية الرصد، ولا يمكن التعرف بدقة أو تحديد أى الأحوال كان فيها لحظة القياس، إلا بعد إتمام الرصد، ذلك لأننا نلجأ إلى توجيه الإلكترون، وإجباره على اتخاذ حالة معينة، ومسار محدد، من بين بضعة اختيارات وبدائل فى أثناء محاولة القياس، وبذلك نكون قد غيرنا من حالته الأولى.

إذا استبدلنا كلمة إلكترون ووضعنا بدلاً منها كلمة "الكون المادى"، هنا تكمن المتأمة الحقيقية. فقد كان الكون بعد مولده، خليطاً من الحالات الكمية، ورغم وجود عدد لانهاى من الاحتمالات، إلا أن منظومة فرعية، ضئيلة جداً من بين هذه الاحتمالات هى التى تحققت. فهل نتج هذا لأن عملية المراقبة والرصد، أجبرتنا على رؤية بعض النواحي والتحقق منها فى الوقت الذى أغفلت فيه احتمالات أخرى؟ إذا كان الحال كذلك، فمن الذى قام بالرصد وماذا استعمل؟ بناءً على ما قاله عالم الفيزياء يوجين فيجنر (Eugene P. Wigner) الحائز على جائزة نوبل: "إن هذا لا بد وأن يشرك وعى الإنسان، كأحد العوامل المحددة لفهمنا اليوم لحالة الكون الكمية". ما زال مثل هذا الفهم لمضمون الفيزياء الكمية مثار جدل واسع، إلا أنه يعطى مثلاً لنوع التفكير الجارى فى الإشكاليات المتعلقة بالوجود والواقع. وللقارئ المهتم أن يستمتع بقراءة مقال بعنوان "هل يوجد القمر حين لا ينظر أحد؟، الواقع والنظرية الكمية" ضمن مجموعة أخرى من المراجع المذكورة فى نهاية هذا الفصل. (مرجع ٥)

على درجة أكبر من الغرابة، نجد تفسير "الأكوان المتعددة" للفيزياء الكمية. هذا التفسير الذى اقترحه هيو إيفيريت (Hugh Everett) فى عام ١٩٥٧، وفيه يؤكد على أن كل عملية من عمليات رصد نظام معين تؤدي بالتبعية إلى خلق كون

مواز، يشغل نفس المكان والزمان كالكون الأصلي، لكن غير قادر على التواصل معه. على ذلك، لا يمثل الكون الحالي الذى نشغلُه، إلا واحدًا فقط من بين عدد لا يحصى من الأكوان المماثلة. من شأن هذه النظرية أن تحل مشكلة القياس فى الفيزياء الكمية، ولكن على حساب أشياء أخرى كثيرة، فكما يقول برايس ديوييت (Bryce Dewitt) وهو من أنصار نظرية "الأكوان المتعددة" فى تفسيره:

"إن كل تحول كمى (Quantum transition) يحدث فى أى نجم من النجوم، وفى كل مجرة، وفى كل ركن من أركان الكون المتناهى، فإنه يُقسَم عالمنا المحلى على الأرض إلى عدد فائق من الأشباه المماثلة.... وهنا نصل بالتأكيد إلى درجة مستفزة من الفصام. (مرجع ٦)

لا شك أن الفيزياء الكمية، غريبة، ومدهشة، وغير معتادة، وهى بالتأكيد تمثل نافذة نطل منها على بعض نواحي الكون غير المدركة بحواسنا العادية. فهى تبدو لغير المعتادين على معادلاتها الرياضية، مزعجة وغير قابلة للاستيعاب، وأما بالنسبة للذين يريدون التخلص من العلم، فإن صوت الخلافات القائمة حول تفسيرها الصحيح، يطرب آذانهم.

لكن دعنا لا نفقد رؤيتنا الشاملة للغاية أثناء بحثنا عن الأشجار، فمما لا شك فيه أننا مرتبطون بقوة بمنظومة من الخبرات المشتركة. فالغالبية العظمى من علماء الفيزياء يستعملون الآن آليات الميكانيكا الكمية بصفة روتينية وبكل ثقة، ولم تخرج علينا تلك الآليات بأية تناقض، ولا فى مشاهدة واحدة من بين ملايين المشاهدات الموجودة. أيضًا لا يجوز اعتبار الجدل علامة على قرب الانهيار القاتل، بل إن الخلافات فى واقع الأمر، لا تمثل إلا وجهًا من أوجه النشاط الصحى فى مجال العلم. وحتى إذا انتهى الأمر بإحلال نظرية جديدة محل النظرية الكمية - ربما تكون أصدق منها، وتحمل خلافات أقل، وذات مفاهيم أكثر تحديدًا وأعمق فهما - فهذا لا ينفى ما نعلمه اليوم عن العالم المادى. ولنا أمثلة سابقة من التاريخ، فنظرية النسبية لأينشتاين، لم تلغ ميكانيكا نيوتن، بل وسعتها وهذبتها.

من المؤكد أن إشكالية التفسير مازالت بدون حل. من ناحية أخرى، فكثيرًا ما يساء فهم المشاكل وتضخيمها، بما لا يتناسب مع حجمها الحقيقى، وعلى سبيل

المثال، فبالرغم مما يقال من أن الميكانيكا الكمية تنفي نظرية الحتمية، إلا أننا لا بد وأن ندرك أن هذا مهم في حالة بعض الظواهر المحدودة للغاية، وفي نطاق ضيق يتعلق فقط بالأجسام الصغيرة كالذرات وغيرها، وليس له أية علاقة بما عدا ذلك، باستثناء مراحل التكوين الأولى للكون. نعود مرة أخرى إلى مسألة ما إذا كانت الأجسام الموضوعية تحت الدراسة تتغير تبعاً لإجراءات الدراسة والمراقبة، فنجد أنها أيضاً متعلقة فقط بذات المجال الصغير، وحتى في هذه الحالة، فلدينا تفسير كوبنهاجن" للفيزياء الكمية، الذي يشير في المقام الأول إلى أن بإمكان الميكانيكا الكمية أن تستوعب وتتوافق مع، كل المواقف المتعلقة بمفاهيم تتصل بأية اختبارات حقيقية أو نظرية. على ذلك لا يجوز طرح أسئلة من نوع "ما هي الحقيقة"، أو "ما هي حالة هذا النظام أو ذاك"، وبدلاً من ذلك يمكن للفرد أن يتساءل "ماذا يمكن أن يحدث، إذا فعلت كذا وكذا تحت ظروف كذا وكذا؟".

عندما يتعدّد النقاش حول ماهية الحقيقة، فلعله من المجدى أن يقرص الإنسان نفسه ليُشعر بأن تلك المشكلة حقيقية. ورغم أن التحليق فيما وراء الطبيعة شيء جميل، لكن دعونا لا ننسى أن الفيزياء الكمية، التي كونتها ملايين التجارب، تقف على أرض صلبة. كما يبقى الأسلوب العلمى سليماً في تماسكه وقوته، وتظل الفيزياء الكمية، كنتاج من نواتج هذا الأسلوب. أما إذا قدر يوماً إحلال ما هو أفضل من الفيزياء الكمية، فلعلها ستكون عن طريق ثورة من نوع ثورة "كون" (Kuhn)، ومن خلال مشكلات تنشأ وتُفهم من خلال تكوينها الذاتى. فالعلم، يُحسن وينقى نفسه بصفة دورية دائمة، كذلك فإنه لم يلق أبداً، أى تدخل ذو معنى من شتى الادعاءات بالبدائل، فهذه البدائل تقبع في الحدود الضيقة لنظم المعتقدات، كما أنها غير واضحة، ولا أمل فيها، حتى أن المدافعين عنها أنفسهم، ليست لديهم أية فكرة، ولو تلميحاً عن كيفية تأثيرها عليهم.

في النهاية، يمكننا القول بكل اطمئنان أن لدينا علماً واحداً، وأما مسألة أنه حكر على الغرب؟ فهذه قضية جدلية وسؤال وثيق الصلة بموضوعنا، وعلينا الالتفات إليه.

ببساطة، هل العلم الحديث، علم غربي؟

فى أحد الكتب المنشورة حديثاً، قام اثنان من العلماء البارزين فى الغرب، وهما ميكائيل مورافشيك (Michael Moravcsik)، و جون زيمان (John Ziman)، بتناول موضوع نقل العلم إلى دول العالم الثالث، وبدأوه بفظاظة واضحة:

"تأتى الحضارة الصناعية الأوروبية، مع العلم الأوروبي، فى منظومة واحدة. وأما التساؤل عما إذا كان لإحدى الحضارات المتخلفة، أو المقهورة، شكل خاص من العلم، فهذا موضوع نظرى بحت، إن طريقة النمو الاقتصادى، والتطور الاجتماعى، مبنى تماماً على "المادية المنطقية" لأوروبا - ما بعد عصر النهضة - ومستعمراتها فى شمال أمريكا... فى الاستعراض التالى، سيعتبر من المسلمات، إن العلم الأوروبى، يجب أن يكون القوة الحضارية المتسيدة فى العالم." (مرجع ٧)

لا أملك الحكم على رأى، أو إحساس، باقى القراء لهذا الكتاب، ولتلك الفقرة، خاصة إذا كانوا من الدول السابق احتلالها. ولكنى بالتأكيد، قد أحسست شخصياً بسريان البرودة فى أطرافى عند مطالعتها. ففيها شئ خبيث، أذى إعتزازى بنفسى. وحتى أكون أكثر وضوحاً، فها هنا، عالمان غربيان، ليست لديهما أية نزعة لستر إحساسهما بالتسديد الأخلاقى، وهما فى اتفاق واضح مع قيم حضارتهم، التى يعتبرونها جديرة بالتصدير. من وجهة نظر مهمة، هم لا يختلفون كثيراً عن إرساليات التبشير القديمة، التى آمنت - بحماس شديد - بمسألة الخلاص المسيحية. لتأتى الإرساليات الحديثة، وتضع نصب أعينها، اقتباس نفس الأسلوب، مرددة هذه المرة: "يجب على العلم الأوروبى، أن يكون قوة حضارية، سيادية، فى العالم أجمع". على ذلك، ويقدر ما يتضمنه خطاب هذه الإرساليات، فلا قيمة للتاريخ الحضارى أو العلمى للحضارات "المتخلفة أو المقهورة"، ولا مكان لها إلا فى سلة القمامة.

يدين كثير من الباحثين من دول العالم الثالث بالولاء للتكنولوجيا، وفلسفة العلم الحديث، ويشعرون بنوع من السعادة والعرفان، لكونها وجدت تربتها الخصبة فى

أوروبا. لكن سرعان ما يأتي التساؤل "هل يجوز الاستغناء بالكامل، عن إسهامات كل الحضارات العظيمة السابقة مثل الحضارة الصينية والإسلامية، والهندية؟ ثم هل كان بإمكان العلم الحديث أن ينمو، ما لم تكن تلك الحضارات قد أرست له القواعد لينتطور؟. تمتد جذور شجرة العلم بعمق إلى حضارات شتى. وحتى اليونانيون - الذين كثيرًا ما يأتي ذكرهم باعتبارهم الجد الأكبر للعلم المعاصر - ما كان لهم أن ينتجوا كل هذا الكم الهائل من الابتكارات والأفكار، دون المساهمات المادية والثقافية، المستمدة من مختلف البلاد الآسيوية والإفريقية. على ذلك، فمن الخطأ اعتبار العلم والتكنولوجيا غربيين، في الجوهر ومن الأساس. ثم، أفلم تكن أوشفيتس¹ (Auschwitz)، وهيروشيفا، من توابع نفس الحضارة؟ كيف يا ترى نقوم بتقييم حضارة خلقت مفهوم الإبادة الجماعية، والدمار المتبادل الأكيد² (Mutual assured destruction, MAD)

لا جدال أن المصدر المباشر للعلم الحديث، كان من خلال النهضة الحضارية في أوروبا، ممثلًا في عصر النهضة والثورة العلمية. كذلك لا شك في أن ما حدث، لم يكن مسبوقًا، لا في مجالاته، ولا في طبيعة التغيير الناتج عنه. كما لا شك أيضًا في صحة أن الإنجازات العلمية السابقة، التي تمت في كثير من البلدان البعيدة، ومن مختلف الشعوب، كانت لها أدوار في منتهى الأهمية. إلا أن العلم، لم يصبح جزءًا من الحضارة، ولا مؤثرًا هامًا في حياة الإنسان اليومية، إلا بعد مولد الحضارة الصناعية. كان هذا مثلًا من أمثلة الجدل الذي يُستعمل كثيرًا، للبرهنة على أن العلم، ظاهرة أوروبية خالصة.

إذا وضعنا باقي الجدل جانبًا، فلعله من المناسب هنا إلقاء نظرة سريعة على تاريخ المعرفة (Knowledge)، -التي لا يمثل تاريخ العلم (Science)

¹ أكبر المعسكرات النازية للإبادة الجماعية في غرف الغاز وكان يقع بجوار الحدود البولندية. (المترجم)

² الدمار المتبادل الأكيد: تعبير عسكري يفيد بالتكثير الشامل لكل من المعتدى والمدافع في حالة نشوب حرب بين القوى التي تمتلك وتستخدم الأسلحة النووية. (المترجم)

إلا جزءاً منها - لنرى كيف أنها ظاهرة حديثة إلى حد بعيد. ويلاحظ في البداية أن التاريخ المسجل للبشرية، لا يزيد عمره عن العشرة آلاف سنة، في حين يعود تاريخ الوعي (Consciousness) - ولو في صورة بدائية جداً - إلى بضعة ملايين من السنين على أقل تقدير. كما يوضع في الاعتبار عدم وجود أية معرفة من الأساس خلال عصور سابقة لا يمكن حصرها، كما ستأتى عصور متعددة في المستقبل بلا معرفة. من ثم فلا يبدو لتاريخ المعرفة والعلم أية أهمية تذكر من المنظور الكوني الواسع. ويبدو لى أن تقدم العلم عبر السنين السابقة، وخلال الأربعمئة عام الماضية في أوروبا، إنما تم بالكامل عن طريق الصدفة البحتة. على ذلك فإن الكبرياء التافه للحضارات التاريخية المتعاقبة، التى نرتبط به بمحض الصدفة ؛ يبدو غير عقلانى إلى حد بعيد.

ليس من المستبعد، أن تقوم بعض الأنواع الحية الموهوبة بالذكاء، ببناء وتطوير علم خاص بها فى النهاية، وسينبع دافعها الأساسى من واقع متطلبات الحياة وحب البقاء، وأما عن حقيقة قدرة العقل البشرى على التفكير والتمييز والتجريد، فإنما معناها أن تطور العلم كان سيأتى أجلاً أو عاجلاً عبر مسيرة تقدم الإنسان. من هنا يأتى السؤال "إذا كان العلم فى جوهره ناتج من نواتج الذكاء فهل يرجع مولد العلم الحديث فى أوروبا إلى تفوق فى جينات الأوروبيين؟". يريد منا بعض واضعى النظريات مثل ماكس فيبر¹ (Max Weber) وغيره أن نصدق هذا الكلام. لكن برغم الكم الهائل من الاختبارات التى أجريت حتى الآن، إلا أن علم النفس الحديث لم يجد أى سند علمى يؤيد ذلك.

يرتبط موضوع وجود ذكاء إنسانى عام، بواحد من أعمق أسئلة العصر الحديث، وهو السؤال الذى طرحه المفكر المعروف برتراند راسل (Bertrand Russell)، ممثلاً فى الكلمات التالية "كيف تسنى للبشر أن يعرفوا كل هذا الكم من المعرفة ؟ بالرغم من أن اتصالهم بالعالم وجيز، وشخصى، ومحدود". الذى

¹ ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) عالم ألماني، له كتابات ونظريات متعددة فى الاقتصاد، والسياسة، والأديان، واحد مؤسسى علم الاجتماع الحديث. (المترجم)

عنا راسل هو أن كمية المعرفة التي يمتلكها كل فرد منا ؛ كبيرة لدرجة مذهلة بالرغم من أننا نادرًا ما نعيش لأكثر من ستين أو سبعين عامًا. ولعل أقدر الناس على فهم مدى عمق مقولة راسل؛ هم ممن حاولوا تصميم برامج للكمبيوتر لجعلوه قادرًا على تمييز الأشياء، وعلى فهم أبسط القواعد.

يمكن الإجابة على تساؤل راسل؛ على أساس من البحوث العلمية - التي كثيرًا ما انتقصت من أهمية ملكة اللغة كمرآة رائعة للعقل ولقدرتنا على الاستيعاب - فحسبما تشير النظرية الحديثة لعلم اللغة، يطرح نوام تشومسكى (Noam Chomsky (مرجع ٨)، عالم فلسفة اللغات المشهور برأيه فى هذا المجال، حيث يرى أننا إنما نعرف كل هذا القدر من المعرفة، لأننا ولدنا من الأساس لنعرف. أن ما يقوله، وبالدليل الذى لا يحتاج إلى مناقشة هنا، إن الإنسان يولد وتولد معه ملكة اللغة. فقد ظهر الإنسان العاقل الرشيد من بين إبهامات مراحل التطور البيولوجى، وقد مُنح عقلًا فطريًا، قادر على التفكير التجريدى (Abstract thinking). وفى جوهر الأمر فهو مثل جهاز كمبيوتر معقد جاهز للتشغيل، ولكنه بحاجة فقط إلى بعض الإشارات الخارجية لتتبيها، ليطلق من بعدها العنان لتفعيل ملكاته المعرفية والخلقة، ثم إن اكتشاف تشومسكى لعالمية قواعد اللغة، يعطينا دلالة واضحة على مدى عالمية الفكر والسلوك الإنسانى. بذلك تتحطم كل النظريات العنصرية أو العرقية المتعلقة بالتطور، ويتأسس بذلك مبدأ تماثل البشر جميعًا (وهو ما يمكن أن يطلق عليه وحدوية البشر. The oneness of us all).

فى الخلاصة، فإن العلم ملكية فكرية للبشرية جمعاء، وجزءًا لا يتجزأ من التراث الحضارى العالمى، ولسنا بحاجة للالتفات لأى من المنادين بغير ذلك.

- 1- K. R. Popper, *Conjectures and Refutations*, (London, Routledge and Kegan Paul, 1963).
- 2- T. S. Kuhn, *The structure of Scientific Revolutions*, 2nd edition, Chicago, University of Chicago Press, 1970).
- 3- Wendell Johnson, *People in Quandries*, (New York, Harper Brothers, 1946).
- 4- A good discussion of Cartesianism can be found in P. J. Davis and R. J. Hersh, *Descartes' Dream*, (Boston, Houghton Mifflin, 1986) and Fritjof Capra, *The Turning Point*, (Bantam Books, 1983).
- 5- N. D. Mermin, 'Is the moon really there when nobody looks? Reality and the Quantum theory', in *Physics Today*, April 1985, 38-47.
- 6- P. C. W. Davies and J. R. Brown, *The Ghost in the Atom*, (Cambridge, Cambridge University Press, 1986).
- 7- Michael Moravcsik and John Ziman, in "Problems of Science Development", to be published by World Scientific, Singapore.
- 8- Noam Chomsky, *Language and Problems of Knowledge – The Managua Lectures*, (Cambridge, Mass., MIT Press, 1988).

الفصل الثالث

الصراع بين العلم ومسيحية القرون الوسطى

عندما علمت زوجة أسقف كنيسة وورستر (Worcester) بأمر نظرية دارون، عقت بقولها: "يا إلهي، أينحدر أصل الإنسان من القردة العليا ؟ دعونا نأمل أن لا يكون هذا صحيحًا، أما إذا كان، فدعونا نصلى كي لا يصبح الأمر معلومًا للجميع".

لا شك أن صرامة التشدد الأصولي في كل المعتقدات - بما في ذلك الأصولية الإسلامية المعاصرة - لم تكن يومًا على وفاق مع وسائل العلم واكتشافاته. أما من الناحية التاريخية، فلعن الأصولية المسيحية، هي التي خاضت أطول المعارك وأشدّها مرارة ضد العلم. لقد حكمت الكنيسة المسيحية أوروبا بيد من حديد على مدار ألف عام قبل عصر النهضة. كان التعليم العلمي المنهجي مستحيلًا آنذاك، خاصة في ظل ما اتسم به النظام العام من عدم السماحة، والتحيز، والتحامل المسبق على أي رأي معارض، بالإضافة إلى تشبعه بالشك والارتياب. وفي ظل ترتيبات الكنيسة الشديدة في أية محاولة حرة للتفكير، تم قمع كل وسائل التعليم، ما لم تكن متفقة تمامًا مع أهوائها وخطابها الديني. لقد أصدرت محاكم الدينية عشرات الآلاف من الأحكام بالتعذيب حتى الموت، على المشتبه فيهم بالسحر والخروج عن الدين (الزندقة، الهرطقة). فكان يتم ربط المتهمين إلى الخيول لتمزيق أجسادهم، وتنزع أحشائهم، ويجرى شنقهم، أو يحرقون وهم مشدودون إلى الخوازيق. حتى الموتى، لم يسلموا من التعسف والعنف. في واقعة مشهورة، خلص رئيس الأساقفة أوشر (Ussher)¹ من دراسته للإنجيل، إلى أن بداية خلق العالم

¹ الأسقف جيمس أوشر (١٥٨١-١٦٥٦) James Ussher رئيس أساقفة كنائس أيرلندة توصل إلى نتائج السابقة من واقع دراسته لنسخة للملك جيمس من الإنجيل. (المترجم)

كانت فى الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد الموافق ٢٣ أكتوبر عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد. هذا بالرغم من أن واىكلف (Wycliffe) ^١ كان قد قدم الدليل المبني على الحفريات الجيولوجية، على أن عمر الأرض يقدر ببضعة مئات الآلاف من السنين على أقل تقدير. على أية حال، لم تتحمل الكنيسة تلك المفارقة، فيما اعتبرته نوعاً من الوقاحة، وعليه، فقد أصدرت أوامرها باستخراج رفات واىكلف، وتفتيت ما تبقى من عظامه، وحرقتها، وإلقائها فى مياه الأنهار والبحار حتى لا تظل الأرض ملوثة بزندقته وجرائم أفكاره وتشككاته.

لماذا يا ترى اتخذت الكنيسة هذا الموقف المتشدد، والمعادى بكل قسوة، لرجال حملوا أفكاراً جديدة مثل بيكون (Bacon) ^٢، وواىكلف، وبرونو

^١ جون واىكلف (إنجليزى) John Wycliffe ١٣٨٤-١٣٢٨ كانت له مواجهات قوية مع الكنيسة وكرس كثير من وقته لترجمة الإنجيل من اللاتينية إلى الانجليزية، ومن رواد حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا، التى أدت إلى قيام الكنيسة البروتستانتية بعد ذلك. وبعد وفاته بسنين عديدة، أمرت الكنيسة باستخراج رفاتة وحرقتها وبعثرتها فى مياه نهر السويفت بانجلترا. (المترجم)

^٢ روجر بيكون (١٢١٤-١٢٩٤) فيلسوف إنجليزى، لقبوه بالطبيب المذهل. كان من أشهر الرهبان للفرنسيسكان فى وقته ومن رواد الدفاع عن المنهج العلمى العقلانى وحث للرهبان على تحصيل العلم. وضعوه فى باريس فى مرتبة أرسطو وابن سينا وابن رشد. رفض الانقياد الأعمى وراء السلطات السابقة، وأجرى تجارب عديدة، خاصة فى الكيمياء متبناً قواعد الكيمياء القديمة وألف عدة مؤلفات بناءً على رغبة البابا كليمنت الرابع، مهماً بذلك قواعد كنيسته التى تحظر النشر إلا بعد موافقتها. هاجمته الكنيسة بعد وفاة البابا وسُجن لمدة تزيد عن العشرة أعوام. وله تمثال مشهور بمتحف جامعة أكسفورد. (المترجم)

(Bruno)^١، وجاليليو (Galileo)^٢، وعشرات الآلاف غيرهم؟. لعله من الممكن الوصول إلى سبب هذا التعتن البالغ من خلال استعراض التسلسل الجدلي التالي:

١ - كان النظام الاجتماعي العام، قائمًا على الالتزام الحرفي بالقواعد الموضوعية بواسطة الكنيسة. كانت هناك قواعد لكل شيء، بداية من أصول ممارسة الطقوس الدينية، إلى ما يتعلق بالطعام والشراب، إلى الزواج والجنس... إلخ. حقًا، كانت مسيحية العصور الوسطى تمثل منظومة كاملة للحياة.

٢ - اعتمدت قدرة الكنيسة في إملاء وفرض قواعدها الجامدة، على تسليم الناس الكامل بمعتقدات الكنيسة، غير القابلة للتساؤل.

٣ - شيوع الاعتقاد بأن رفض أو نقض ولو واحدة من معتقدات الكنيسة - سواء عن طريق العلم أو غيره - قد يترتب عليه انهيار شامل ونقطة كاملة للبنية الاجتماعية ونظامها.

٤ - بناء على ذلك، أصبح العلم والتفكير الحر يمثل تهديدًا خطيرًا وكان لابد من تحريره.

يجب النظر إلى إدانة جاليليو، من هذا المنظور. فلم يكن العقاب الكنسي لجاليليو الأشد قسوة من نوعه، حيث كانت له أهميته الخاصة بصفته مثل أول قمع

^١ جيوردانو برونو (Giordano Bruno) ١٥٤٨ — ١٦٠٠، تميز بذكرته الحديديّة وله بصمات في الفلسفة والفلك وكان من رآيه أن الكون لا متناهي، ويشمل عدد من العوالم وأنها عامرة بالكائنات الذكية، واستمر حبسه أثناء محاكمته لمدة ثماني سنوات وأحرق بعدها على خازوق. (المترجم)

^٢ جاليليو جاليلاي (Galileo Galilei) ١٥٦٤ — ١٦٤٢، الإيطالي الشهير وكان عالمًا في الرياضيات والطبيعة والفلك ومصمم أول تليسكوب لدراسة النجوم، وأسس لكثير من النظريات التي قام عليها العلم الحديث ونادى بدوران الأرض حول الشمس وحوكم لاختلافه مع الكنيسة التي كان من رآيه أن الأرض هي مركز الكون، واضطر للتنازل عن آرائه أثناء المحاكمة، للإفلات من الموت ونفي بعد ذلك، نفياً تعزلياً حتى توفي. وقد أصدر البابا يوحنا الثاني في أكتوبر ١٩٩٢، اعتذاراً باسم الكنيسة - وإن كان سبق له التلميح مراراً إلى هذا الموضوع - عن التهم الموجهة لجاليليو ومحاكمته. (المترجم)

فعال للرأى العلمى، الذى ثبتت صحته بعد ذلك. وفى هذا الصدد علق برنارد شو
بذكاء:

"إن موضوع جاليليو من المواضيع المفضلة لدى علمائنا، ولكنهم يخطئون
القصد باعتبار جوهر المشكلة يكمن فى مسألة: هل تدور الأرض حول الشمس
أم أنها ثابتة فى المركز والشمس تدور من حولها؟ لو كان الأمر بهذه البساطة،
لما خرج عن كونه وصفاً لحقائق الطبيعة، وبلا أى مدلول معنوى أو عقائدى،
ولما ثارت الكنيسة. لكن الواقع كان غير ذلك، فقد رأت سلطات الكنيسة من
ناحياتها، أن العقيدة المسيحية، يقوم عليها، ليس فقط كيانهم الخاص، بل أيضاً كيان
الحضارة فى العالم أجمع، كما أنها- الكنيسة - قد سبق وقبلت، واعتمدت،
النصوص اليهودية والعهد اليونانية كوحى مقدس، وعليه فالكنيسة لا تستطيع
تحمل صدمة اكتشاف أن الكثير من مروياتها، بدءاً من محاورات جوشوا فى
معركة جيديون، ونهاية بمسألة صعود المسيح، لابد وأن تكون قد كتبت بواسطة
من لا علم له بحقيقة الكون المادية". (مرجع ١)

لقد تناول العديد من الباحثين تلك الحقبة بالدراسة المستفيضة، باعتبار أن فترة
قمع الرأى العلمى بواسطة الكنيسة كانت من أحلك عصور التاريخ البشرى، ولعل
من أبرز الأعمال فى هذا الشأن، تلك المعالجة التى نشرت فى عام ١٨٩٦،
بعنوان " تاريخ حرب العلم مع اللاهوت " والتى كتبها أندرو ديكسون
وايت (Andrew Dickson White) (مرجع ٢)، الذى تقلد فيما بعد منصب أول رئيس
لجامعة كورنيل بالولايات المتحدة. ومن هذا المجلد الرائع اخترنا المقطعات التالية :

- إن مبدأ كروية الأرض وبالتالي وجود نقاط متقابلة على سطح الكرة
الأرضية لم يكن مقبولاً فى الفكر الدينى، وقد هوجمت الفكرة بشدة من
رجال الدين الذين تساءلوا باستكار "هل يوجد من فقد التمييز والإدراك
إلى هذا الحد، حتى يعتقد بأن المحاصيل والأشجار تنمو لأسفل وبأن
الأمطار والجليد يسقطون إلى أعلى؟". لقد استطاعت الهيمنة العليا للقديس
أوجستين أن تجعل الكنيسة، ولمدة ألف عام، تقف بحزم وقوة، ضد فكرة

وجود نقاط متقابلة على سطح الأرض، وقالت بأنه حتى بافتراض وجود النقاط المتقابلة، فإنه يستحيل وجود الإنسان بها. فى القرن السادس فتح بروكوبيوس الغزاوى¹ (Procopius of Gaza) نيران مدافعه العقائدية، معلنا استحالة وجود النقاط المتقابلة، وإلا، فإنه كان على السيد المسيح الذهاب إلى تلك المناطق المجهولة ليعانى مرة أخرى، كما يستلزم الأمر وجود صورة طبق الأصل من "عذن" ثانية، وغير ذلك من مطابقات أخرى كثيرة، مثل آدم، والثعبان، والطوفان.. إلخ. وعلى ذلك فمسألة النقاط المتقابلة خطأ واضح واستحالة أكيدة.

أعلن للقديس بول أن الأمراض فى حقيقتها، ما هى إلا أعمال خبيثة للشياطين، ويقول أوريجون (Origen)، بصفته ممثلاً للسلطة الكنسية "إنها العفاريث. هى التى تسبب المجاعات، والبوار، والعقم، وفساد الهواء، والأوبئة، وهى تحوم وتنتقل متخفية فى السحاب، خاصة فى الطبقات السفلى من الجو، وتتجذب نحو الدماء والبخور التى يقدمها لهم الوثنيون الذين يعتبرون العفاريث آلهة". ويكتب أوجستين (Augustine)، باعتباره أقوى سلطة فى الكنيسة المبكرة: "تسبب تلك الأرواح الشريرة (العفاريث) فى جميع أمراض المسيحيين، خاصة من كان منهم من حديثي التعميد، نعم، وحتى الأطفال الأبرياء". ثم، بأمر من البابا بيوس الخامس (Pius V)، أصبح لزاماً على جميع الأطباء الاستعانة بما أسماه "طبيب الروح"، على أساس أن الاعتلال البدنى، ينشأ على الأرجح كنتيجة لارتكاب المعاصى. وباستقرار الأمر، على أن الشياطين والأرواح الشريرة، هى مصدر الأمراض، أصبح من الطبيعى أن يكون العلاج عن طريق طردها باستخدام وسائل التراث المقدس، تبعاً لذلك، انهالت التبرعات على الكنائس والأديرة، خاصة ما اشتهر منها بامتلاكه لأسباب

¹ بروكوبيوس الغزاوى (من غزة) (٤٦٥-٥٢٨) يعتبر من رواد الصوفية فى المسيحية، ومن أهم المعبرين عن فكر المنطقة فى حينه. (المترجم)

الشفاء. وفي الواقع، أصبحت الكنيسة، راعية ليس فقط لأرواح المسيحيين، بل أيضًا لصحة أبدانهم.

- أقرت الكنيسة بأن الأوبئة مثل الجدري والكوليرا، إنما هي عقاب من السماء، وبالتالي أصبح التدخل البشري للوقاية منها بالتطعيم عملاً مرفوضاً بشدة، وكانت وجهة نظر الكنيسة أن الجدري "عقاب إلهي على خطايا البشر، وأن أية محاولة للتدخل لمنعه، لن تتسبب إلا في زيادة نقمة الله". وعلى ذلك أُلقيت قنبلة مشتعلة داخل منزل أحد المواطنين، بسبب إيوانه للدكتور/ بويلستون (Zabdiel Boylston ١٦٧٩ - ١٧٦٦) أحد رواد التطعيم ضد الجدري. هذا بالإضافة إلى انطلاق سيل من الخطب المنبرية، الشاجبة لأنصار التطعيم. لكن الحق كان واضحاً وقوياً، فبالطبع عاش الناس، وبدونه زادت الوفيات، وانتهى الأمر أخيراً، بقبول الكنيسة على مضض بالتطعيم وإن كانت معارضتها لم تختف تماماً.

- كانت معارضة الكنيسة للتشريح، من العقبات الكبرى في سبيل التطور العلمي للطب، وقد شجب القديس أوجستين هذه الممارسات، ووصف الذين يمارسون التشريح بالجزارين. وكانت هناك فكرة مرعبة سائدة مفادها، أن العيب بأجساد الموتى، قد يجازى عليه بأهوال فوق حد التصور يوم البعث. وأضافت الكنيسة بقولها "إن الكنيسة تمقت إسالة الدماء" وهي مقولة جميلة حقاً في حد ذاتها، ولكنها تبدو في مفارقة صارخة عند مقارنتها بالسعادة البالغة للكنيسة التي قتلت وأحرقت الآلاف ممن اتهمتهم بالسحر والزندقة، مما يوضح أنها في الحقيقة لم يكن لديها مانع من إسالة الدماء، طالما كان ذلك في سبيل مصلحتها المقدسة.

- في حوالى عام ١٧٧٠، حدثت ظاهرة غريبة في الغرابية في أجزاء كثيرة من أوروبا، حيث اصطبغت المياه بلون الدم الأحمر، وأرسلت تقارير عديدة إلى الأكاديمية الملكية للعلوم، تفيد أن المياه تحولت إلى دماء. وعلى الفور رأى رجال الكنيسة أن ذلك يشير إلى غضب الله الشديد.

وعندما امتدت الظاهرة إلى السويد، قام أحد علماء الطبيعة البارزين وهو ليناوس (Linnaeus)¹ بفحص الظاهرة، حيث تبين له أن تحول لون المياه، كان بسبب وجود كميات غزيرة من حشرة دقيقة حمراء اللون. وفور وصول تلك المعلومة إلى الأسقف، رفضها بشدة واعتبرها من الأفكار الشيطانية، وأعلن أن احمرار المياه لا يمكن أن يكون لأسباب لها أية علاقة بالطبيعة. ولم يكن ليناوس من الغفلة لينسى ما حدث لجاليليو من قبله، فتراجع عن رأيه العلمي في النهاية معلناً أن حقيقة الأمر، أبعد من قدرته على الفهم.

• روج رجال اللاهوت وكنيسة العصور الوسطى، لفكرة أن الأجرام السماوية المذيلة، والمعروفة باسم المذنبات، ما هي إلا كرات من اللهب يقذف بها الله معبراً عن غضبه على العالم الشرير. وقد عبر رجال الكنيسة عن المغزى الأخلاقي لذلك، بتصويرهم لأحد تلك الأجرام مرسل من عند الإله، إلى قاض يجلس في قاعة المحكمة، واضعاً سيف القصاص على منضدة تفصل بينه وبين المتهمين. كما أعلن آخرون، عن نبذ الكنيسة لكل من تُسول له نفسه النظر إلى تلك الأجرام - التي تتضمن إشارات إلهية - وشبهوهم ببهائم تقف مشدومة على أبواب الحظائر. وحتى قرب نهاية القرن السابع عشر، كان على أساتذة الفلك أن يقسموا قسماً، يمنعمهم من تدريس تلك الأجرام، باعتبارها أجسام سماوية تخضع لقوانين الطبيعة. على أية حال، في النهاية لا يمكن كبح جماح العلم إلى الأبد، فقد قام العالم "هاللي"² (Halley)، مستعملاً نظريات نيوتن وكبلر، برصد مسار مذنب

¹ ليناوس (Linnaeus Carolus) ١٧٧٨-١٧٠٧ سويدي، من أشهر علماء النبات في العالم، وواضع أسس التسميات الثنائية العلمية، ووضع الأسس لتصنيف النباتات والحيوانات. وهو النظام المستعمل حتى اليوم والمعروف باسمه (Linnaean taxonomy). (المترجم)

² هاللي (Edmond Halley) ١٦٥٦-١٧٤٢ : فلكي وعالم فيزياء ورياضيات إنجليزي. قابل إسحق نيوتن بمدينة كيمبريدج وأقنعه بضرورة نشر بعض نتائجه حيث قام هاللي بتحمل تكاليف =

"خطير" وتنبأ بأنه سيعود للظهور بعد ٧٦ عاما. كما حدد بدقة متناهية موعد عودته مرة أخرى إلى الأرض، وأفضل الأماكن لمشاهدته فى السماء. وكانت تنبؤاته مذهلة، وتكاد تكون خرافية فى ذلك الوقت، إلا أنه بعد مرور ٧٦ عاما وبعد وفاة كلا من هاللى ونيوتن بوقت طويل، عاد مذهب هاللى للظهور، كما توقع تماما.

• كذلك نظرت الأصولية المسيحية إلى علم الجيولوجيا، واعتبرته أحد أدوات الشيطان، ووسائله المدمرة. فعلاوة على ما أظهرته الجيولوجيا من خطأ تأكيد القس أوشر بشأن حساباته المتعلقة بعمر الأرض، فإنها أيضا، أثبتت استحالة خلق الكون كله فى ستة أيام. وقد نبذت الأصولية، علم الجيولوجيا واعتبرته فسوقا، ووصفته بالـ "فن الأسود"، كما أسمته بالـ "المدفعية الشيطانية"، كما أعلنت، أن الجيولوجيين خونة، ومكذبين للسجل المقدس. وتمشيا مع هذه الأفكار قام البابا بيوس التاسع (Pius IX)، بمنع إقامة مؤتمر إيطاليا العلمى، الذى كان من المزمع عقده فى بولونيا فى عام ١٨٥٠.

• فى العصور الوسطى ساد الاعتقاد بأن العواصف من عمل الشيطان، وحظيت تلك الأفكار بدعم من السلطات الكنسية العليا، مثل القديس أوجستين. وفى مواجهة تلك القوى غير العادية للرياح، أقيمت الطقوس والشعائر لطرد الأرواح الشريرة، ولعل من أكثر تلك الطقوس انتشارا كانت الممارسات السابقة للبابا جريجورى الثالث عشر. حيث تمثلت أساليب طرد الأرواح فى إطلاق الأناشيد ودق أجراس الكنائس أثناء العواصف، لكن فى القرن الخامس عشر، نشأ مفهوم مأساوى، ذلك بأن لبعض النساء قدرة على تسخير القوى الشيطانية، وتوجيهها لاستحداث

- للنشر. صمم ناقوس كبير للغوص فى البحر. نشر بحوثه المتعلقة برؤية المذهب المشهور فى عام ١٧٠٥، وتوقع موعد عودته. (المترجم)

الزوابع الدوامية، والتلوج، والجليد، والفيضانات، وغير ذلك. وفي السابع من ديسمبر، عام ١٤٨٤ أصدر البابا إنوسنت الثامن (Innocent VIII) مرسومًا باباويًا مسئلهمًا من النص المقدس: "لا تدع ساحرة تعيش"^١ (Thou shalt not suffer a witch to live)، حث فيه قساوسة ألمانيا، للتعرف على المشعوذات، والساحرات، ممن يتسببون في إحداث الزوابع الشريرة، التي تدمر الحقائق والحقول والمزارع. كانت النتيجة أن آلاف السيدات وجدن أنفسهن مقيدات إلى آلات التعذيب، يصاحبهن في رعب، أقرب الناس إليهن، ولا يتمنين شيئًا غير الموت لإنقاذهن من المعاناة والآلام.

- نادى الخطاب الدينى الكنسى، بأن الصواعق تحدث كنتيجة لخمسة خطايا: عدم التوبة، والشك، وإهمال إصلاح الكنائس، والتزوير فى دفع العشور (مستحقات الكنيسة من دخل الفرد)، واضطهاد المروسين والخدم. وجاء البابا بعد البابا، ليشرح ويستقيض فى الدفاع عن هذا الرأى، وعن هذا الأسلوب من أساليب الجزاء الربانى، مطلقين على الصواعق اسم "إصبع الله". وفى عام ١٧٥٢، أطلق بنيامين فرانكلين طائرته الورقية المشهورة، أثناء إحدى العواصف المصحوبة بالبرق، ليكتشف الطبيعة الكهربائية للصواعق. وتبع ذلك مباشرة استخدام القضبان المعروفة بموانع الصواعق، والقادرة على الحماية المؤكدة من أى عاصفة برقية. فى البداية، رفضت الكنيسة التسليم بوجودها، ولكن مع ازدياد استعمالها، والتأكد من جدواها (موانع الصواعق) لجأت الكنيسة إلى استخدام أسلوب مغاير فى المناورة، فعندما وقع زلزال كبير فى ولاية ماساشوسيتس بأمريكا عام ١٧٥٥، زعموا أنه حدث بسبب انتشار استعمال موانع

^١ التوراة، سفر الخروج، ٢٢:١٨، وهناك بعض الخلاف حول معناها، وتعلّى فى بعض التفسيرات أنه لا يجوز المحافظة على أرواح السحرة (الإناث فى المقام الأول). (المترجم)

الصواعق في مدينة بوسطن، واشتعلت خطب الوعاظ ضد هؤلاء الذين يحاولون التدخل في المشيئة الإلهية والحد من المدفعية الإلهية (الصواعق). وقد كان من الممكن أن يستمر الجدل والصراع لمدد طويلة حول هذا الموضوع، لولا أن الكنائس التي لم تستعمل مانعات الصواعق، كثيرًا ما تأثرت، أو دُمرت بفعل الصواعق. ففي ألمانيا على سبيل المثال، تم تدمير حوالي ٤٠٠ برج كنيسة، وتوفي ١٢٠ من قارعي الأجراس بفعل الصواعق في الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٧٨٣. في المقابل صمد بيت للدعارة - بما تم تركيبه فيه من مانع للصواعق - ضد أسوأ العواصف والزوايح، كما لم تصب بسوء، أي من الكنائس القليلة التي كانت قد قامت بتركيب الموانع بها وبأبراجها. بناء على هذا، وافقت السلطات المقدسة، بكل أسى ومرارة، على استعمال موانع الصواعق، ولم تأت نهاية للقرن، إلا وكانت معظم الكنائس قد استعملتها.

- عندما تقدم إيمانويل كانت^١ (Immanuel Kant)، بنظرية وجود سديمات^٢ بالفضاء، بالإضافة إلى النجوم، تعالت الأصوات في العالم العقائدي، اعتراضًا على ما اعتبروه زندقة وكفرًا. فقد ارتأت الأصولية المسيحية أن عدم وجود نص صريح، في الكتب المقدسة عن السديمات ينفي احتمال وجودها. ولقد غمرت السعادة النسبية بال هؤلاء، عندما

^١ إيمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) فيلسوف ألماني من بروسيا. يعتبر من أكثر المفكرين الأوروبيين تأثيرًا وآخر فلاسفة التنوير. كانت أعماله للمنطلق الأساسي ليهيجل من بعده، كما كان أول من اقترح نظرية السديمات في عام ١٧٥٥ ووضع أسس للنظرية التي عُرفت بعد ذلك باسم كانت -لابلاس (Kant-Laplace Theory). (المترجم)

^٢ للسديم عبارة عن تجمع ضخم لبعض الغازات والأتربة ويشبه للنجوم من بعيد ولكنه يختلف عنها لعدم وجود كتلة صلبة متماسكة به. (المترجم)

أظهرت التليسكوبات المحسنة فى ذلك الوقت، أن بعض المناطق فى تلك السديمات، يمكن إيعازه إلى وجود نجوم، لكن مع التطور العلمى وابتكار الأجهزة الأحدث، مثل أجهزة التحليل الطيفى، اتضح بما لا يدع مجالاً للشك، أن الضوء القادم من السديمات، مصدره الغازات فقط، وعلى ذلك اضطرت الأصولية إلى التراجع.

إن قائمة الممارسات التى اتبعتها مسيحية القرون الوسطى، لامتهان الروح الإنسانية وتعذيبها، ولقمع وتحطيم التساؤلات العلمية، لهى أطول بكثير من الأمثلة القليلة المذكورة أعلاه. ولقد أعفيت نفسى عناء الدخول فى مناقشة المعركة الكبيرة، التى دارت بين الأصولية المسيحية والعلم، والتى أعقبت نشر كتاب داروين (Charles Darwin) عن "نشأة الأنواع" فى عام ١٨٥٩، وهى المعركة التى فاقت كل ما سبقها من معارك، بما فى ذلك معركة جاليليو. فلقد كان أصعب كثيراً على الإنسان، أن يكون علمياً تجاه الأمور المتعلقة بالحياة نفسها، من إقراره بالعلم المتعلق بالصخور المتساقطة أو الأجسام السماوية. جدير بالذكر، أن قدرة الأجسام الحية على الحركة التلقائية، والنمو، مازالت محل كثير من الخرافات المستحلة.

يلاحظ أن الجدل بين العلم والأصولية المسيحية، مازال محتدماً حتى اليوم، ولعل ذلك يتمثل بوضوح فى ذلك التيار المعروف باسم "مجموعة الخلق"، أو "حركة الخلق" (Creationist movement). ولّد التيار فى الثمانينيات، أثناء فترة رئاسة رونالد ريجان، ومازال - فى كثير من الولايات الأمريكية - يمثل قوة مؤثرة فى المجتمع حتى اليوم. وأنصار هذا التيار، يؤمنون بأن كل الحياة فى الكون، بدأت من العدم، منذ ستة آلاف سنة فقط، وفى سبعة أيام بالتحديد، وذلك تمشيًا مع حرفية النص كما جاء فى الفصول الأولى من سفر التكوين. وهم ينظرون على سبيل المثال، إلى الطوفان العظيم، على أنه حقيقة تاريخية، وليس كقصّة رمزية، وهم يهاجمون كل ركن فى علم الفلك أو الجيولوجيا، يشير بما يتعارض مع وضع حد لعمر الأرض يزيد عن ١٠,٠٠٠ سنة، كما يرفضون أى تقدير للأعمار مبنى على استخدام الكربون المشع. وعلى أية حال فإن نظرية

داروين للنشوء والارتقاء تحظى لديهم بأكبر قدر من الذم والهزاء. ومما يذكر أن القاضي براسويل دين (Braswell Deen) قاضى محكمة ولاية جورجيا للاستئناف، كتب مؤخراً، إن "خرافة قرد داروين" تسبب الإباحية، والاختلاط الجنسي بلا تمييز، والأقراص (بمعنى انتشار المخدرات)، وانتشار استعمال أساليب الوقاية (المتعلقة بالجنس)، والانحرافات الجنسية، والحمل، والإجهاض، والعلاج بالجنس، والتلوث، والتسمم، وانتشار الجرائم.

ورغم عودة ظهور اللاعقلانية الدينية فى دول الغرب، إلا أن المعركة من أجل العقل لم تُخسر بعد. ومن المؤلم رؤية العديد من التراجعات والارتدادات التى يعانى منها المسيحيين الأصوليين، خاصة عدم قدرتهم على غزو المؤسسة العلمية فى الغرب بأى حجم يذكر. فلم يفلحوا فى جهودهم لإجبار المدارس على تخصيص وقت متماثل لتدريس كلا من وجهتى النظر، العلمية والعقائدية، فيما يتعلق بالخلق. ومما لا شك فيه، فقد عانت "حركة الخلق" خسائر فادحة منذ انتهاء فترة رئاسة ريجان.

علوة على ما سبق، فإن العلم الحديث، لم يسمح للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بنسيان فظائعها الماضية، ولعل أكثرها تعبيراً هى محاكمة جاليليو وإدانته، وإجباره على التنازل عن آرائه العلمية. ولقد كان حقاً حدثاً مشهوداً، ذلك الذى وقع فى التاسع من مايو ١٩٨٣، ففى احتفال خاص بالفاتيكان، أصدر البابا يوحنا الثانى، ما يفيد بالتأكيد، بأنه أول اعتذار رسمى:

"إن تجربة الكنيسة، فى أثناء، وبعد مسألة جاليليو، قد أدت إلى موقف أكثر رشداً... فقط من خلال الدراسة الدعوية، المتواضعة، يتسنى لها (الكنيسة) أن تتعلم كيف تفصل ما بين لزوميات الإيمان، ومعطيات الأنظمة العلمية فى وقت ما".

جاء الاعتذار متأخراً ٣٥٠ عاماً، كما أنه يغفل أكثر مما يبدي ويقر. وعلى أية حال، فمن أجل إعلان نوايا قداسة البابا الطاهر، يمكننا جميعاً أن نقول بإخلاص عميق: آمين.

1- The Complete Prefaces of Bernard Shaw, (London, Paul Hamlyn, 1965), p. 369.

2- Andrew Dickson White, A History of the Warfare of Science with Theology, 1896. (Reprinted by Peter Smith, Gloucester, Mass., 1978).

3- Creationism, Science, and the Law- The Arkansas Case, edited by M. C. La Follette, (Cambridge, Mass., MIT Press, 1983).

الفصل الرابع

حال العلم اليوم في البلاد الإسلامية

"لا شك أن العلم أضعف ما يكون اليوم في المناطق الإسلامية، وذلك مقارنة بمختلف الحضارات المعاصرة. لم يعد مقبولا إغفال ذلك أو الاستهانة به، حيث أصبحت الحياة الكريمة للمجتمعات المعاصرة، مرتبطة ارتباطا مباشرا بمدى قوتها العلمية والتكنولوجية".

البروفيسور محمد عبد السلام

لعل منظر المدن من كراتشي إلى طهران، أو من دبي إلى الرياض، لا يختلف كثيرا بالنسبة للمسافر بالطائرة. لا يأتي هذا التشابه بسبب العقيدة المشتركة للمواطنين، ولكن من استعمالهم جميعا لنفس التكنولوجيا الغربية، يتمثل ذلك في ناطحات السحاب المنشأة من القضبان الفولاذية والزجاج، وكذا في المطارات الحديثة، بما فيها من طائرات براقية، رابضة فوق الرمال والحصى، وفي الطرق السريعة المزحمة بالسيارات، وهوائيات التليفزيون المنبثقة من كل بناية. فمن الخارج تأتي التكنولوجيات التي تستمد منها كل تلك المجتمعات أقواتهم الأساسية. من الأمثلة الهامة في هذا الشأن، نجد البحث عن البترول، وأعمال الحفر، والتنقية، والتكرير، والنقل، فهم يسمحون لدول مثل السعودية وإيران، بمبادلة ثرواتهم الطبيعية مقابل بضائع مصنعة، تتراوح ما بين طائرات الأواكس للإنذار المبكر (AWACS) إلى رصاص البنادق، وما بين محطات تكرير البترول إلى فتاحات العلب. من المتوقع أن يستمر المخزون البترولي في إمداد تلك البلاد بأقواتها وتكاليف حروبها لفترة من الزمن، كما قد يسمح بالخوض في بعض التجارب لأنظمة اجتماعية جديدة، كما أنه بضمن الاستثناء المؤقت - والمؤقت فقط - من قانون التاريخ الذي لا يعرف الرحمة، حيث تُتفى المجتمعات غير المنتجة، وتُدفع إلى الدمار أو إلى التهميش. لقد أصبح من الشائع الآن أن يكثر العويل على هذا الاعتماد الحرج على البترول وعلى تكنولوجيا الغرب، كما أصبحت عادة

المطالبة بنقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة إلى الدول النامية وكأنها من الطقوس، كذلك أصبح من المعتاد طرح نظريات شيطانية عن مؤامرات دولية - بدرجات متفاوتة من المصادقية - لتبرير التخلف العلمى الإسلامى، فى الواقع لم تعد هذه الأساليب والتبريرات مقبولة على الإطلاق، وفى الحقيقة، فإن مسألة الضرر الواقع على الاعتداد بالنفس الجماعى، لا يمكن حلها بهذه الأساليب، وعلى المفكرين الإسلاميين، البحث عن أسباب أكثر منطقية.

فى سبيل البحث عن تبرير للتخلف العلمى، فلا بد فى البداية، من الإقرار بأن المناخ العلمى المعاصر فى الدول الإسلامية، ملئ بالمتناقضات. فمن ناحية، نجد كل هذه الدول واقعة تمامًا فى قبضة تكنولوجيا الغرب، وآليات السوق الاستهلاكية، وكلاهما من نواتج الثورة العلمية، التى أعطت الشرعية ليصبح العلم معرفة أساسية، ولتكون السيطرة عليه ضرورية للنمو الاقتصادى والقوة القومية، على ذلك لم يعد ممكناً لأى جماعة تسعى لاكتساب دعم الجماهير، أن تنبذ العلم تمامًا، من ناحية أخرى، فإن مطحنة التكنولوجيا وطبيعة السوق، أصبحتا مهددين للهويات القديمة. ولعل الأسلوب الذى يمليه العلم، وهو موقف النقد الدائم وفحص الآراء، يشكل تهديدًا كبيرًا للأنماط والأفكار التقليدية السائدة. دأب أنصار تحديث الإسلام وأصحاب المنهج العلمى، على البحث عن وسيلة لدمج الجديد مع القديم، لكن موقفهم تجاه العلم اتسم - فى أكثر الأحيان - بالانفصام وعدم الترابط، خاصة فى تلك البلدان الإسلامية التى تسيطر فيها الأصولية على سلطة الدولة.

وتتضح هذه النقطة، من خلال الآراء التى طرحها مندوبو السعودية فى مؤتمر رفيع المستوى، عقد فى الكويت فى عام ١٩٨٣ وحضره رؤساء ١٧ جامعة عربية. كان الهدف المزعوم للمؤتمر، تحديد وإزالة المعوقات التى تواجه تطوير العلم والتكنولوجيا فى العالم العربى. لكن نقطة واحدة هيمنت على أعمال المؤتمر، وهى : هل العلم إسلامى؟. كانت وجهة نظر السعوديين أن العلم يتعارض مع المعتقد الإسلامى، حيث أن العلم يميل إلى إفرار نزعات مثل المعتزلة، كما أنه مخرب للعقيدة، وهو دنس لأنه مدنى (علمانى، Secular) ! وبهذا فى رأيهم، فإنه

يتعارض مع المعتقدات الإسلامية^١. وعلى ذلك أوصى السعوديون بأنه، بالرغم من أهمية تنمية التكنولوجيا، لمنافعها الواضحة، إلا أن العلم الخالص، فيجب عدم الالتفات إليه.

إذا عدنا إلى موضوع موقف البلاد الإسلامية اليوم من خريطة العلم والتكنولوجيا، فلا بد أولاً من التساؤل عن ماهية المعايير التي يجب استعمالها في هذا القياس. يستلزم الأمر أولاً تحديد إطار نظري، على أن يكون من الاتساع والدقة بحيث ييسر التقييم السليم.

قياس العلم

من البديهي أن أسلوب قياس العلم، أو تقدم العلم يعتمد على مفهومنا للعلم (مرجع ١). وعلى عكس المتوقع، فهذه ليست بالمهمة السهلة، فقد تغفل العلم في حياتنا بشتى الطرق والوسائل، كما تغيرت صورته بشكل كبير على مدار التاريخ. إلا أنه من المفيد، تحديد أربعة أوجه رئيسية، يظهر فيها العلم نفسه في الحياة المعاصرة:

- ١ - كعامل أكبر في الإبقاء على، ولتطوير العملية الإنتاجية اللازمة لدعم المجتمع.
- ٢ - كتشكيل جماعي منظم لمجموعة من العلماء المشغولين مهنيًا بملاحقته الدائمة؛
- ٣ - كعنصر أكبر في النظام التعليمي داخل المجتمع.
- ٤ - كواحد من أكبر المؤثرات على عملية تشكيل معتقدات الناس، وتحديد مواقفهم وميولهم تجاه الكون بالنظرية العلمية العالمية، تلك التي تستخدم الإجراءات المنهجية، والتي تستعمل فيها المشاهدة، والتجربة، والتصنيف، والقياسات، واستخلاص المعرفة المتعلقة بالعالم المادي. وبافتراض وجود

١ يلاحظ أن مجرد ذكر لفظ "مدني" أو "علماني"، يثير كثير من الحساسية في تلك المجتمعات. وتختلط المفاهيم لدى البعض فيخلطون بين معناها ومعنى عدم الإيمان. (المترجم)

معايير أخرى بديلة قابلة للاستعمال إلا أنى اعتبر أن هذا التوصيف للعلم بالزحابة الكافية لدراسة موقف العلم فى البلاد الإسلامية.

إنتاج العلم

تشير إحدى وجهات النظر إلى أن العلم يتواجد فى عالمنا المعاصر، بسبب وجود احتياج اقتصادى إليه. يؤكد الماركسيون، على أن التطور العلمى قد حدث كاستجابة للقوى الاقتصادية، وليس بسبب قوى قاهرة داخل الإنسان، تحثه على بحث واستكشاف بيئته. ويؤكد فريدرش إنجلز^١ (Friedrich Engels) هذا المفهوم بقوة فى خطاب كتبه إلى ستاركنبورج (Starkenbug) بألمانيا فى عام ١٨٩٤، يقول فيه: " من شأن الاحتياج التكنولوجى للمجتمع أن يساعد على تقدم العلم أكثر مما تفعله عشرة جامعات. ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر، تم استدعاء كل خبراء الطاقة المائية (توريتشيللى Toricelli^٢ وآخرين)، للتحكم فى مياه الجداول بالجبال فى إيطاليا.... لكن للأسف، فقد أصبحت العادة فى ألمانيا، أن يكتب فيها تاريخ العلوم كما لو كانت قد هبطت من السماء" (مرجع ٢).

فى نفس السياق تأتى أطروحات كارل ماركس، بشأن اكتشاف اليونانيون لطاقة البخار، دون أن يُتسنى أية مركبات بخارية، حيث إنها فى رأيه، لم تكن تمثل حاجة اقتصادية للمجتمع، الذى استعاض عن المركبات بوفرة العبيد. هناك مثل آخر فى قصة لوبلان (Leblanc) العالم الفرنسى الذى عاش فى القرن السابع عشر، وابتكر طريقة لصناعة الصودا (كربونات الصوديوم) مستعملاً فى ذلك الملح العادى (ملح الطعام) وحمض الكبريتيك، والجير، والفحم. والطريقة فى حد

^١ فريدرش إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥) ألمانى الأ. ل، فيلسوف سياسى اشتراكى، كرس حياته لتأسيس النظرية الشيوعية والدفاع عنها مع شريك كذاحه كارل ماركس. (المترجم)

^٢ توريتشيللى (Evangelista Toricelli) (١٦٤٧-١٦٠٨ عالم فيزياء إيطالى، بحث سبب فشل مضخات رفع المياه إلى الارتفاعات العالية بالجبال، فاكشف تأثير الضغط الجوى وابتكر البارومتر (مقياس الضغط الجوى). (المترجم)

ذاتها تعتبر علامة مميزة في تاريخ التكنولوجيا الصناعية، لكن لوبلان قاسى الأمرين وعانى من الفقر لعدة سنوات، وانتهت به خيبة الأمل والإحباط إلى الانتحار بإطلاقه الرصاص على رأسه، حيث لم تكن الصناعات الكيميائية قد تطورت بعد إلى الحد الذى يسمح لها باستغلال هذا الابتكار.

هناك أمثلة كثيرة - إلى جانب الأمثلة المتفرقة السابقة - للدلالة على تقدم العلم بناء على احتياجات المجتمع الاقتصادية، إلا أنه ليس لزاماً الإقرار بهذا الرأى على إطلاقه. فهذه النظرية لم تعط تفسيراً مقبولاً لدوافع نيوتن لاكتشاف قوانين الحركة. أو حالة اينشتاين ونظرية النسبية. ثم ما هى الحالة الاقتصادية التى أدت إلى اكتشاف الأرقام التخيلية¹ (Immaginary numbers). إن إمكانية أن يكون هناك جذر تربيعى للأرقام السالبة، مثل ناقص واحد، فهذا آخر ما كان يمكن أن يخطر على بال إنسان، فيما قد يكون له علاقة بالمجتمع، هذا بالرغم مما تطور إليه الأمر بعد ذلك، واكتشاف أهميته البالغة. فبدونه، ما كان تطور الراديو ممكناً.

وعلى أية حال، فمن الواضح أن العلم يمتلك ديناميكية داخلية ذاتية، تدفعه للتقدم من اكتشاف إلى آخر، وبدون أى أسباب خارجية ظاهرة. وبدون ذلك لا يمكن تفسير الدوافع التى قادت العباقرة لتحقيق تلك الاكتشافات الأساسية، والتى بدت فى حينها فى منتهى السذاجة، وبلا أية مردود على المجتمع الإنسانى.

من ثم، يبدو جلياً أن هناك شقين للقوى الدافعة لتقدم العلم، إحداهما قوى داخلية ذاتية، والأخرى خارجية. وفى أيامنا المعاصرة، يرتبط نشاط النمو العلمى، بوجود احتياج ملموس للمجتمع لتطوير قواه الإنتاجية، خاصة عندما يكون لذلك مردود اقتصادى واضح. من المؤكد أن شركات كبرى مثل شركة أى بى إم (IBM)، ومعامل "بيل" (Bell Labs)، لا تحتفظ بمعاملها الضخمة لمجرد التسلية. وعلى ذلك يبرز التساؤل، إلى أى مدى يتواجد اليوم، احتياج تكنولوجى للعلم فى البلاد الإسلامية؟. ويجب البحث عن الإجابة فى ضوء الحقائق التالية:

¹ الأرقام التخيلية هى الأرقام التى لا وجود مادى لها فى الحياة وإنما تعبر عن حلول رياضى تجريدى يحمل معنى "الاتجاه" مثل الأرقام السالبة (ناقص واحد مثلاً). (المترجم)

• يعد حجم ما تمثله الصناعة والتصنيع، من إجمالي اقتصاد الدول، أحد أهم المؤشرات الدالة على تطور العلم والتكنولوجيا بها، يقاس هذا بدوره بالـ"قيمة المضافة" أثناء عملية التصنيع. على سبيل المثال، يمكن استيراد خامات الحديد وفحم الكوك وتحويلهما محليًا إلى صلب (فولاذ) مما يؤدي للحصول على منتج يفوق في قيمته، قيمة المواد الأولية المستعملة. تشمل تكاليف التصنيع، من الناحية الاقتصادية، كل ما يستعمل من أنواع الآلات المختلفة، ووسائل النقل، والكىماويات، والمنسوجات. إلخ. يعطى الجدول التالى - المستخلص من البيانات الصادرة من البنك الدولى (مرجع ٣) - مؤشرًا لدور التصنيع فى أكبر البلاد الإسلامية (من ناحية تعداد السكان) بالمقارنة بالدول الصناعية الكبرى

جدول ١

القيمة المضافة فى التصنيع، ١٩٨٦ (دولارًا للفرد)

الدولة	القيمة المضافة
بنجلاديش	١١
السودان	٢٣
باكستان	٤٩
إندونيسيا	٦١
مصر	٨٧
تركيا	٢٥٣
الجزائر	٣٢٠
الولايات المتحدة	٣٤٢٨
اليابان	٤٦٩٧

- يتمثل مؤشرا آخر من مؤشرات التصنيع، في نوعية البضائع المصدرة، ويبين الجدول التالي نسبة ما تمثله صادرات الآلات وأدوات النقل، من إجمالي الصادرات في الدول المختارة. (مرجع ٣)

جدول ٢

الدولة	النسبة المئوية من إجمالي الصادرات
بنجلاديش	صفر %
السودان	٣ %
باكستان	٣ %
إندونيسيا	٣ %
مصر	١٧ %
تركيا	٧ %
ماليزيا	٢٧ %
الهند	٣٢ %
الولايات المتحدة	٤٧ %
اليابان	٦٥ %

- من بين ٤٦ دولة إسلامية، تقوم ٢٤ منهم فقط بإنتاج الأسمت، و ١١ دولة فقط تنتج السكر، وخمس دول تنتج صناعات هندسية ثقيلة، وست دول تنتج المنسوجات، وخمس دول تنتج أسلحة خفيفة (مرجع ٤).
- تقوم الدول الإسلامية بشكل عام، بإنتاج المواد الخام ويمثل البترول أهم تلك المنتجات. فهذه الدول تنتج ٥٦% من صادرات العالم من البترول، و ٣٧% من الغاز الطبيعي، و ٨٠% من القنب (الجوت)، و ٧٠% من

المطاط، و٧٥% من زيت النخيل، و ٢٥% من الحبوب الغذائية، و١٣% من القطن، و١٠% من قصب السكر. (مرجع ٤)

• يصل حجم التجارة مع الدول غير الإسلامية، إلى ٩٤% من إجمالي التجارة الخارجية؛ في حين يصل حجم التجارة بين الدول الإسلامية وبعضها إلى ٦%.

• يبين الجدول التالي مقارنة بين نصيب الفرد من إجمالي الإنتاج القومي في البلاد الإسلامية وباقي دول العالم الثالث. حيث يتضح أن البلاد الإسلامية تعد أغنى كثيراً، وأن أغناها قاطبة، دول الإمارات (حيث يصل إلى ١٥,٨٣٠ دولار) وهو ما يزيد عن مثيله حتى في اليابان (١٥,٧٦٠ دولار). في الجانب المقابل، تشير الأرقام إلى أن المعدلات الأولية للولادة في عام ١٩٨٦ كانت معظمها في المدن؛ وأن التمدين بصفة عامة، يتبعه انخفاض في معدلات الولادة.

جدول ٣

البلاد الإسلامية والعالم الثالث: مؤشرات مختارة

المؤشر	العالم الثالث	البلاد الإسلامية
متوسط دخل الفرد	٣٠٠ دولار	٨٥٦ دولار
التمدين	٣٤%	٤٠%
معدل الولادة الأولى	٣,١%	٤,١%

إن الرسالة التي تحملها هذه الإحصاءات واضحة تماماً: إن قوام الاقتصاد في البلاد الإسلامية، خاصة في البلاد المنتجة للبترول، مبنى إما على المستخرجات، أو على الزراعة. وحتى من بين الدول المتقدمة نسبياً والغير مصدرة للبترول، مثل مصر وباكستان، فإن القيمة المضافة في عمليات التصنيع. لا تمثل إلا قدرًا ضئيلاً من الاقتصاد العام. وبلا شك، يحتاج استخراج البترول، والتعدين، والزراعة إلى

قدر من الأساليب العلمية، مما يخلق مجالاً لبعض الطلب على تعلم الوسائل الفنية الجديدة وتطويرها. لكن التكنولوجيا المطلوبة لاستخراج البترول في أساسها مستوردة، وكذلك الحال مع البحوث الزراعية المتعلقة بالمحاصيل الجديدة وأصنافها. وعلى ذلك فإن الأهمية العامة للعلم وعلاقته بالإنتاج، علاقة هامشية في البلاد الإسلامية، وحوافز النمو الحالية، النابعة من الداخل، قليلة جداً.

العلم كمؤسسة

تجب الإشارة إلى أن كلمة عالم^١ (Scientist)، لم يكن لها وجود قبل ابتكارها في عام ١٨٤٠ بواسطة ويويل (Whewell). فلم يكن عدد العلماء حينها بالكثرة اللازمة لتستوجب إدخال كلمة جديدة إلى اللغة الإنجليزية. لكن تحول العلم في القرن العشرين إلى مؤسسة كبيرة، ضمت إليها مئات الآلاف من الرجال والنساء الذين جعلوا من العلم مهنتهم. ينمو المجتمع العلمي العالمي بسرعة كبيرة جداً سواء على مستوى العالم أجمع أو على مستوى الدول النامية.

يلاحظ أن معدل نمو المجتمع العلمي بطئ في البلاد الإسلامية. فحجم مجتمعا العلمي، وكذلك إنتاجية علمائها، أقل بكثير من بقية العالم، ويبدو ذلك واضحاً حتى لو تمت المقارنة بالمتوسط العام لدول العالم الثالث. وفيما يلي بعض الأرقام المستخلصة من تقرير مورافشك (Moravcsik) (مرجع ٥):

جدول ٤

عدد المؤلفين العلميين. ١٩٧٦

العالم أجمع	٣٥٢,٠٠٠
العالم الثالث	١٩,٠٠٠

^١ يلاحظ أن لفظ عالم كان موجوداً في اللغة العربية منذ زمن بعيد، مع الاختلاف الجوهري البديهي في المعنى. (المترجم)

يلاحظ أن أكبر المنتجين للكتابات العلمية من بين مختلف البلاد الإسلامية هم: مصر؛ وإيران؛ وباكستان؛ ونيجيريا؛ وماليزيا؛ ولبنان (مرجع ٥). والقائمة التالية تبين مدى مساهمة المؤلفين العلميين في كل من الدول المختارة:

جدول ٥

المؤلفون العلميون في الدول المختارة كنسبة مئوية من الإنتاج العالمي ١٩٧٦

الدولة	النسبة المئوية
مصر	٠,٢١
إيران	٠,٠٤٣
العراق	٠,٠٢٢
ليبيا	٠,٠٠٢
باكستان	٠,٠٥٥
السعودية	٠,٠٠٨
سوريا	٠,٠٠١
الهند	٢,٢٦٠

• تتمثل طريقة أخرى بسيطة، لتقدير الإنتاج العلمي للعلماء المسلمين، في حساب عدد المؤلفين من أصحاب الأسماء الدالة على أنهم من المسلمين، في المجلات العلمية الرائدة، وقد قمت بإجراء دراسة استطلاعية محدودة، عن البحوث العلمية الدولية في عام ١٩٨٩ وقد حصلت على النتائج المبينة في جدول ٦. فإذا وضعنا في الاعتبار أن بعض المسلمين قد

لا يحملون أسماءً عربية أو فارسية أو تركية، فيجوز على ذلك، زيادة الأرقام المذكورة، الخاصة بعدد أصحاب البحوث المسلمين، بنسبة حوالى ٣٠ إلى ٤٠ بالمائة، وعلى أية حال، فهذا لن يؤثر كثيراً على الاستنتاج العام، بأن الأرقام صغيرة بدرجة مثيرة للأسى. جدير بالذكر، أن عناوين المراسلة المسجلة بالبحوث، لنصف المؤلفين المسلمين، تابعة لمؤسسات غربية.

جدول ٦

المؤلفون العلميون فى الفيزياء، والرياضيات، والكيمياء ١٩٨٩

إجمالى عدد المؤلفين	عدد المؤلفين المسلمين
الفيزياء ٤١٦٨	٤٦
الرياضيات ٥٠٥٠	٥٣
الكيمياء ٥٣٧٥	١٢٨

وتبرز صورة مماثلة لدى فحص فهرست الاستشهادات العلمية (Citation Index) (وهو يمثل دليلاً شاملاً للمقالات العلمية المنشورة حديثاً).

جدول ٧

المؤلفات الواردة فى فهرست الاستشهادات العلمية ١٩٨٨

الدولة	تعداد السكان بالمليون (١٩٨٧)	العدد النسبى للمقالات
الأرجنتين	٣١	٢٥
بنجلاديش	١٠٤	١,٨
البرازيل	١٤١	٣٣
مصر	٤٩	١٧

٩٠	٧٠٠	الهند
٢,٥	١٥٠	إندونيسيا
٢	٥٠	إيران
٤	١٧	العراق
٧٢	٤,٥	إسرائيل
٤	١٦,٥	ماليزيا
٤	١٠٢	باكستان
١٠,٥	٥١	تركيا

(المصدر أ. صادق، و ن. أ. ختاك A. Sadiq and N.A. Khattak).

لا تتعارض النتائج المذكورة أعلاه مع التقديرات الأخرى، ففي مقارنة بين إسرائيل والعرب، لما يخص الفرد في كل منهما من الإنتاج العلمي، وجد أ. ب. زحلان (A. B. Zahlan)^١، أن إنتاج العرب يساوي ١% فقط من إنتاج إسرائيل (مرجع ٦). وواضح أن المشكلة لا تكمن في الموارد المادية، حيث ارتفع إجمالي الإنتاج القومي العربي من ٢٥ بليون دولار في عام ١٩٦٧ إلى أكثر من ١٤٠ بليون دولار في ١٩٧٦ ومع هذا ارتفع الإنتاج العلمي، في نفس الفترة، بنسبة متواضعة جدًا. ومن المثير للاهتمام، ملاحظة أن هزيمة العرب في عام ١٩٦٧، أعزيت بشكل كبير إلى الفجوة التكنولوجية الكبيرة بين إسرائيل والعرب، وكانت هناك بعض التوقعات آنذاك، أن ذلك قد يحث العرب للبحث عن المزيد من العلم الحديث والتكنولوجيا، ولكن البيانات المتاحة لا تدل على تحقق هذا التوقع (مرجع ٧).

^١ أنطوان زحلان (Antoine Zahlan) أستاذ الفيزياء السابق بالجامعة الأمريكية في بيروت، ومستشار للعلوم والتكنولوجيا، وله كتابات عديدة في الفيزياء، والسياسة العلمية. (المترجم)

سأطرق الآن لإبداء بعض الملاحظات عن المؤسسة العلمية فى باكستان باعتبارها أكثر البلدان الإسلامية قرباً إلى معرفتى. يوجد - على الورق - بباكستان ١٣٣ مؤسسة علمية وتكنولوجية، تتراوح أحجامها ما بين مؤسسات كبيرة للبحوث والتنمية مثل البرنامج الباكستانى للطاقة الذرية (The Pakistan Atomic Energy Commission PAEC)، ومركز الفيزياء التطبيقية، والكمبيوتر، والأجهزة (Applied Physics, Computers and Instrumentation, PCSIR) للبحوث الصناعية، وبرنامج سوباركو لبحوث الفضاء، (Space and Upper Atmosphere Research Commission, SUPARCO) إلى وحدات صغيرة تشغل عددا قليلا من غرف المكاتب. وبها جميعاً، وفرة من الأجهزة بصفة عامة، والمرتبات أعلى بنسبة تتراوح بين ٣٠% و ٥٠% من الهند المجاورة، إضافة لوجود مخصصات إضافية للسفر للخارج. وهذه المؤسسات تمتلك مكاتب للعلاقات العامة، ولها اتصالات جيدة بالأوساط الحكومية، وترسل العاملين بها للتدريب بالخارج، كما تنظم المؤتمرات على مدار السنة. من على السطح، يبدو كل هذا كأنه علامة دالة على كثرة العمل والإنتاج والنشاط الفعال. ولكن - مع وجود بعض الاستثناءات - فإن ناتج بحوثهم العلمية ضئيل جداً إذا قيس بأى مقياس. كما أن تأثيرها غير ملموس سواء على التكنولوجيا الموجودة أو على الاقتصاد القومى. أما البرنامج النووى الباكستانى، والمشار إليه كثيراً بصفته رمزا للبراعة التكنولوجية الوطنية، فإنجازته الوحيد المعروف هو النجاح فى تشغيل، وصناعة الوقود اللازم للمفاعل الموجود بكراتشى، والذي أمدتهم به كندا والمعروف باسم كانوب (Karachi Nuclear Power Complex, KANUPP)، وعلى عكس الهند فباكستان لا تملك أن تحلم بتصميم وبناء مفاعل خاص بها فى المستقبل المنظور، وهو السبب الذى من أجله عقدت صفقة مع فرنسا عام ١٩٧٠ لشراء مفاعل كامل، جاهز للتشغيل (تسليم مفتاح).

غزى أسباب عدم فعالية مؤسسات البحوث والتنمية بباكستان إلى سياسة باب الاستيراد المفتوح، المفروضة من وكالات المعونة الأجنبية، فهى تعرقل توطين

التكنولوجيا كما أعاقَت أى زيادة، مهما كانت ضئيلة، فى عدد العلماء والمهندسين من نوى الكفاءة العالية. يمكن الحكم على مصداقية تلك المقولة الأخيرة من ملاحظة أن إجمالى عدد الحاصلين على الدكتوراه فى البلاد، فى العلوم الطبيعية، يقع فى حدود الألف، فى حين يقدر العدد المقابل فى الهند بحوالى ٧٠ - ٨٠ ألفاً. فإذا كان متوسط دخل الفرد فى باكستان ٣٥٠ دولار وهو لا يختلف كثيراً عنه فى الهند (٣٠٠ دولار)، فلا مناص من البحث عن أسباب أخرى لتفسير الفارق الكبير فى الإنجازات العلمية. ويكمن السبب فى التعليم.

العلم فى التعليم

يرتبط التعليم برابط وثيق بالبحث العلمى والتنمية، وهما يعتمدان عليه لنمو أو انهيار العلم كمؤسسة فى المجتمع، وفى الحقيقة فإن غاية التعبير عن الفلسفة التى يمت إليها أى مجتمع، إنما تتمثل فى الأسلوب الذى يتبعه فى تعليم النشء. وهنا بالتحديد وبكل حق، يواجهنا السؤال عما إذا كان يجب على التعليم أن يكون وسيلة لتطوير وتحديث المجتمع، أم أن هدفه الأساسى يجب أن يكون الحفاظ على التقاليد؟ ولنضع الآن جانبا باقى الأبعاد مثل الأهداف، والنوعية، والأساليب، ولنؤجلها إلى مناقشة لاحقة، ودعنا ننظر إلى المقياس الحالى للتعليم فى البلدان الإسلامية، ويحتوى جدول ٨ (مرجع ٣) على بعض الإحصائيات المتعلقة بالموضوع

جدول ٨

القيود للتعليم فى الدول المختارة ١٩٨٦ (النسبة المئوية)

مرحلة أولى	مرحلة ثانية		مرحلة ثالثة		
	بنين	بنات	إجمالى		
بنجلاديش	٦٩	٥٠	٢٤	١١	٥
السودان	٥٩	٤١	٢٣	٧١	٢

٥	١٠	٢٥	٣٢	٥٥	باكستان
٧	٣٤	٤٥	١١٦	١٢١	إندونيسيا
٢١	٥٤	٧٧	٧٧	٩٦	مصر
٩	٢٧	٣٩	٦٢	٩٦	المغرب
١٠	٣٣	٥٦	١١٣	١٢١	تركيا
٣	٢٧	٤٢	٩٢	١١٣	العالم الثالث

(ملحوظة نسبة القيد لشريحة عمرية معينة قد تتعدى الـ ١٠٠% في بعض الأحيان، حيث تختلف معايير القياس والوسائل المستخدمة انظر مرجع ٣).

يتضح من الأرقام المذكورة، عدم وجود أى فروق صارخة بين الدول الإسلامية من ناحية، وبين دول العالم الثالث، رغم أنه كان من الطبيعي أن يتوقع الإنسان، أن تكون الدول الإسلامية متقدمة بشكل واضح نظراً للارتفاع الواضح في نصيب الفرد فيها من إجمالي الإنتاج القومي. الأهم من ذلك أن تلك الأرقام لا تذكر شيئاً عن نوعية التعليم أو عن أهداف النظام التعليمي.

ونظراً لعدم توافر المعلومات الكافية لدى عن موقف التعليم في باقى الدول الإسلامية، فسأقتصر في الجزء التالى على حالة باكستان فقط. ويعطى التقرير الذى أصدره البنك الدولى حديثاً، صورة قاتمة ولكنها محددة للموقف:

"إن معدل الإنجازات التعليمية بطيء بشكل غير عادى بين سكان باكستان، الذين يتزايد عددهم بسرعة كبيرة خاصة الإناث، مما يشكل معوقاً كبيراً للتنمية على المدى البعيد... وكذا إن ضعف قاعدة الموارد البشرية التى تتبنى عليها تنمية اقتصاد باكستان، يهدد خطط التنمية على المدى البعيد، ويؤثر سلباً على الفوائد المستمدة من هذا النمو.

يوجد حوالى ٧٥ مليون باكستاني لا يستطيعون القراءة والكتابة، وتقدم الحكومة الباكستانية أرقاماً تشير إلى أن متوسط نسبة المتعلمين من الجنسين

٢٦ ٪ وأن نسبة المتعلمين من الإناث ١٥ ٪ فقط. برغم أن هذه الأرقام منخفضة، حتى لو قورنت بمعدلات العالم الثالث، إلا أن الوضع الحقيقي قد يكون أسوأ من ذلك بكثير، وتقدر المصادر غير الحكومية أن الأرقام الحقيقية قد تقل عن الأرقام المذكورة بحوالى ٣٠ - ٤٠ ٪. فى حين يصل معدل القيد للتعليم فى باكستان إلى ٥٥ ٪ بالنسبة للمرحلة الأولى، فإنه يصل فى الدول الآسيوية المجاورة، إلى معدلات تتراوح بين ٧٠-٩٠ ٪. هذا فى الوقت الذى تخصص فيه باكستان ٢ ٪ من إجمالى الناتج القومى للتعليم مقارنة بـ ٢,٤ ٪ فى نيبال، و ٢,٦ ٪ فى الهند، و ٦,٧ ٪ فى ماليزيا. أما ما يمثله الإنفاق على التعليم كنسبة مئوية من ميزانية الدولة فنجد ٦ ٪ فى باكستان، فى مقابل ٩ ٪ فى نيبال، و ١١,٢ ٪ فى الهند، و ٢٦ ٪ فى ماليزيا. جدير بالذكر، أنه سبق للحكومة الباكستانية أن دعمت دراسة عن عادات القراءة ونشر الكتب فى دول المنطقة، فجاء ترتيب باكستان الأخير فى قائمة دول جنوب آسيا.

لم تضع أى حكومة ديموقراطية أو عسكرية باكستانية أى ثقل مناسب للتعليم ضمن قائمة الأولويات القومية. وهنا يبرز نظام الجنرال ضياء الحق بشكل خاص. كما تظهر إدانته المؤكدة فيما يتعلق بمنجزات التعليم فيما يلى، ففى عام ١٩٨٦ اتفقت الحكومة الباكستانية مع أمريكا لإجراء بعض الدراسات لتحليل موقف التعليم فى باكستان، وقد خلص التقرير إلى النتيجة الآتية:

"من أبرز المفارقات، كان الفرق بين توقعات الخطة الخمسية الخامسة (١٩٧٨-١٩٨٣)، والواقع الفعلى الذى أظهر قصوراً بنسبة ٥٠ ٪ عما كان مخططاً له، مما يعكس أقل مستوى من الجهد القومى لدعم التعليم فى تاريخ الدولة المستقلة". (مرجع ٩)

وصلت المعدلات إلى مستويات مشابهة فى السابق، وقد تم الإقرار بها فى حينه على خجل شديد، لكنها على الأقل، تضمنت أن يكون هدف التعليم فى جوهره، عامًا وحديثًا. على أية حال فبعد انقلاب ١٩٧٧ الذى أتى بالجنرال ضياء الحق إلى السلطة، قامت الحكومة العسكرية، بالتحالف مع الأحزاب السياسية ذات

الممول الأصولية، بإعلان نواياها بخلق مجتمع إسلامي وهوية قومية جديدة مرتكزة بالكامل على أسس الدين. وظهرت على الفور أهمية التعليم كوسيلة لتحقيق الهدف المنشود، بناءً على ذلك اتخذت الحكومة القرارات التالية:

- فرض الحجاب على الطالبات في المؤسسات التعليمية.
- تنظيم إقامة صلاة الظهر أثناء ساعات الدراسة.
- فرض تعليم اللغة العربية كلغة ثانية، ابتداء من الصف السادس وما يليه.
- إدخال قراءة القرآن كشرط من شروط التأهل الدراسي.
- استبدال تعريف لفظ "تعلم" (المقصود هنا بمعنى القراءة والكتابة) بحيث يصبح معناه المعرفة الدينية.
- رفع درجة الاعتراف بالكتاتيب ومساواتها بالمدارس العادية.
- اعتماد شهادة المدرسة ومعادلتها بما يساوي درجة الماجستير.
- منح ٢٠ درجة إضافية للمتقدمين لكليات الهندسة لمن يحفظ القرآن.
- إنشاء الجامعة الدولية الإسلامية في إسلام آباد.
- تنظيم العديد من المؤتمرات المحلية والدولية عن مختلف أوجه الأسلمة.
- إدخال عنصر المعرفة الدينية كأحد عناصر اختيار المدرسين سواء مدرسي المواد العلمية أو غيرها.
- مراجعة المواد التقليدية للتأكيد على القيم الإسلامية.

وقد تابع الجنرال ضياء الحق وأتباعه فكرتهم عن أسلمة التعليم بجدية كبيرة، كما تم تطبيق معظم البنود الواردة بدرجات متفاوتة، لكن واقع الحياة العملي، خفف من شدة الحماس، خاصة عندما بدأت بعض المصالح الكبيرة تتعرض للخطر. فمثلاً لم تقترب الحكومة كثيراً من المدارس الإنجليزية المتوسطة (الإعدادية) الخاصة، ذات المصاريف الباهظة، التي يلتحق بها أبناء الضباط، وكبار الموظفين،

والطبقة الثرية. تتباهى تلك المدارس المتميزة، مثل مدرسة كراتشي للنحو (Karachi Grammar School)، ومدرسة أيتشسون (Aitchison College)، وبيرن هال (Burn Hall)، وكثيرين غيرهم، بمحتوى ونوعية مناهجهم التى تضاهى ما هو موجود فى أفضل مدارس الغرب. وبعبارة أخرى، المناهج فى تلك المنطقة بلغة البلاد الـ الأوردو، التى تتولى تعليم غالبية الجماهير، نجد أن تلك المدارس المتميزة تمد حوالى ١% فقط من إجمالى التعداد بالتعليم الحديث ذو الطابع المدنى، وباستثناء إجراء بعض التعديلات الطفيفة، فقد استمرت تلك المدارس فى العمل أثناء فترة ضياء الحق كما كانت فى السنوات السابقة.

إذا وضعنا الموقف الخاص بمدارس الصفوة جانباً، فلا جدال حول ما كان لسياسات الأسلمة التى اتبعتها حكومة ضياء الحق، من أثر كبير على التعليم بصفة عامة فى باكستان. وأما حكومة بنازير بوتو التالية، التى لم تُعرف بسعيها نحو اتخاذ أية مبادرات شجاعة، فلم تجرؤ على عمل أى تغيير ذو معنى طوال فترة توليها الحكم. ومع انقضاء زمن حكومتها، ثم استلام التحالف الإسلامى الديمقراطى لمقاليد السلطة، أصبح الإسراع فى أسلمة التعليم شبه مؤكد. لقد أحدثت الجهود المخلصة المبذولة لإحلال التعليم الدينى التقليدى محل التعليم المدنى الحديث، أثراً داخلياً فى النظام العام ككل، وستظل أثارها محسوسة على مدى الأجيال القادمة. كان من المفترض منذ أيام الاحتلال وما تلاها، أن يُعتبر التعليم الحديث ضرورى لتقدم المجتمع، وأن تقدم المجتمع شىء مرغوب فيه، إلا أنه تم التخلي عن ذلك بوضوح فى عام ١٩٧٧، وعلى النقيض، تم الإعلان عن إعادة إحياء الأمجاد الإسلامية واعتبارها الهدف المنشود. فى سبيل تحقيق ذلك، كان من الضروري القيام بأسلمة كل التخصصات الحديثة مثل العلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية، والعلوم الطبيعية وسياقى الحديث عن ذلك لاحقاً.

نلقى الآن نظرة إلى نوعية وماهية تعليم العلوم فى باكستان. سنجدها قد ابتعدت عن روح العلم الناقدة، بجميع المقاييس. ويروى الكيمائى ج. ب. س. هالدين (J. B. S. Haldane) الهندى المولد واقعة مثيرة تركت لديه انطباعاً قوياً عن كيفية تعليم وتعلم العلم فى باكستان:

كنت أمشي يوما بالقرب من منزلي بعد ظهر أحد أيام الآحاد، عندما تطرق إلى سمعي صوت شاب يرتل شيئاً بصوت عال، فافتضت أني استمع إلى بعض المانترا^١ (Mantras)، وسألت مرافقي إن كان بإمكانه تمييزها، حيث أن عادة ترديد المقاطع الدينية منتشرة في أوروبا كما هي منتشرة في باكستان. أفادني زميلي بأن الصوت كان ينطق بالإنجليزية وأن موضوع الترتيل كان الكيمياء العضوية. عدنا أدراجنا، وتأكدت من صحة ما قال، وإذا بالترتيل يدور فعلاً حول تحضير بعض المركبات الدهنية، والاحتياطات الواجب اتخاذها أثناء مراحل التحضير. (مرجع ١٠)

سيطر أسلوب المذاكرة بطريقة الاستظهار، على تعليم العلوم في باكستان لفترة طويلة تزيد عن الخمسة والعشرين عاماً، حين أبدى هالدين ملاحظته السابقة. ويمكن إرجاع السبب ولو جزئياً إلى خلل في نظام الامتحانات، أو إلى قلة كفاءة وأجور المدرسين، أو إلى الفساد المنقش في الجهاز التعليمي، فلا تجب الاستهانة بكل تلك العوامل. إلا أنه يمكن - إلى حد بعيد - تتبع جذور مسألة الاستظهار في التعليم المعاصر، إلى العادات والمواقف المتوارثة عن التعليم التقليدي، الذي اعتبر المعرفة شيئاً يمكن تحصيله واكتسابه، لا بصفتها شيئاً يلزم استكشافه. هذا الأسلوب التقليدي الذي يتحول فيه العقل إلى السلبية والاستقبال، بدلاً من أن يكون خلافاً ومتسائلاً. ثم إن التشكيل الاجتماعي لمناخ عام، تقليدي وسلطوي، يعنى ولا مفر، النظر إلى كل المعارف على أنها ثوابت، وأن كل الكتب يجب حفظها وتوقيفها، أما المفهوم المدني للمعرفة باعتبارها أداة دائمة التطور، قائمة على أساس البحث لاستكشاف حلول المشاكل، فهو مفهوم غريب تماماً على الفكر التقليدي.

يُعد التقييم الكمي لتدريس العلوم في باكستان مشكلة في حد ذاته نظراً لقلة ما تم من دراسات وقياسات. الأصعب من ذلك، محاولة تقييم أية تغييرات في

المانترا في المعتقدات الهندوسية والبوذية، تتكون من أصوات وكلمات غامضة، تستعمل إما فردي أو في ما يشبه الجمل، ترتل برتابة أثناء ممارسة طقوس للتعب، لتساعد على السمو والتوحد وعمق التأمل. ومنها أنواع متعددة، كذلك فإن منها ما يتضمن اسم المقتس. (المترجم)

المستوى على مرور الزمن. على أية حال، فلا ريب فى ضياع الكثير من الفائدة، إذا ما تناول الحديث موضوع التعليم فى باكستان، دون الإشارة إلى نوعيته. بناءً على ذلك، وواضحاً فى الاعتبار غيبة المعايير الكمية، فقد قُمت بمحاولة جمع شتات ما هو متاح من قياسات متعلقة بنوعية تعليم العلوم.

توجد ضمن المحفوظات الغارقة فى التراب بمكتبة هارفارد وإيدنر (Harvard Widener) رسالة تقدم بها صاحبها الباكستانى واسمه والى محمد زكى (Wali Muhammad Zaki) فى عام ١٩٦٤ للحصول على درجة الدكتوراه. عنوان الرسالة "موقف مدرسى العلوم الباكستانيين تجاه الدين والعلم". وعلى حد علمى فلم تُنشر نتائج هذا البحث حتى الآن، كما لم يُشر إليها طيلة الخمسة والعشرين عاماً الماضية. حاول زكى فى بحثه أن يكشف مدى فهم وتقدير مدرسى المدارس الثانوية فى غرب باكستان، لطبيعة المؤسسة العلمية، ثم حاول الكشف عن وجود أية علاقة بين مفهومهم للعلم، وميولهم الدينية. أجرى البحث على عينة عشوائية من المدرسين، طُلب منهم الإجابة على استمارة استبيان مصممة خصيصاً لقياس موقفهم من الدين ومن العلم ومفهومهم عن العلم وجاءت النتائج كالتالى:

- ١ - يفهم تلاميذ المدارس العليا بأمريكا طبيعة المؤسسة العلمية، والوسائل العلمية وأهداف العلم، أفضل كثيراً من مدرسى مدارس المراحل العليا فى باكستان.
- ٢ - يتناسب فهم المدرسين للعلم وموقفهم تجاهه، تناسباً عكسياً واضحاً مع موقفهم تجاه الدين. كما تبين أن لدى الذين تلقوا تدريبهم فى فترة ما بعد الاستقلال، ميولاً أقوى تجاه الدين، وأقل تجاه العلم، هذا بالمقارنة بينهم وبين الذين تلقوا تدريبهم فى فترة ما قبل الاستقلال.
- ٣ - سجلت الطوائف المذهبية الأحمدية والبروتستانتية مواقف أكثر إيجابية تجاه العلم عند مقارنتهم بزملائهم من السنة.
- ٤ - لوحظت أيضاً نتائج مشابهة عند دراسة المدرسين المنتمين إلى مناطق جغرافية ذات طابع حضارى وثقافى مختلف، حيث سجل المنتمين إلى منطقة السند أفضل التوجهات.

٥ - تميز المدرسون، ممن لهم خلفية قوية فى علوم الأحياء، بتفهم أفضل لطبيعة المؤسسة العلمية بالمقارنة مع زملائهم فى مجال العلوم الفيزيائية.

يلاحظ وجود العديد من نقاط الضعف فى الدراسة المذكورة، من أهم تلك النقاط كان عنصر عدم سهولة استيعاب اللغة الإنجليزية بالنسبة لبعض المشاركين، كذلك احتمال عدم ملائمة بعض الأسئلة لاحتمال تضمينها - ثقافياً - ما قد يؤثر الحيرة، هذا بالإضافة إلى عيوب إجراء الاستبيان عن طريق المراسلات البريدية. لكن، هل كانت تلك الأسباب هى التى دفعت برسالة زكى إلى مصيرها المظلم فى طى النسيان؟

أجرى المعهد القومى لعلم النفس اختباراً فى العلوم والرياضيات فى عام ١٩٨٣ وتم تصميم الاختبار بحيث يتيح مقارنة مهارات تلاميذ المدارس من مختلف البلاد الأجنبية بأقرانهم من باكستان (مرجع ١١). بعد مراجعة الأسئلة المتعددة الاختيارات، ثم تعديلها بما يلائم الظروف المحلية. وُزِع الاختبار على ٤٢٠ تلميذاً من منطقة راولپنڊى (Rawalpindi). فلما أظهرت النتائج الخاصة بتلاميذ الصف السادس مقارنات غير مرضية، امتد نطاق الاختبار ليضم فرق الصف السابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، والحادى عشر، وتوضح الرسوم البيانية التالية بعض هذه النتائج: -

١- اختبار الرياضيات

15.56	_____	باكستان
25.3	_____	الولايات المتحدة
31.8	_____	سويسرا
33.2	_____	فرنسا
35.8	_____	كندا
37.8	_____	الجمهورية
37.9	_____	أستراليا
37.7	_____	الدنمارك
30.3	_____	اليابان

١- اختبار العلوم

30.0	_____	باكستان
41.3	_____	سويسرا
42.1	_____	فرنسا
43.7	_____	الولايات المتحدة
45.2	_____	اليابان
49.2	_____	كندا
49.2	_____	أستراليا
54.5	_____	الجمهورية
55.5	_____	الدنمارك

وفيما يلي أهم ما خلص إليه الباحثون بالمعهد:

١ - لوحظ أن أقل مجموع درجات حصل عليه تلاميذ الفرقة السادسة الأجانب، كان أفضل بكثير، من مثيله مقارنة بالتلاميذ الباكستانيين في أى من الصف السادس، أو السابع، أو الثامن، أو التاسع. في الواقع فإن أعلى مجموع درجات في الرياضيات، حصل عليه تلاميذ الصف السادس في اليابان (٥٠,٢)، تخطى ما حصل عليه التلاميذ الباكستانيين من الصف الحادى عشر (٣٨,٨)، ويخلص التقرير إلى "في النهاية، يظل الكثير من تلاميذنا في الصف الحادى عشر، أقل كفاءة في العلوم والرياضيات، من تلاميذ الصف السادس في البلاد الأجنبية".

٢ - ينمو المنطق العقلى ببطء شديد في الفصول الدراسية المتعاقبة. وحسب ما ورد في التقرير، وما قد يكون على قمة الأهمية، فإن التعليم يسير بمعدل غاية في البطء، ولا توجد زيادة ذات دلالة في تعلم الرياضيات والعلوم على مدى السنوات الثلاثة الوسطى بالمدرسة (من الصف السادس إلى الثامن).

٣ - على عكس الاعتقاد بان مستوى التعليم أفضل بكثير في المدارس الإنجليزية المتوسطة، مقارنة بمدارس الـ "أوردو" الأهلية، فلم يجد التقرير أية فروق كبيرة بينهما فيما يتعلق بتعلم العلوم والرياضيات. وفي الحقيقة فلقد لوحظ فرق طفيف غير ذو دلالة إحصائية في صالح المدارس الأهلية.

• دأبت وزارة العلوم والتكنولوجيا منذ عام ١٩٨٥، على إرسال مئات من الطلاب إلى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا للحصول على الدكتوراه في المجالات العلمية والتكنولوجية. يفترض أن المبعوثين للخارج يمثلون صفة مواهب الدولة. خاصة وأن كل مبعوث يكلف الحكومة مابين ثلاثين، وخمسة وثلاثين ألف دولار سنوياً ولكن اتضح الفشل الذريع للبرنامج بسبب ضعف مستوى الطلاب المختارين. فعلى سبيل المثال، تم إرسال ١٨٧ طالباً إلى أمريكا للحصول على الدكتوراه، فيما بين عامى ١٩٨٥ و ١٩٨٦، وبعد مضي خمس سنوات، إذا بتسعة فقط ينجحون فى

الحصول على الدكتوراه، وتسعة وثلاثين مُنحوا درجة الماجستير. وفي نفس العام تم إرسال ١٩١ طالبا إلى بريطانيا ومن بين هؤلاء حصل ٦٥ على الدكتوراه. ولعل هذا العدد الكبير نسبيا يعكس الطبيعة الأقل تشددا للنظام التعليمي في بريطانيا.

- أجرى مركز العلوم الأساسية في إسلام آباد، في ٢٩ يناير ١٩٨٦، اختبارا عن مختلف أوجه الفيزياء، مصمما أصلا من قبل أحد الحاصلين على جائزة نوبل، وهو صامويل تينج (Samuel Ting)، لمائة وعشرين طالبا من مختلف أنحاء باكستان من الحاصلين على درجات تتراوح بين الماجستير والدكتوراه، كما سُمح للطلاب بإحضار ما يشاءون من مذكرات وكتب معهم. استمر الامتحان لمدة خمس ساعات، واشتمل على ٢٠٠ سؤالاً متعدد الاختيارات، ووضِع لكل سؤال، ثلاثة بدائل فقط لاختيار الإجابة الصحيحة من بينها، مما يتيح الفرصة لوصول إجمالي نسبة الإجابات الصحيحة إلى ٦٧%، لو تمت الإجابة بطريقة الاختيار العشوائي البحث. كذلك أعلن أن حق الالتحاق بمعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا، قد تقرر كحافز، لمن يحصل على درجات أعلى من ١٦٠ درجة.

لم ينجح أحد، ولم تصل بأية حال درجات أيّا منهم لما يقترب من درجة النجاح. فأعلى الدرجات المسجلة كانت ١١٣ درجة، أما إجمالي تسجيل الإجابات الصحيحة فكان ٧٠ فقط، أي أعلى بثلاث نقاط هزيلة عما كان متوقعا في حال إذا ما قامت مجموعة من الأميين بإجراء الاختبار، وبالاختيار العشوائي للإجابة. ولقد فكرت السلطات المسؤولة التي سمحت بالاختبار في إخفاء النتائج، ولكن بعد فوات الأوان.

- تعد نوعية الأسئلة الموضوعة لفئة ما من الطلاب، بالإضافة إلى نتائج الامتحان، من المؤشرات الهامة الدالة على نوعية تعليم العلوم. وبالنظر إلى أوراق الامتحان لمستوى الصف المتوسط، وللامتحان التأهيلي الأخير. والمعدة بواسطة المكتب الفيدرالي للتعليم، على مدى الثلاث سنوات الماضية، فيمكن التعرف على الخصائص البارزة التالية:

١ - وجود درجة عالية من التكرار فى أسئلة جميع المواد العلمية، فعلى مدار السنوات الثلاث الماضية، وصلت نسبة تكرار نفس السؤال، فى السنوات المتتالية، من ٤٠ إلى ٧٠ ٪. وفى بعض الحالات تكررت ورقة الامتحان بالكامل وبدون تعديل.

٢ - خصصت نسبة ما بين ٦٠ و ٨٠ ٪ من الدرجات، لأسئلة من نوعية "اكتب ما تعرفه عن" أو "ناقش موضوع كذا"، ومن المعروف أن هذا النوع من الأسئلة قادر على اختبار القدرة على التفكير فقط لا الفهم.

٣ - حتى فى الحالات التى طُلب فيها إجراء عملية حسابية معينة، فكانت إما تكراراً حرفياً للنص المذكور فى الكتب الدراسية، أو مع تعديل بسيط لها فى كثير من الحالات.

٤ - يطلب من الطالب الإجابة عن ما يقرب من نصف الأسئلة الواردة بورقة الامتحان اختياريًا، مما يتيح للطالب إهمال استذكار جزء لا يستهان به من المقرر الدراسى.

• تم إجراء اختبار مفاجئ لمجموعة من المدرسين من الحاصلين على الماجستير، ومن المنخرطين فى التدريس فى المدارس العليا أو الجامعات لفترة طويلة، وممن أتى عليهم الدور للاشتراك فى الدورات التنشيطية بجامعة القائد عزام فى عام ١٩٨٤، ووضعت الأسئلة بالكامل، أما على مستوى شهادة التأهل (مثل الثانوية العامة)، أو على مستوى السنوات المتوسطة، ورغم أن هؤلاء المدرسين يقومون بالتدريس لمستويات أعلى بكثير، كالبكالوريوس أو الماجستير، إلا أن نسبة من تمكنوا من الإجابة على الأسئلة لم تتعدى ١٠ ٪. أجرى اختبار مماثل فى عام ١٩٨٨ للطلاب الجدد الحاصلين على درجات الماجستير والمتقدمين لشغل وظائف فنية فى مؤسسة الطاقة الذرية الباكستانية، وكذا للطلاب المتقدمين للعمل بالمعاهد العلمية المتميزة فى باكستان، والتابعة لجامعة القائد عزام. لم يختلف مستوى الأداء كثيراً عما سبق وإن كانت النتائج أفضل قليلاً.

وفى هذا دليل لا يمكن إغفاله على أن الغالبية العظمى من المدرسين والطلاب لا يستوعبون مانتهم ولا يعملوا عقولهم بالقدر الكافى.

شجع هذا النمط المستتب من نوعية أسئلة الامتحانات، على انتشار ظاهرة مراكز الدروس الخصوصية، التى تتعاقد مع الطلاب على ضمان حصولهم على نسبة معينة من الدرجات، فى حال انتظامهم فى التعامل معهم، ودفع المبالغ المتفق عليها. هذا وتقوم الجرائد بصفة دورية بفضح حالات بيع الدرجات، والشهادات، وكشوف الدرجات، وكذلك حالات الغش المنتشرة فى الامتحانات. ولكن لا توجد إحصائيات واضحة المعالم، عن حجم هذه الأنشطة. أصبحت تلك الأمور، بعد نشرها، بمثابة المعلومات العامة، مما أصاب الطلاب بصفة عامة، بدرجة عالية من الإحباط، وأصبحوا لا يبنلون أى مجهود يذكر للوصول إلى أى إنجاز حقيقى ذو معنى فى التعلم.

إن تهميش المواد المدنية، وضعف مستوى الأداء فيها، إنما جاء كنتيجة للتغيرات الأساسية فى أوليات التعليم، كما تسبب الاهتمام الزائد بتلقين المواد الدينية، فى استبدال معظم الأعمال الأدبية، بمقالات الوعظ، كذلك استبدال الشعر الكلاسيكى بالشعر الدينى، كما اقتصرت مقررات التاريخ والجغرافيا على الأماكن والأزمنة الإسلامية. وأما مفهوم الحضارة العالمية المتوحدة، فما زال غائبا عن نظر الطلاب. والأهم من هذا وذاك، يأتى تشويه دور المنطق والإبداع فى العملية التعليمية.

لم تتجح الاحتجاجات والمعارضة فى التصدى لسياسة التلقين فى التعليم، وبدلاً من ذلك اتجه أولياء الأمور الميسورون، والقادرون على تحمل أعباء المصاريف الإضافية، إلى إلحاق أبنائهم بالمدارس المتوسطة الخاصة الإنجليزية. حيث تتيح مناهج تلك المدارس قديراً أكبر من التعليم المدنى وتستعمل كتباً أجنبية. ومما لا شك فيه، فقد كانت سياسة الحكومة بأسلمة التعليم - سواء بقصد أو بدون قصد - من أهم أسباب انتعاش القطاع الخاص فى التعليم. واستطاعت هذه المدارس - دون غيرها - أن توفر بعض وسائل الإفلات من القواعد المفروضة من جهاز الدولة

فى أثناء فترة باكستان الضيائية. وأما الحكومة المدنية التالية، فكانت على درجة عالية من الضعف بحيث لم تحدث أى تغيير يذكر.

كذلك شهدت سنوات حكم الجنرال ضياء الحق، إيادة حقيقية للنشاط الثقافى فى الجامعات الباكستانية، حيث مُنعت المحاضرات العامة، والحوارات، والمسرحيات، وحتى اللقاءات الشعرية. ويرجع أحد أسباب المنع، إلى السلطات الجامعية، التى تملكها الرغبة فى فرض القانون والنظام، وأما السبب الآخر فجاء نتيجة التهديدات الساخنة من مجموعات الطلاب المتدينين، الذين اعتبروا التمثيل والموسيقى من الأمور غير الإسلامية. ويلاحظ أن هذه القوة الأخيرة، لم تتلاشى بوفاء ضياء الحق.

تبعاً لذلك، وكنتيجة لقلّة الإنتاج الفكرى والعلمى، صارت الجامعات الباكستانية من أضعف الجامعات فى جنوب آسيا. وتكفى المقارنة بين الجامعات الهندية ومثيلاتها فى باكستان. وهذا أمر على جانب خاص من الأهمية، نظراً للتشابه الواضح بين البلدين من الناحية التاريخية والحضارية. فوجود بالهند أكثر من اثنتى عشرة مؤسسة متخصصة فى العلوم الفيزيائية والهندسة. وهذه المؤسسات تشمل خمسة معاهد للتكنولوجيا، إضافة لمركز "بهابيها" للبحوث الذرية (Bhabha Atomic Research Centre)، ومعهد "تاتا" للبحوث الاساسية (Tata Institute Of Fundamental Research)، ومعهد "ساها" (Saha Institute)، والمعهد الهندى للعلوم (Indian Institute Of Science)، إلخ. ويلاحظ أن الإنتاج التعليمى و البحثى لوحد فقط من هذه المؤسسات، وهو معهد التكنولوجيا بمدينة كانبور، يزيد بكثير عن إجمالى إنتاج كل المؤسسات الباكستانية.

منحت الجامعات الباكستانية ٣٧ درجة دكتوراه فى الفترة من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٥، ومعظمها فى العلوم البيولوجية، ولم تمنح حتى الآن درجة دكتوراه واحدة فى الهندسة. فى نفس الفترة الزمنية، منح المعهد الهندى للتكنولوجيا — كانبور منفردا ٢٠٢ دكتوراه فى العلوم والهندسة. كما زاد إجمالى ما منحه الهند من درجات الدكتوراه فى العلوم، خلال عام ١٩٨٠ عن ٢٠٠٠ درجة.

فى ظل حالة الفقر الثقافى هذه، فقد تجنب أذكفاء الشباب الانخراط فى السلك الجامعى، ولجأ بعضهم للسفر إلى الخارج، حيث أصبحوا من المرموقين هناك، وشغلوا مناصب يحسدوا عليها. من آن لأخر، يمكن إقناع أحد الندرة البارعة من الرجال أو النساء بقبول المخاطرة، والتقدم للالتحاق بالسلك الأكاديمى الجامعى، رغما عن الاحتمالات الكبيرة فى رسوبهم على أيدى بعض لجان الاختيار الجامعية.

بههدف الحفاظ على الجامعات، وحمايتها من إجراء أى تعديل غير مرغوب فيه، فقد طورت النظم الإدارية الجامعية، لاختيار المتقدمين للعمل بطريقة متقنة، بحيث تمنع بقدر الإمكان، احتمال تلوث الجامعة بجرائيم المتقنين والكفاءات المهنية. وتوكل مهمة التطهير تلك، إلى لجان الاختيار الجامعى. وأما عن الوسائل التى تستعملها هذه اللجان لإنجاز مهامها، فتشمل على سبيل المثال، إجبار المتقدمين على الإجابة على أسئلة لا علاقة لها بالمررة بتخصصهم، ولا تمت بأى صلة لأى نشاط مهنى محتمل للمتقدم.

وتتضح تلك النقطة من الاجتماعات المتعددة للجنة الاختيار، بجامعة القائد عزام - التى تعتبر الجامعة الأولى فى باكستان - فى الفترة ١٩٨٧ - ١٩٨٨. كان من بين المتقدمين أخصائيين متميزين من حاملى درجة الدكتوراه فى المواد العلمية. ولدى مثلهم أمام اللجنة ووجهوا بأسئلة مثل:

- ما هى أسماء زوجات الرسول؟

- ائىل دعاء القنوت.

- متى طبقت اتفاقية باكستان؟

- ما الفرق بين الآذانات المختلفة؟

- ما معنى اسمك؟

- ائىل أسماء الله الحسنى.

استقر أمر استجواب المتقدمين، فى الأمور الإسلامية، وحول باكستان، وتحول إلى قاعدة رسمية فى عهد ضياء الحق. كذلك جرت العادة على رفض طلبات المتقدمين، إذا رفضوا المثل أمام تلك اللجان. ولم ترفض حكومة بنازير هذه السياسة، كما ان الحكومة التالية أكدت عليها.

ترتبط نوعية الكفاءات المطلوب توافرها فى أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، برابط وثيق بنوعية الدور المرغوب أن تؤديه الجامعة فى المجتمع بصفة عامة. والجامعات فى المجتمعات النشطة، مثلها كمثل المغناطيس الذى يشد إليه أكثر العقول إبداعاً. فالجامعات لا تقوم فقط بنقل المعرفة بين الأجيال، بل إنها توسع آفاق المعرفة، وتعطى قوة الدفع اللازمة لنمو المجتمع. حيث يعتمد المجتمع الحديث بشكل حاسم على حيوية وصحة جامعاته، وبدونها يتحول إلى التراخي والخمول.

على الجانب الآخر، فيبدو أن المجتمع الباكستاني لم ينمى شيئاً فى جامعاته سوى الإذعان والخنوع، ولا يعنى هذا الإذعان، التخلي عن العنف المادى، فقد أصبح من المألوف استعمال بنادق الكلاشينكوف، والأسلحة الأوتوماتيكية، داخل الحرمات الجامعية. إنما هو فى الواقع خنوعاً ثقافياً. مما يعكس عدم القدرة المزمّن على التفكير المستقل، أو التحليل، أو الإبداع. وبناء على ذلك فقد أصبحت الجامعة مركزاً جاذباً لأقل عناصر المجتمع كفاءة، وهم الطلاب والمدرسين الذين فشلوا فى كل المجالات الأخرى. حقيقة، أينما سُدّت وسائل التعبير عن الرأى، فلا يتبقى على السلطة سوى فجاجة الحق والخطأ المطلق، و يصبح العنف هو رد الفعل الطبيعى، إن لم يكن الحتمى.

العلم كمنظور عالمي

تصبح التفرقة بين العلم والتكنولوجيا غامضة وغير محددة كلما تقدمنا نحو نهايات حدود التكنولوجيا. فالهندسة الوراثية، والروبوتات، وأنظمة الذكاء الصناعى، والكومبيوتر، والالتحام النووى، ورحلات الفضاء، كلها خرجت إلى

الوجود عن طريق العلم النظري المعقد، الذى تعتمد عليه بشدة كل الانجازات التكنولوجية، من أجل مزيد من التقدم. ومن الخطأ اعتبار العلم والتكنولوجيا لفظين مترادفين، أو أن بالإمكان تبادلها، فهما وجهان نحو أهداف مختلفة، ومتطلباتهما مختلفة تمامًا، سواء كان ذلك على المستوى الفلسفى أو الإدراكى. وعلى سبيل المثال، فى الوقت الذى يقل فيه الاهتمام بالقيم والمعتقدات، كما قد يحدث أثناء عمليات تصميم وإنشاء محطات تكرير البترول، أو مجمعات تصنيع السيارات، إلا أن الوضع يختلف تمامًا عند محاولة تقدير العلم أو عند محاولة إتقانه والتحكم فيه. على صعيد آخر، حقيقة أن العلم لا يمكنه الاستغناء عن النقد، تعنى بالضرورة أن الاصطدام مع الأنماط الفكرية التقليدية شئ حتمى ومن المستحيل تجنبه.

ولقد صادفتنا مواقف كثيرة، ظهر فيها عدم ارتياح بعض المسؤولين السعوديين الكبار، وهم ليسوا وحدهم، الذين يرون تعارضًا شديدًا، بين رؤى العالم العلمية من ناحية، ومتطلبات الإيمان من ناحية أخرى، جدير بالملاحظة أن هذه هى نفس المخاوف التى دأب الأصوليون من مختلف الأديان على ترديدتها. وسأحاول أن أوضح، فيما تبقى من هذا الفصل، أن المناخ الثقافى المعاصر فى كثير من البلاد الإسلامية لا يبشر بالخير فيما يتعلق بالتفكير الحر والعلم، ولعل هذا يتضح من خلال استعراض الحالات الآتية:

لا يوجد مجال تظهر فيه الخلافات بوضوح، أكثر من دائرة الخلاف حول المعجزات. ومن أجل إبراز أهمية الإيمان بوجود المعجزات، ويمدى فاعليتها، فقد عقد مؤتمر دولى واسع بعنوان "المعجزات العلمية فى القرآن والسنة" فى أكتوبر ١٩٨٧، فى العاصمة الباكستانية إسلام آباد، ووضع المؤتمر تحت رعاية رئيس باكستان السابق الجنرال ضياء الحق. وشارك فى تنظيمه كل من الجامعة الدولية الإسلامية، و"منظمة المعجزات العلمية" ومقرها مكة. وحضره بضعة مئات من الأتقياء الورعين من مختلف الدول الإسلامية. لقد مثل المؤتمر حدثًا هامًا، بصفته واحدًا من الأنشطة المماثلة الكثيرة، التى دعمتها الدولة الباكستانية فى الماضى القريب، وكذا لأنه صور بوضوح، النمط الفكرى للقابضين على مقاليد السلطة فى باكستان. وتوجهت دفة مناقشات المؤتمر للتأكيد على:

١ - التأكيد على وجود معجزات "علمية".

٢ - إثبات أن كل الحقائق العلمية، يمكن تتبع آثارها وإرجاعها، إما إلى القرآن وإما إلى السنة.

٣ - التأكيد على أن النظريات الحديثة فيما يتعلق بالظواهر الفيزيائية، تستند بوضوح إلى النصوص المقدسة.

٤ - إدانة العلم المندى "الغربي".

وسيجد القارئ بعض الأمثلة من المقالات التي عرضت في المؤتمر، في الملحق المعلنون يسمونه علماء إسلاميًا" بنهاية هذا الكتاب.

- مازال تحديد هلال رمضان، مثار جدل مرير، بين ذوى الميول العلمية، وبين علماء الدين، وحتى بين علماء الدين وبعضهم البعض. كثيرًا ما تسبب الخلاف، حول ظهور الهلال من عدمه إلى بدء المسلمين فى الصيام فى أوقات مختلفة، أو احتفالهم بعيد الفطر فى أيام مختلفة، اعتمادًا على المجتمع الذى يعيشون فيه، وعلى رأى السلطة الدينية التى يتبعونها، وفى محاولة لتخطى الخلافات، يؤكد ذو الميول العلمية على استطاعة علم الفلك الحديث التنبؤ بمكان وزمن مولد الهلال بدقة فائقة. وبناء عليه -من وجهة نظرهم- فىمكن التخلص من الخلافات بين مختلف المراقبين، ويمكن تحديد موعد العيد مسبقًا. لكن معظم علماء الدين يختلفون مع هذا الرأى بشدة ويصرون على عدم إمكان وجود بديل للرؤية البصرية. وحرصًا على تجنب أية خلافات محتملة، حول مسألة حساسة كهذه، قد تسبب فى حدوث نوع من الشقاق، فقد قامت الحكومة الباكستانية بتشكيل لجنة خاصة لرؤية الهلال، على أن تصعد اللجنة عاليًا على متن طائرة، لاستطلاع الهلال فى الوقت المناسب. لكن حتى هذا الإجراء لم يحظ باتفاق جماعى من علماء الدين.

- توقع التغييرات الجوية مسألة أخرى تدور حولها المصادمات بين وجهات النظر الحديثة والأصولية، فأنصار الحداثة من المسلمين يرون أن القوانين

الفيزيائية تحكم المناخ بصفة عامة، وخاصة نزول المطر، ولكنهم، فى نفس الوقت، حريصون على التوفيق بين هذا البرأى وبين المعتقدات الإسلامية المتعلقة بهذا الشأن، خاصة تلك المستمدة من سور القرآن الكريم، والتي تصف نوعاً خاصاً من الصلوات يُعرف بصلاة الاستسقاء^١، وفى تفسير أنصار الحدائث أن الصلاة من أجل المطر، تعبر فقط عن الرغبة القوية فى نزول المطر، ولكن لا يجب، على حد قولهم، أن نتوقع من الله أن يوقف العمل بقوانين الطبيعة، بناءً على مثل تلك الصلوات. لا بد من الإشارة إلى أن معظم الدول الإسلامية تمتلك مراصدًا حديثة، أو على الأقل، لديها أقسامًا للأرصاد الجوية، تعطى البيانات الخاصة بالتغيرات الجوية المتوقعة، بما فيها نزول المطر، معتمدة على البيانات المستمدة من الأقمار الصناعية، وعلى الحسابات الدقيقة القائمة على أساس معادلات الفيزياء الخاصة بالسوائل ثم تدّاع هذه البيانات بصفة منتظمة من خلال أجهزة الإعلام، تمشيًا مع الممارسات الطبيعية المشابهة فى باقى بلدان العالم.

يتبنى الأصوليون وجهة نظر أخرى فى هذه المسألة، تختلف بشدة مع رأى الحدائثيين. فكثير من - إن لم يكن معظم - علماء الدين الأصوليون، يزعمون بقوة، أن توقع نزول المطر، يقع خارج الحدود الشرعية لمعرفة الإنسان، بل، والأكثر من ذلك، فإنه يعد خرقاً للمجالات فوق الطبيعية. استناداً على ذلك، توقفت وسائل الإعلام فى باكستان بهدوء عن إذاعة ونشر النشرات الجوية فيما بين عامى ١٩٨٣ و ١٩٨٤، مع ملاحظة أن تلك النشرات عادت للظهور بعد ذلك. يتواجد الإيمان بالتدخل المباشر لما هو فوق الطبيعة للتأثير على المناخ، ليس فقط على مستوى

^١ ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ...﴾ سورة البقرة - ٦٠، ﴿لَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ (١٠) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مُمْزَازاً﴾ سورة نوح - ١٠-١١. هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الآيات الدالة على قدرة الله على إنزال المطر (الزخرف-١١ والفرقان ٤٨-٤٩ وغيرها). كذلك وردت الممارسة بكتب السنة والحديث. (المترجم)

الأفراد، لكن أيضًا على المستوى الرسمي للدولة. بناءً على ذلك، فعندما يشتد الجفاف تقوم الحكومة في المملكة العربية السعودية، بتنظيم الصلوات الخاصة لنزول المطر. كما قامت حكومة ضياء الحق في باكستان بإحياء تلك الممارسات في عام ١٩٨١، جدير بالذكر أن مثل تلك الصلوات يقيمها عادة عشرات الآلاف من المؤمنين.

• بالنظر إلى الداروينية (نسبة إلى نظرية داروين) كتهديد للعقيدة، فلا تخفى السلبية الشديدة التي ينظر بها المسلمون في العالم الإسلامي إلى نظرية التطور في علم الأحياء، بل صارت المسألة، منذ دخولها إلى العلم العربي في عام ١٩١٠ بواسطة شبلى شمايل (Shibli Shumayyil)^١، محل شجب شديد وجدل متأجج من قبل التقليديين الذين أعلنوا الجهاد ضد سموم الداروينية، حتى جمال الدين الأفغاني -الذي دافع عموماً عن العلم الغربي- فقد كان رد فعله قوياً، وكان في الواقع أول الرموز الإسلامية الكبيرة التي هاجمت الداروينية. للأفغاني - ككثير من المعارضين - مقولة غريبة في هذا الشأن، حيث يقول "...وعلى زعم داروين يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكر الدهور، أو ينقلب القيل برغوث كذلك" (مرجع ١٢). وقد تناول عادل زيادات (Adel Ziadat) موقف العالم العربي من الداروينية في أحد كتبه الحديثة (مرجع ١٣).

وحتى يومنا هذا، فإن التمسك بوجهات نظر تدعم علم الأحياء التطوري، يمثل خطراً في كثير من البلاد الإسلامية، وهناك بعض القوانين التي تمنع تدريسه، وقد تم حديثاً (١٩٩٠) سجن فاروق محمد إبراهيم، وهو متخصص بارز في علم الأحياء بجامعة الخرطوم، لقيامه بتدريس نظرية داروين لطلابه، وفي خطاب له

١ شبلى شمايل (١٨٦٠-١٩١٧)، لبناني الأصل، من أوائل الرواد المدافعين عن العلم في العالم العربي، وأول من ترجم كتاب أصل الأنواع لداروين عن الترجمة الألمانية التي قام بها "بوخنر"، ليقدمه للقارئ العربي، في محاولة للتبسيط إلى أهمية العلم. كما ألف كتاباً بعنوان "قلمسفة للنشوء والارتقاء". (المترجم)

تم تهريبه من السجن - شرح بالتفصيل كيف تم جلدته، وركله، وضربه، في حضور أحد أعضاء مجلس الثورة هناك. وقد أثار هذا النوع من التعامل ثائرة قطاع من المجتمع الإسلامي في بريطانيا، فقد قال زكي بدوي معقبًا، وهو رئيس المدرسة الإسلامية بلندن ورئيس اتحاد أئمة المساجد هناك: أنا لا أصدق، فلابد أن السلطات السودانية قد أصابها الجنون.... فقد يكون مبررًا اعتقال الناس لأرائهم السياسية لا لأرائهم العلمية (مرجع ١٤).

• حتى الآن، تواظب الجامعات الإسلامية على تدريس علم الفلك البطلميوسي^١ (Ptolemaic System)، داخل إطار علم الفلك القديم، الذي يضع الأرض في مركز الكون (Geocentric Cosmology).

أما علم الفلك الحديث، فيشار إليه كمجرد نظرية بديلة محتملة.

• يمتد النظام الفلكي البطلميوسي، ليستلهم منه الشيخ عبد العزيز بن باز، من السعودية، وهو الرئيس المشهور بجامعة المدينة، الحاصل على جائزة الملك فيصل الدولية لخدمة الإسلام في عام ١٩٨٢، وهو الذي ألف كتابًا بعنوان "جريان الشمس والقمر وسكون الأرض". يقول الشيخ الموقر: إن الأرض مركز الكون، وإن الشمس والقمر يدوران حولها. جدير بالذكر، أنه قام في كتاب سابق له، بتهديد المختلفين معه في الرأي، بفتاوى التكفير المفزعة، إلا أنه، في الحقيقة، لم يكرر دعاوى التكفير في كتابه الأحدث. والآن يُعد الشيخ بن باز من الشخصيات المرموقة في المملكة العربية السعودية، حيث تؤخذ آرائه هناك بمنتهى الجدية.

^١ علم الفلك البطلميوسي، نسبة إلى العالم "كلوديوس بطلميوس (Claudius Ptolemaeus) (٨٧-١٥٠ قبل الميلاد)، عاش في الإسكندرية حيث أجرى بحوثه الفلكية، وكان عالمًا في الفلك، والرياضيات، والجغرافيا. تمت ترجمة أبرز أعماله إلى العربية، أيام هارون الرشيد، في مجلد عرف باسم "الماجست" (Almagest). وظلت نظريته القائلة بأن الأرض هي مركز الكون، وأن باقي النجوم والكواكب تدور حولها، سائدة لأكثر من ألف وأربعمائة عام، حتى مجئ كوبرنيكوس بنظريته الأحدث في عام ١٥٤٣. (المترجم)

وقد يوحى ذلك إلى بعض القراء بأن التقدم لا يعتبر من الفضائل هناك، ولكن يوضع في الاعتبار أن السعودية كانت أول دولة، بل الوحيدة حتى الآن، التي أرسلت برائد فضاء إلى الفضاء الخارجي. ومن البعد ومحمولا على متن سفينة الفضاء الخاصة بوكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" (NASA)، فقد كان بإمكان رائد الفضاء المسلم بكل تأكيد أن يعقب على فتاوى الشيخ، ما لم يكن منشغلاً في مهمته الملحة بتحديد اتجاه القبلة لصلواته.

رغم القول بأن انتصار العلم على الخرافة يكاد يكون مؤكداً، إلا أن المعركة لم تحسم بالفوز حتى اليوم. ونادراً ما تجد المآسى الناجمة، طريقها للنشر والإعلام. وعلى أية حال، فهناك بعض الاستثناءات، مثل حادثة خليج هاوكس (Hawkes Bay) المشهورة عام ١٩٨٣. ففي صباح يوم ممطر، تدفق المئات من القرويين من شمال باكستان، مستلهمين حلم إحدى عذراوات المدينة، وقفزوا إلى المياه العاصفة للخليج العربي، وكان أملهم الحج إلى مدينة كربلاء المقدسة في العراق. وقد أكد لهم أن من شأن البحر أن يمنحهم طريقاً آمناً لبلوغ غايتهم. فكانت النتيجة أن تم انتشال أكثر من ٣٠ جثة. وقد تصرفت قوات الأمن، التي لم تكن متأكدة من كيفية التعامل في مثل هذه الحالات، ببيروقراطية كلاسيكية، حيث قامت بالقبض على الناجين ووجهت إليهم تهمة محاولة مغادرة البلاد بدون جوازات سفر، ثم تم الإفراج عنهم بعد ذلك بوقت قليل، هذا، وقد أثنى بعض علماء الدين المرموقين على محاولة الحج هذه. أما ما له دلالة عميقة، فكان كم الدعم المجتمعي، الذي حصنته هذه المحاولة المشنومة من الجماهير بوجه عام، فبعد حملة لجمع التبرعات، تمكن الناجون من السفر للحج باستعمال الطائرات.

- 1- What follows is similar to the criteria devised by J. D. Bernal in his classic work, *Science in History*, Vol. 1, (Cambridge, MIT Press, 1971), pp. 27-53.
- 2- F. Engels in *The Origins of the Scientific Revolution*, ed. H. Kearny, (London Longmans Green, 1964), pp. 64-6.
- 3- *World Development Report*, (Oxford, Oxford University Press, 1989).
- 4- Data on trade and technology in Muslim countries has been collected in useful form in the *International Conference on Science in Islamic Polity*, Vol. 1. (Islamabad, Ministry of Science and Technology, 1982).
- 5- Michael Moravcsik, In Reference 4 above, pp. 340-54.
- 6- A. B. Zahlan in *Science and Science Policy in the Arab World*, (London, Croom Helm, 1980), Chapter 2.
- 7- A. B. Zahlan, *Journal of Palestine Studies*, I(1972), pp. 17-36.
- 8- *World Bank Report*, 1986.
- 9- *Development Associates Report on Primary Education in Pakistan*, prepared for USAID and the Government of Pakistan, p. 5.

- 10- J. B. S. Haldane, 'Is Science a Misnomer?', The Hindu Weekly Review, August 31, 1959.
- 11- National Institute of Psychology, Quaid-e-Azam University, Islamabad, unpublished report, 1983.
- 12- Nikkie Keddie, An Islamic Response to Imperialism, (University of California Press, 1983), p. 15.
- 13- Adel A. Ziadat, Western Science in the Arab World- The Impact of Darwinism, 1860-1930, (London, Macmillan Press, 1986).
- 14- New Scientist, 17 March 1990, p. 21.
- 15- G. Sanitillana in the preface to Science and Civilization in Islam, by S. H. Hossein, (Cambridge, Mass. Harvard University Press, 1968), p. ii.

الفصل الخامس

ثلاثة ردود إسلامية حول خلف النمو

"لا تعتبر حقيقة عدم تطور العلم والتكنولوجيا، بشكلهما الحالّي، مؤشراً على التخلف كما يدعى البعض، ولكنه رفض الإسلام للإقرار بالطبيعة المدنية لكل شكل من أشكال المعرفة"

السيد حسين نصر (Sayed Hussein Nasr)

من المستحيل إخفاء النمو البطيء للعلم وللأفكار الحديثة في معظم البلاد الإسلامية، حتى بمقارنتها مع مثيلاتها من بين الدول غير الإسلامية. كما لا يظهر أى أثر محسوس لنشاطهم فى مجال البحوث العلمية، رغم أنهم يمثلون خمس سكان العالم. كما يتميزون عن بقية الدول النامية باعتمادهم المُخزى على التكنولوجيا وخبرة المعرفة الكيفية (Know How) الغربية. ظهرت تلك الحقيقة الساطعة، واستمرت لأكثر من ٢٠٠ سنة، وتمثلت بوضوح شديد فى حرب الخليج الحديثة. وسيان الآن أن يُمتدح هذا الواقع - كما تشير الفقرة المذكورة فى مستهل هذه الصفحة، وهى مقتبسة من نصر - كأسلوب لإظهار التماسك تجاه التأثيرات المفسدة للغرب، أو أن يُشجب. ففى كلا الحالتين، لن يؤثر هذا كثيراً على مصداقية الحقيقة. وبدلاً من الدخول فى جدل عقيم لنقض الواقع المرير، فيبدو أفضل كثيراً لنا أن نحاول فهم أسباب بطء نمو العلم والحداثة فى الدول الإسلامية.

لعل من أبسط الأمور إلقاء اللوم على العقيدة الإسلامية ذاتها. حيث يكاد أن يكون من المسلمات أن ينظر معظم الغرب إلى الإسلام على أنه مجموعة متحجرة من المعتقدات. كما يعتبرون التخلف العلمى للأمم الإسلامية دليل على أن الإسلام فى أساسه تخلفى وغير قادر على استيعاب الحضارة العلمية الحديثة. ويؤكد كثير من كبار المستشرقين منذ زمن طويل على أن الإسلام يُولد الجبرية والإيمان بالقضاء والقدر، وتوجهاته نحو الماضى لا إلى المستقبل، كما أنه ميثبط للتجارب الجديدة وللإبداع ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيقولون إن الإسلام والحداثة متناقضين

من الأساس، حيث تتداخل حدود العالم الدنيوى مع حدود العالم الآخر بصورة مربكة، ذلك لأن الإسلام يرفض الحضارة المدنية والمنطقية (مرجع ١).

وعلى حد زعم دانييل ليرنر (Daniel Lerner)، وهو من رواد علم الاجتماع الغربيين (مرجع ٢) " يقف الإسلام عاجزاً تماماً فى مواجهة الحداثة ". أما مانفريد هالبرن (Manfred Halpern)، وهو مستشرق آخر، فيكتب أن النظام الإسلامى الذى ربط يوماً بين الإنسان والله والمجتمع، يتهاوى الآن ممزقاً بأنياب الحداثة، التى تمزق نماذجها المتكررة من توازنات القوى" (مرجع ٣). إضافة إلى ذلك نجد أحد المتقنين البارزين ممن لهم ثقلهم فى المجتمع وهو عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، الذى لا يخفى تحيزه العنصرى والعرقى حيث يخلص فى إحدى مناقشاته الأساسية إلى أن الإسلام - كدين للمجاهدين - قد أنتج خلقاً لا يتفق مع مجتمع رأسمالى عقلانى، وأنه محكوم على المجتمع بحياة العصور الوسطى، إذا لم يخل عن هذا الخلق. وسأتعرض لوجهات نظر " فيبر " لاحقاً.

تحمل تحليلات المستشرقين أحياناً بعضاً من عناصر الحقيقة، لكنها كثيراً ما تتميز بالسطحية الشديدة، وتحتاج إلى النظر إليها بشيء من الشك. ففي المجالات الإنسانية التى لا تنطبق عليها معايير الموضوعية العلمية المحكمة، يتسع المجال لسوء القصد والتلاعب. فعلى سبيل المثال قامت جامعة مانيتوبا (University Manitoba)، بناء على توصية من أحد المستشرقين المشهورين، بدعم مؤتمر بعنوان مستفز "الإرهاب الإسلامى فى التسعينيات" هذه الإساءات تدل على أن لدى الكثير من المستشرقين دوافع نفسية عدائية تجاه موضوع دراساتهم. جدير بالذكر أن أحد الإسلاميين البارزين وهو مونتجمرى وات (Montgomery Watt) توجه بالنصيحة لدارسى الإسلام الغربيين حتى يكونوا على وعى بالانحيازات الموجودة خوفاً من إقحامها فى أعمالهم المهنية مما قد يؤثر على جودتها:

" تكمن الصعوبة فى أننا توارثنا انحيازات راسخة ترجع إلى " الدعاية الحربية" منذ أزمنة العصور الوسطى... فمنذ القرن الثامن الميلادى، بدأت أوروبا فى الوعى والنظر إلى الإسلام كعدوها الأعظم مهدداً إياها فى المجالين العسكرى

والروحاني... وظلت الصورة المرسومة عن الإسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مسيطرة على تفكير أوروبا، وما زالت آثارها باقية حتى النصف الثاني من القرن العشرين. وبناءاً على تلك الصورة فقد اعتُبر الإسلام انحرافاً عن الحقيقة المسيحية وأنه عبادة وثنية كما أنه دين العنف الذي انتشر بالسيف وعبادة بلا نيك ورهبة، كما أنه يكتسب أتباعه بتقديم ما يلبي رغباتهم الجنسية في هذا العالم وفي الآخرة " (مرجع ٤).

لن أحاول هنا أن أناقش بالتفصيل ظاهرة الاستشراق بكل أبعادها فقد قام آخرون مثل إدوارد سعيد (Edward Said) (مرجع ٥)، بمثل هذا العمل بكفاءة بالغة، وقد أكد بشدة على مدى قسوة الدراسات التي تتم بدون فهم عميق لموضوع الدراسة. إن المشكلة الأساسية في كثير من وجهات نظر المستشرقين، أنها تركز على بعض النقاط الشكلية والنصية متجاهلة المناخ الثقافي المتشعب للحضارة الإسلامية الذي واكب تلك الأحداث، وبدلاً من ذلك استمر التركيز على بعض النماذج الإسلامية المتخلفة دون وضع اعتبار مناسب لطول الممارسات الثقافية المشرفة في الإسلام، وكنيجة متوقعة لهذا الخط وتلك الإساءة، نشأ رد فعل دفاعي من بين المسلمين وظهرت التيارات المتشددة.

كانت النتيجة أن جميع الدراسات النقدية أصبحت مشوشة بفعل الدراسات سيئة النية مما أدى إلى نوع من الانغلاق الفكري لدى كثير من المسلمين وأنقص من قدرتهم على تقدير ضخامة حجم المشكلة التي تغلف العالم الإسلامي اليوم .

في مواجهة الأزمة السياسية والبدهور الفاضح تبلور التساؤل : كيف ينظر المسلمون إلى موقفهم من هذا العالم وما الأسباب التي أدت لذلك ؟

برزت ثلاثة اتجاهات مختلفة من داخل الحضارة الإسلامية منذ زمن الاحتلال وإلى ما بعد الاستقلال، وهي كما حددها إقبال أحمد:

١ - التيار الترميمي Restorationist

٢ - تيار إعادة البناء Reconstructionist

يعطى هذا التصنيف هيكلاً مفيذاً، يمكن من خلاله فحص المشاكل واحتمالات بناء مجتمع علمى فى العالم الإسلامى.

الخط الترميمى

يبدو أن الخط الإصلاحى هو الأكثر شيوعاً بين المسلمين الآن، وهو يهدف إلى بناء نسخة مثالية من الماضى، ويُعزى كل صنوف الفشل والهزائم فى الماضى إلى الانحراف عن " الطريق الحق " وأكثر مظاهر هذا الاتجاه وضوحاً هو انتشار وتشعب الحركات الإسلامية الأصولية فى السبعينات والثمانينيات، فمن مصر - المدنية اسماً - إلى المملكة العربية السعودية الوهابية، ومن دولة الشيعة الثورية لآية الله خومينى إلى جمهورية باكستان الإسلامية، ارتفعت أصوات الأبواق بلا انقطاع، داعية إلى الحرب المقدسة، الحرب المقدسة ضد النموذج العلمانى والعقلانى والعالمانى. الحرب المقدسة ضد الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية دون تمييز، الحرب المقدسة من أجل تحقيق أى من الرؤى لتأسيس دولة إسلامية مثالية، الحرب المقدسة ضد مبادئ الاحتكام إلى المنطق باعتباره الوسيلة الوحيدة التى يجب أن تقود المجتمع البشرى وهى نفس المبادئ التى عبر عنها ابن رشد منذ حوالى ٨٠٠ سنة، والحرب المقدسة ضد المؤسسات الحديثة للمجتمع المدنى والفكر العلمى ووسائله.

سأتناول حالة باكستان فى الجزء التالى نظراً لما لموقفها تجاه العلم والحداثة من أهمية خاصة.

الجماعة الإسلامية الباكستانية

تعد الجماعة الإسلامية الباكستانية طليعة الحركة الإسلامية فى باكستان وهى حركة دينية سياسية تستمد دعمها من الطبقة المتوسطة فى المدن ومن الطلاب، وهى بلا جدال أفضل الجبهات تنظيمياً وهى مماثلة لجماعة الإخوان المسلمين العاملة فى عدد من البلاد العربية والتى حصلت مؤخراً على تمثيل كبير فى

انتخابات البرلمان الأولية في الأردن، ورغم أن الجماعة لم تحصل على عدد كبير من الأصوات في أي انتخابات قومية في باكستان فإن لها تأثير قوى على السياسة، خاصة بين صفوف الطبقة المتوسطة في المدن، حيث تمكنوا من إجراء تغييرات كبيرة في محتوى المناهج التعليمية وذلك باختراقهم للمؤسسة التعليمية في زمن ضياء الحق ولم تتمكن الحكومات التالية الأكثر حرية من إلغائها، وأما الخلافات مع باقي الأحزاب السياسية فهي خلافات حول الفرعيات ولم تتطرق إلى الأمور الأساسية مثل الدور الذي يجب أن يلعبه العلم في مجتمع إسلامي.

ولعل أكثر المتحدثين لباقة باسم الجماعة خاصة فيما يتعلق بالعلم والحدائث، هي مريم جميلة (Maryam Jameelah) وهي أمريكية يهودية الأصل، اعتنقت الإسلام، وجميلة تقارن بين العلم والحدائث، وعبادة الأصنام :

" تتميز كل مذاهب الحدائث بعبادتها للإنسان، وكثيراً ما تتخفى عبادة الإنسان تحت ستار العلم، كما يقتنع أنصار الحدائث بأن التقدم في المعرفة العلمية سيمنحهم قوى الله ". (مرجع ٦).

والعلم في رأيها شيطاني في جوهره نظراً لطبيعته الإلحادية :

" ليس للعلم الحديث مثل أخلاقية عليا سوى المادية المجردة والعجرفة. إن كل فروع المعرفة واستخداماتها ملوثة بالشر، كما يعتمد العلم والتكنولوجيا بالكامل على مجموعة من المثل والقيم التي يربعاها رجالها. إذا كانت جذور الشجرة فاسدة، فالشجرة فاسدة وعليه فكل ثمارها فاسدة " (مرجع ٧).

وفي رأي مريم جميلة أن كل الخير وحلول جميع المشاكل، توجد في التقاليد القديمة وهي تنتقد المقولات التي تؤكد أن الفضل في التقدم واستمرار التطور، إنما يرجع إلى فعل العلم الحديث: " لم يحدث أبداً في المجتمع الإسلامي أن جرى دعم الأصالة والابتكار والتغيير كقيم نابعة من الداخل، فلم يكن التقدم الآلى المتطور دائماً، هو المثل الأعلى للحضارة الإسلامية، ولكنها كانت المثل المستديمة والقيم المتسامية المستلهمة من القيم العقائدية والروحية للقرآن والسنة" (مرجع ٨).

على ذلك فمن وجهة نظر مريم جميلة وتأسيسًا على الطبيعة الشريرة والملحدة لعلم الغرب، فليس من الضروري ولا من المرغوب فيه أصلاً أن يلحق العلم الإسلامى بالغرب. وتسترسل بقولها: إن الزمن القديم كان أفضل كثيرًا فالحداثة لم تأت بشيء سوى فساد الروح ثم تدعم موقفها بطبع بعض الأحاديث النبوية - كالحديث التالي - على غلاف كتابها:

"من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، رواه مسلم والبخارى عن عائشة رضى الله عنها .

كذلك ينقد مولانا أبو العلاء مودودى (Maulana Abul Ala Maudoodi) مؤسس الجماعة الإسلامية ومن أكثر المفكرين الإسلاميين تأثيراً فى أيامنا هذه، حيث ينتقد العالم الغربى بمرارة فيقرر فى محاضرة له عن التعليم الإسلامى أن الجغرافيا والفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء وعلم الحيوان وعلم الجيولوجيا وعلم الاقتصاد، تدرس بدون مرجعية إلى الله ورسوله، وعليه فهى (تلك العلوم) مصدر للشطط والانحراف عن الحق :

"بتأمل طبيعة التعليم الحديث وعاداته، يتضح على الفور تعارضه مع طبيعة التعليم الإسلامى وعاداته، فأنتم تعلمون العقول الشابة الفلسفة وتهدفون لشرح الكون بدون إرجاع الأمور إلى الله، تعلموهم العلم الخالى من المنطق والعباد للحواس. تعلموهم الاقتصاد والقانون وعلم الاجتماع وكلهم مختلفون عن تعاليم الإسلام فى الروح والمادة، ثم تتوقعون منهم بعد ذلك أن يكون لهم وجهة نظر إسلامية ؟" (مرجع ٩)

ولتجنب هذا الشر يقدم مولانا حلاً مثاليًا بتحويل كل التعليم إلى التعليم الإسلامى فيكتب :

" يقع كل اللوم - لهذه الحالة المؤسفة - على الفصل بين الدينى والدنيوى فى التعليم " وكما سبق وأشارت فهذا الفصل غير إسلامى برمته. وفى ظل النظام الجديد فليس مطلوبًا إضافة منهج جديد عن الدين، وبدلاً من ذلك فإن جميع المقررات يجب أن تتحول إلى مقررات دينية". (مرجع ١٠)

ومع إقرار الجهات التشريعية والبرلمان الباكستاني لمشروع تطبيق الشريعة في مايو ١٩٩١ أصبح حلم " العلماء " (علماء الدين) بنظام تعليمي إسلامي نقي بلا تلوث من العلم الحديث، قريباً من التحقيق.

وبوحي من حكمة مولانا، قام معهد الدراسات السياسية في إسلام آباد - وهو بمثابة مركز إشعاع ثقافي للجماعة الإسلامية - بمهمة إعادة تعريف العلم، ووضع خطوطاً إرشادية عامة لكتابة المراجع المناسبة للعلوم المؤسّمة. وفيما يلي عينة من توصيات المعهد :

١ - لا تُذكر ظاهرة أو حقيقة دون إرجاعها إلى المشيئة الإلهية، فمثلاً في كتاب العلوم لتلاميذ الصف الثالث لا يجب سؤال الطفل عن : ماذا يمكن أن يحدث إذا لم يتناول الحيوان الطعام ؟ وبدلاً عنه يكون السؤال : ماذا يمكن أن يحدث إذا لم يعط الله الطعام للحيوان ؟

٢ - يجب قصر تأليف مراجع العلوم على من يؤمن بقوة بأن الإسلام هو الشفرة الوحيدة للحياة وممن لهم دراية واسعة بالقرآن والسنة ولهذه النقطة أن تحظى بكل الاهتمام. (مرجع ١٢)

٣ - لا يجب إرجاع "التأثير " إلى أى مسبب مادي فهذا الطريق يقود إلى الإلحاد فمثلاً تقول التوصيات : يكمن السم في بعض العناوين الفرعية في الكتب مثل " الطاقة تُحدث تغيرات " لأنها تعطي الانطباع بأن الطاقة هي المصدر الحقيقي بدلاً من الله. كذلك فليس من الإسلام أن نقوم بتعليم أن الماء ينتج بطريقة أوتوماتيكية من خلط الأوكسجين والهيدروجين. فالأسلوب الإسلامي يقول: يتولد الماء بمشيئة الله، عندما تقترب ذرات الهيدروجين من ذرات الأوكسجين" (مرجع ١٣)

٤ - الفصل الأول من أى كتاب وليكن كتاب الكيمياء، فلا بد وأن يكون عنوانه " القرآن الكريم والكيمياء " وكل فصل بعد ذلك يجب أن يبدأ بما يناسبه من أية قرآنية أو حديث. (مرجع ١٤)

٥ - لا يجب تسمية أية قوانين أو قواعد باسم أشخاص (علماء) فمثلاً يعتبر ذكر قوانين نيوتن أو بويل.. الخ، ممارسة غير إسلامية، لأن هذا مساو للشرك فتسمية القوانين بهذا الشكل يعطى الانطباع أن القوانين خُلقت بالعلماء بدلاً من مجرد اكتشافها. (مرجع ١٥)

٦ - يجب إدخال الله فى حصص تعليم العلوم " يجب على مراجعنا العلمية أن تعرض مسألة الوجود الأزلى والآخرة فدراسة هذه المواضيع يجب النظر إليها كدراسات علمية وليس على أنها من الإسلاميات. (مرجع ١٦)

٧ - يجب استعمال كتاب مولانا مودودى " تفهيم القرآن " فى بداية مقرر علم الحيوان للاسترشاد به. (مرجع ١٧)

٨ - يجب إسناد مولد كل العلوم إلى الحقبة الإسلامية فالفيزياء النووية تدّين بجذورها إلى ابن سينا وكيمياء جابر بن حيان إلخ وأما اليونانيون فلا يستحقون أى تقدير فهم لم يعرفوا شيئاً عن العلم التجريبي. (مرجع ١٨)

تستحق توصيات معهد الدراسات السياسية هذه تعليقات موجزين :

أولاً: يجب ملاحظة رفض الفرضية الأساسية للعلم والقاتلة بأن لكل أثر مادي مسبب مادي وبدلاً من القوى الفيزيائية تأتي المشيئة الإلهية المستمرة التي تحرك المادة. ثانياً : لا يوجد فى أى مكان من التوصيات ما يستثير حب الاستطلاع عن الطفل لتنمية ميول التساؤل أو لغرس فكرة أن المرجعية قد تكون على خطأ. ومن وجهة النظر الأصولية فلا لزوم للعلم الحقيقى فى ظل عالمهم المنغلق، الساكن والمقدرة أحواله مسبقاً.

إن موقف الجماعة الإسلامية من العلم والحداثة لهو موقف يميز وجهة النظر الأصولية بصفة عامة. لقد أوضح سيد قطب من الإخوان المسلمين - والذي تم إعدامه مع مجموعة أخرى من الأصوليين فى عهد جمال عبد الناصر فى مصر- رؤيته عن العلم فى كتابه " فى ظلال القرآن " فأرائه تبدو متماثلة مع آراء الجماعة المذكورة وعليه فلا تستدعى مناقشة منفصلة.

تيار إعادة البناء

على النقيض من التيار الأصولي المعارض للعلم والحداثة، يتميز تيار إعادة البناء بمبادئه بإعادة تفسير التراث حتى يتم التوفيق بين متطلبات الحضارة الحديثة، وتعاليم وتقاليد الإسلام. من وجهة نظر هذا الاتجاه فإن الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة كان ثورياً، متقدماً، حراً وعقلانياً، وأما الانحدار التالي نحو الجمود المرذول والعقيدة غير المتفاعلة مع الأحداث فمردها إلى انتصار التقليد على الاجتهاد.

على صعيد شبه القارة الهندية فكان سيد أحمد خان، وسيد أمير علي، من أبرز الرواد الأوائل لهذا التيار

السيد سيد أحمد خان (Sir Syed Ahmed Khan) (١٨١٧-١٨٩٨)

تزعّم سيد أحمد خان محاولة التحول من إسلام العصور الوسطى إلى الإسلام الحديث، في القرن التاسع عشر، وكان لفشل ثورة ١٨٥٧ ضد الإنجليز وما تلاها من جراح للهنود وخاصة الهنود المسلمين، أكبر الأثر في دفعه للبحث عن تفسير جديد للإسلام، ومن بين المفكرين الإسلاميين في الزمن الحديث فيعد أكثرهم راديكالية (أصولية) ومازالت شخصيته تثير الكثير من الجدل بعد مضي قرن من الزمان.

ولد سيد أحمد خان في عائلة أرستقراطية من سلالة المغول وقد اقتنع بضرورة إيجاد علاج جذري إذا كان لمسلمي الهند أن يتحولوا إلى أي شيء له قيمة بدلاً من كونهم مجرد عاملين في الإسطبلات أو طهارة أو خدم وحطابين وسقابين، ومن وجهة نظره، فقد حدث التخلف كنتيجة مباشرة للمعتقدات الخرافية وتفضيل اتباع المقولات التقليدية المتوارثة على العقلانية. على ذلك قام بالإعداد لمهمة إعادة تفسير التراث الإسلامي حتى يتمشى مع الأفكار الإنسانية والعلمية لما بعد النهضة في الغرب ويستخلص الإسلام النقي من المعتقدات المتحجرة . " لم يتركني عقل المتسائل أبداً.... وقد جعلني هذا أصل إلى الحقيقة التي أؤمن بأنها

ذات الإسلام في حين قد يراها المسلمون التقليديون على أنها ذات الكفر".
(مرجع ١٩)

لقد كانت المهمة صعبة لمسلمي الهند، حيث تميزت الفترة التالية لحكم "أكبر" (Akbar) بالتوجه المحافظ، المقاوم للتغيير، وضد العلم والمنطق. يلاحظ أنه في السابق، ومنذ حوالي ٢٠٠ سنة قبل زمن سيد أحمد خان، أصدر الشيخ أحمد سيرهندي وغيره من الرموز الدينية المؤثرة فتاوى ضد الرياضيات والعلوم المدنية، وطالبوا بقصر تعليم المسلمين على المناهج الدينية فقط. ويقول سيد أحمد خان في ثورته على ذلك :

"أسأل الآن، ويتواضع شديد : في أي من الكتب الدينية المختلفة، المتواجدة والمستعملة في التعليم، نجد من يناقش الفلسفة الغربية أو الأمور العلمية الحديثة، مستعملًا مبادئ الدين ؟ من أين يجب أن أبحث عن تأكيد أو رفض لحركة الأرض، أو لمدى قربها من الشمس ؟ إذا ومن الأفضل ألف مرة عدم قراءة هذه الكتب. حقًا، إذا كان للمسلم أن يكون مقاتلاً حقيقيًا ويؤمن بصدق دينه، فدعوه يذهب بلا خوف إلى أرض المعركة، ولينكب على المعرفة الغربية، والبحوث الحديثة، كما فعل أجداده مع الفلسفة اليونانية. فحينها فقط، تصبح للكتب الدينية فائدة حقيقية. ولا فائدة ترجى من مجرد التردد كالبيغاوات. (مرجع ٢٠)

لقد احتلت مهمة التفسير العلمي، أعلى درجات الأهمية لدى سيد أحمد خان بصفته عالمًا دينيًا. في معارضة مذهلة للتقاليد، يقترح إعادة تفسير القرآن حتى يتسنى حذف كل التناقضات الظاهرية مع الحقيقة المادية. وفي استعراضه لتلك النقطة، يطرح جدله بأنه إذا كان القرآن هو كلمة الله، وطالما كانت صحة الحقائق العلمية واضحة، فإن أية تعارض لا بد وأن يكون ظاهريًا وليس حقيقيًا. وعلى ذلك فقد اقترح تفسير القرآن بناء على الأسلوب التالي (مرجع ٢١).

١ - إجراء دراسة عميقة عن معاني واستخدامات وأصل واشتقاقات لغة القرآن حتى يتسنى الوصول إلى المعنى الحقيقي للكلمات والفقرات المعنية.

٢ - إن المقياس المستعمل لتقرير ما إذا كانت بعض الفقرات تحتاج إلى تفسير مجازي، وأى التفسيرات يجب انتقائه، فهو الحقيقة المثبتة بالعلم، ويمكن الوصول إلى هذه الحقيقة بالدليل العقلي المنطقي ويستوجب إيماناً قوياً.

٣ - إذا تعارض المعنى الظاهري للنص مع الاستنتاجات المثبتة، فلا بد من الأخذ بالتفسير المجازي. وهنا يتبع سيد أحمد خان منهج ابن رشد في مسألة التوفيق بين المعقول والمنقول. إلا أنه يرى أن مثل هذه التفسيرات المجازية والاستعارية هي بالضبط ما أراده صاحب النص.

قادت هذه الوسائل بسيد أحمد خان إلى إعادة تفسير جذرى للعقيدة ولـبعض المواقف غير التقليدية المتعلقة ببعض المسائل الكبرى. فعلى سبيل المثال، فهو قد قبل بنظرية داروين، مجادلاً بأن هبوط آدم وحواء كان في الواقع رمزاً للإنسان ليفرق بين الخير والشر وليصبح مكلفاً، بعكس باقى الكائنات الحية. وهو يقترح أيضاً تفسيراً مجازياً للطوفان، ومعجزات المسيح والصعود، وظواهر أخرى رآها تتعارض مع الطبيعة. والقرآن، بالنسبة لسيد أحمد خان، كتاباً للإرشاد الأخلاقي، وليس كتاب للبحث فيه عن المعرفة العلمية.

ولعل أكثر ما أثار اعتراضات المتدينين ضد فلسفات سيد أحمد خان الدينية، هو نظرته إلى الشريعة - وهى النموذج الافتراضى لأسلوب حياة المسلمين - باعتبارها غير ذات صلة بمسلمى الهند الحديثة. وقد قوبلت آرائه تلك بشجب شديد. جدير بالذكر أن سيد أحمد خان لم يحاول أن يضع شريعة جديدة. وعلى رأى وإيام كانتويل سميث (William Cantwell Smith)، أحد المستشرقين البارزين، فإن هذا الهجوم على الجبهة الأمامية للسلطات التقليدية، كان عنصراً لازماً، ولا مفر منه، للتحويل من مجتمع ما قبل الطبقات المتوسطة (ما قبل البرجوازية) إلى مجتمع الطبقات المتوسطة :

"كانت السلطات المعنية فى ذلك الوقت قد بلغت درجة عالية من اللاموضوعية، حيث كانت تتعرض لمسائل وقضايا لا تطرح من أساسه فى المجتمعات الرأسمالية، هذا فى الوقت الذى شاع فيه تجاوز كل النظم الأخلاقية...

أصبح كل فرد في المجتمع مسئولاً بداته وصار عليه أن يتخذ القرارات بنفسه....
رفض السيد سيد أحمد خان الشريعة القديمة، لكن لم يقدم شريعة بديلة عنها، مثله
في هذا مثل الذين جاعوا من بعده، بذلك تلخصت جهوده فقط في إبراز مبادئ
الأخلاقيات العامة في القرآن. (مرجع ٢٢).

بالرغم من توقيير سيد أحمد خان في باكستان باعتباره أول مؤسس للقومية
الإسلامية، إلا أن أرائه فيما يتعلق بالدين والعلم، لم تجد إلا قليلاً من التابعين. وفي
الحقيقة فهو شخصية مثيرة للجدل. فإن إجلاله الدليل للإمبراطورية الإنجليزية
ومواقفه ضد المرأة، لم تقربه إلى قلوب الكثيرين من القوميين والتقدميين. على أية
حال وبلاشك، فهو أهم الشخصيات التي حاولت بناء جسور بين الإسلام والحداثة.

سيد أمير علي ١٨٤٩-١٩٢٤ (Syed Ameer Ali)

تلقى تعليمه في إنجلترا وهو تابع حميم لـ سيد أحمد خان، وقد كتب سيد
أمير علي رائعته الفنية "روح الإسلام" بهدف واضح محدد في ذهنه، ليثبت أن
الإسلام في حقيقته ثوري وعقلاني وتقدمي، صدر الكتاب أولاً في عام ١٨٩١،
ثم أضاف إليه عدة إضافات حتى عام ١٩٢٢، وتكرر طبع الكتاب عدة مرات،
وقراه المسلمون من شتى البقاع. بالنسبة لمسلم من أنصار الحداثة وتعلم في
الغرب، فقد كان كتابه بالفعل عملاً وافياً، قوياً، تصدى به للافتراءات العدوانية
على التاريخ الإسلامي، وصور القيم والعقيدة الإسلامية، التي يرددها معظم
المستشرقين. ولكنه كان عملاً تسبب في كثرة اتهام صاحبه بأنه متعاطف مع أفكار
الغرب الحديثة على حساب الأفكار الإسلامية الحقّة.

تتغلغل أفكار سيد أمير علي - فيما يتعلق بموضوع التقدم العلمي في الإسلام
- في أجزاء كثيرة من كتابه ويمكن تلخيص أرائه كما يلي :

- يُعطى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، قيمة عظيمة للمعرفة.
وتُفهم المعرفة على أنها تتضمن العلم. فقد كان هذا هو الدافع الأساسي
للمسلمين الأوائل لدراسة العلم.

• إن فلسفة أرسطو، والتفكير المنطقي، على وفاق تام مع الإسلام، وحتى المعتزلة، فيمكن التعاطف معهم وإن كانوا قد ذهبوا بعيدا في بعض الأحيان، كما يجب النظر إلى فلاسفة وعلماء المسلمين مثل الكندي والفارابي، وابن سينا، وابن الهيثم، وابن رشد، على أنهم من أبطال الإسلام الحقيقيين.

• تسبب المتطرفون والمتشددون في انهيار العلم والحضارة الإسلامية. ويلقى سيد أمين على بالمسؤولية الأساسية على كل من الأشعرى. وابن حنبل، والغزالي، وابن تيمية.

• يجب استعادة العلم من الغرب إلى الإسلام، فالعلم ليس بغريبا على الإسلام وليس بأى حال من الأحوال غير إسلامي.

طرح سيد أمير على السؤال التالي بلباقة شديدة : لماذا مات العلم والفلسفة بين المسلمين، وخلف محلهما السفسطة واللاعقلانية. وفي رأيه أنه يجب إنقاذ الإسلام من المجددين والأئمة، وتحرير عقل المسلمين من قيود التفسيرات الحرفية. ويستطرد في جدله، فيرى أن الموقف الحالي لا يختلف كثيرا عن أزمة العصور الوسطى في أوروبا، حيث أرسلت الكنيسة بالعديد من الناس إلى النيران بتهمة الهرطقة، وأثبتت بذلك أنها العدو القاتل للعلم، حتى جاءت ثورة لوثر. وهكذا فالإسلام يحتاج إلى إعادة تشكيل كما حدث في المسيحية. في فقرة أثارت عليه بعض زملائه المتدينين، قارن بين ما أسماه " الكنيسة السنية " وبين الكنيسة في روما، ووصف المعتزلة بأنهم نوع من البروتستانتية الإسلامية:

"ساعد الإسلام، وعلى مدى خمسة قرون، على تنمية الثقافة الحرة للبشرية. ولكن جاءت حركة رجعية، وعلى الفور تغير مجرى كل الفكر الإنساني. حيث تقرر أن المنتسجين للعلم والفلسفة خارجين عن حظيرة الإسلام. هل يمكن للـ " كنيسة السنية " أن تأخذ درسا من كنيسة روما ؟ أمن المستحيل عليها أن تتسع بالمثل وتُعدّ جوانبها ؟ فلا يوجد شيء في تعاليم محمد عليه السلام يمنع ذلك. إن البروتستانتية الإسلامية في إحدى صورها - المعتزلة - قد مهدت الطريق. فماذا

لا تتخلص الكنيسة السنية الكبيرة من القيود العتيقة وتنهض لحياة جديدة ؟
(مرجع ٢٣).

اقترن الدفاع الحماسي عن العلم والفلسفة لسيد أحمد خان وسيد أمير على،
بتحرير عام لبعض الأمور ذات الأهمية الاجتماعية. فلقد نبذوا تعدد الزوجات
والحجاب على اعتبار أنهما غير ملائمين للعصر الحديث. كما فسروا الجهاد بمعنى
الحرب الثقافية، وأكدوا أن الرسول قاتل أعدائه فقط من أجل الدفاع عن النفس،
وأن قطع اليد بسبب السرقة، أو الرجم حتى الموت بسبب الزنا كان مناسباً فقط
للمجتمعات القبلية التي تنظر إلى وجود سجون. وهم يعتقدون أيضاً أن القرآن قد
كتب بلغة مناسبة لقوم الصحراء. فإن حوريات الجنة، على سبيل المثال، مخلوقات
مجوسية الأصل، في حين أن الجحيم، مع قسوة عقابه، تلمودي الأصل.

في ظل تصميمهم على العودة إلى الإسلام النقي للرسول، ولإثبات "حادثة"
الإسلام، سار المسلمون من أنصار الحداثة وإعادة البناء على خيط رفيع. ولن
يتضح أبداً بصفة مرضية، ما إذا كانت محاولاتهم لإعادة تفسير الإسلام، كانت
بدافع من إيمان عميق أو بدافع عملي يهتم أساساً بمصير الأمم المسلمة. يبدو أن
قوى متعددة قد تداخلت وتفاعلت مع بعضها في ذات الوقت مثل : الإيمان العميق،
الخوف من الأصولية، الاعتقاد بأن المسلمين محكوم عليهم بالفشل إذا استمر
رفضهم للحضارة الحديثة ونبذهم للتقدم، والرغبة الشديدة في تحسين صورة
الإسلام في عيون الغرب. وترمز جهود سيد أحمد خان لهذه المعركة، فقد انهالت
عليه الأصولية بجام غضبها، حيث قوطعت جامعة إيلجار (Aligarh) الإسلامية
التي أنشأها وصدرت ضده فتاوى الإلحاد والكفر من العديد من الفقهاء، كما وصفه
"مؤلى الكعبة الشريفة" بأنه عدو للإسلام وأحل سفك دمه. وعلى أية حال فإن
دفاعه عن مصالح المسلمين قد أبقى على اسمه للأجيال من بعده.

الخط العملي (البرجماتي)

هناك دليل غامر على أن المسلم البرجماتي (العملي) يمثل الغالبية العظمى
الصامتة من مسلمي اليوم. وهو يفضل أن يتعامل مع متطلبات الدين والعقيدة على

أساس منفصل تمامًا عن الاهتمامات السياسية والاقتصادية، وعن العلم والمعرفة المدنية. كما يقتنع باعتقاد مبهم بعدم وجود تناقض بين الإسلام والحداثة، لكنه لا يميل إلى التعمق في بحث المسألة. ويعتبر انهماك الإصلاحيين في بحثهم عن تفاسير جديدة للقرآن زائدة عن اللازم ولا معنى لها، ومع ذلك فهو يوافق على بعض المسائل الجوهرية مثل معارضة الفكر الأصولي.

ومن الأمثلة المدهشة للخط العملي، نجد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧)، وأعتقد أنه يمكن فهم الكثير عن موقف الإسلام المعاصر من تأثيرات الحداثة الغربية من خلال دراسة الأفغاني كممثل للخط العملي.

يُعتبر الأفغاني مهمًا حيث كانت لأفكاره أعمق الأثر في المسلمين في كفاحهم ضد الاستعمار الغربي. كذلك فإن تأكيده على الإسلام كقوة للكفاح المسلح ضد الاستعمار، مازال مصدرًا لإلهام الأحرار والأصوليين على حد سواء. كما يشار إلى الأفغاني أحيانًا بصفته رائدًا لبعث الإسلام في العالم المعاصر، ويطلق عليه "حكيم الشرق" في بعض الأعمال العربية. على درجة خاصة من الأهمية، تأتي دراسة آرائه عن العلم والحداثة، لأنه على النقيض من أنصار تيار إعادة البناء مثل سيد أحمد خان (الذي كان من معاصريه ومنافسيه)، لم يقدّر الأفغاني بأية محاولة جادة لإعادة تفسير المعتقد الإسلامي. بل على العكس، أبرز الإسلام كقوة موحدة ضد المستعمر الغربي. وتكمن مساهمته الحقيقية في إلهامه لجماهير المسلمين للتصدي لنير الاستعباد الأجنبي، وبث فيهم الإحساس بالغاية والكرامة.

بناءً على ما كتبه المؤرخة نيكى كيدى (Nikki Keddie) (مرجع ٢٤)، فلم يولد الأفغاني في أفغانستان كما يدعى البعض، ولكن في أسدأباد (Asadabad) في إيران، وتأثر كثيرًا خلال السنوات الأولى في تعليمه بأعمال فلاسفة الإسلام العقلانيين مثل ابن سينا، رغم أن هذه الأعمال كانت محظورة في معظم العالم السني باعتبارها من البدع. ولم يكن مستغربًا أن تثير آراء الأفغاني المعروف بميوله الشديدة نحو التراث العقلاني، كثيرًا من عدم الارتياح لدى الأصوليين. وفي عام ١٨٧٠ تم إبعاد الأفغاني من إسطنبول تحت ضغط رجال الدين. وأما جريمته

فكانت تأييد "دار الفنون"، وهى فى ذلك الحين جامعة جديدة مكرسة لتعليم العلم الحديث.

لاشك فى أن الأفغانى كان مفتوناً بشدة بقوة العلم الحديث وكان شديد الرغبة فى التعرف على أسرار قوة الغرب. وفى محاضرة ألقاها فى كلكتا فى عام ١٨٨٢ يقول :

"إذا أنا أقول، إذا تمنع الإنسان فى السؤال، سبرى أن العلم يحكم العالم. فلم يوجد حاكم فى العالم، لا بالأمس، ولا اليوم ولا فى المستقبل، إلا العلم.... أن فوائد العلم لا تحصى، ولا تقاس، وأن هذه الأفكار المحدودة لا يمكنها أن تحيط باللانهاى. (مرجع ٢٥).

ويقول أيضاً، إن الإسلام أتى معه بروح التساؤل :

"لم يكن لدى المسلمين الأوائل أى علم، ولكن بفضل العقيدة الإسلامية، ظهرت الروح الفلسفية من بينهم.... لهذا، وفى وقت قصير، اكتسبوا كل العلوم فى مختلف المواضيع التى تُرجموها من السريانية والفارسية واليونانية إلى اللغة العربية، فى زمن المنصور دافاناقي (Mansur Davanaqi) ". (مرجع ٢٦)

فى نفس المحاضرة، راح الأفغانى يتأسف على حال المسلمين المعاصرين، الذين استخفوا بالفلسفة والآداب والمنطق والعلوم. هذا فى الوقت الذى بحث فيه المسلمون الأوائل، وبكل حماس، عن العلم وعن المعرفة، حتى أصبح الركود التام سمة المسلمين المعاصرين.. كذلك أطلق هجوماً لاذعاً على فقهاء الهند قائلاً:

"من الغريب أن يقرأ فقهاؤنا الـ "سُدرة" (Sadra) و"شمس البرية" (Shams Al-Baria) ويصفون أنفسهم بزهر بأنهم حكماء، وهم - برغم ذلك - لا يستطيعون التفرقة بين يدهم اليمنى واليسرى، ولا يتساءلون "من نحن؟ وما الذى يناسبنا؟. لم يتساءلوا يوماً عن الكهرباء أو المراكب البخارية أو السكك الحديدية... إن فقهاؤنا الآن، كمثل فتيلة رفيعة، تحمل لها خافتاً جداً، لا يضىء حوله ولا ينبير الطريق للآخرين.. أما أعجب الأمور جميعاً، فهو أنهم قسموا العلم

إلى قسمين الأول يسمونه علما إسلاميًا، والآخر يسمونه علما أوروبيًا. ولهذا يمنعون الآخرين من تحصيل بعض العلوم النافعة " (مرجع ٢٧)

لا يظهر الجانب العملي (البرجماتي) لجمال الدين الأفغاني، أكثر مما تبينه الحوارات التي دارت بينه وبين إرنست رنيان (Ernest Renan) الفرنسي المسلم المشهور في القرن التاسع عشر. وبلا شك، تُعد هذه الحوارات بمثابة علامة على الطريق، حيث إنها جرت بين بطل إسلامي متحمس للأسباب الإسلامية، ورجل غربي عرف عنه إلحاده ومعاد لكل المعتقدات. ولكن كما تشير المؤرخة كيدي، تم تشويه هذا الحوار في العالم الإسلامي. فيفترض أنه طالما قال رنيان إن الإسلام معاد للعلم، فلا بد أن يكون الأفغاني قد رد بسرعة بكون الإسلام صديقًا للروح العلمية، وهذا خطأ، فقد أظهرت الترجمات الحديثة لأوراق الأفغاني، أنه كان يظهر بوجه معين أمام الجماهير الإسلامية، ولكن بوجه آخر أمام الغرب.

بدأ الحوار المشهور، في مارس ١٨٨٣، حيث ألقى إرنست رنيان محاضرة عن الإسلام والعلم، نُشرت بعدها في "مجلة الحوارات" *Journal des Debats*. وفيها، قام بتجريح كل المعتقدات، إلا أنه اختص الإسلام بالقدر الأعظم، لأنه، من وجهة نظره، لم يفصل بين الميدانين، الروحي، والدنيوي وقد جعل هذا من العقيدة الإسلامية أنقل الأغلال التي حملتها البشرية". (مرجع ٢٨).

وفي مقال لاحق، أبدى وجهة نظر قوية أخرى :

"يجب تحرير العقل الإنساني من كل المعتقدات المتجاوزة للطبيعية (Supernatural). إذا أريد له أن يؤدي عمله الأساسي، وهو بناء علم إيجابي. لا يحتم ذلك بالضرورة، التدمير العنيف ولا القطيعة الجافة. فليس على المسيحيين أن يهجروا مسيحيتهم، ولا على المسلمين هجر الإسلام، وعلى القطاعات المستتيرة من المسيحيين والمسلمين الوصول إلى حالة عدم الاختلاف ودبا، بحيث تصبح المعتقدات الدينية غير مؤذية. وقد حدث ذلك في حوالى نصف الدول المسيحية، ودعونا نأمل أن يحدث هذا أيضًا في الإسلام" (مرجع ٢٩)

هل رد الأفغانى بروح الغضب على هذا الاعتداء السافر؟ وهو بالتأكيد ما كان
الكل يتوقعه منه، ولكن لا ! فى الواقع وعلى العكس تمامًا فقد وافق الأفغانى على
تلك الجزئية من جدل رينان قائلاً:

"كل الأديان غير سمحة وكل بطريقته... ولا أستطيع أن أكف عن الأمل فى
أن ينجح المجتمع الإسلامى يوماً، فى كسر قيوده وأن يسير بثبات فى طريق
التمدن والحضارة كما فعل المجتمع الغربى... وأنا أناشد السيد رينان فهى ليست
قضية العقيدة الإسلامية وحدها، ولكنها قضية عدة مئات من ملايين البشر الذين قد
يحكم عليهم بالحياة فى جهل وهمجية، فى الحقيقة فإن العقيدة الإسلامية حاولت
خلق العلم ووقف تقدمه ". (مرجع ٣٠)

لم يكن هناك خلاف جزئى بين الأفغانى ورينان حول مسألة أن العقيدة
العمياء تنقل العلم والتساؤل. وفى الواقع، فهو يردد نفس الأفكار :

"لابد للمؤمن الحق، أن يبتعد فى دراساته عن أى مسار، يكون هدفه فى
النهاية الحقيقة العلمية... مشدود إلى العقيدة، كما يربط الثور إلى المحراث فيصير
عبدها، وعليه أن يسير إلى الأبد فى الأخدود الذى أعد له مسبقاً بواسطة مفسرى
القانون. إضافة إلى ذلك، فبإقتناعه باشمالها، فى ذاتها، على كل الأخلاقيات
والعلوم، يربط نفسه إليها بثبات وعزم، ولا يبذل أى جهد ليذهب أبعد من ذلك...
فما فائدة البحث عن الحقيقة إذا كان مؤمناً بامتلاكه لها كلها ؟... وعلى ذلك فهو
يحترق العلم ". (مرجع ٣١)

هناك مزاعم بأن الخطاب الموجه إلى رينان، لم يكتبه جمال الدين الأفغانى،
بل بواسطة أفغانى آخر، كذلك طُرِح احتمال أن الرسائل شخصاً مجهولاً أراد تشويه
سمعة الأفغانى. ولكن هذا يبدو قليل الاحتمال لأن خطاب الأفغانى إلى رينان، أثار
عداءاً وجدلاً شديداً بين شباب المسلمين فى باريس، وكان الأفغانى على دراية بذلك
بكل تأكيد، ولكنه لم ينكر الخطاب. ومن المعروف كذلك أنه رفض طلباً لتابعه
الشيخ محمد عبده لإعادة نشره فى مصر.

ربما كان متوقعًا أن يكون السيد جمال الأفغانى والسيد أحمد خان حلفاء، ولو إلى درجة ما، حيث إن كلاهما كان من أنصار الحداثة والعقلانية، ولكن على النقيض، فالأفغانى كان عدوًا مشهورًا للسيد أحمد، وقد اتهمه كثيرًا بالهرطقة والانحراف عن الإسلام. يشن الأفغانى هجومًا كاسحًا فى إحدى مقالاته:

"... فاتفق أن رجلاً اسمه أحمد خان بهادور (Ahmed Khan Bahadur) كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة منهم، فعرض نفسه عليهم وخطا بعض خطوات لخلع دينه والتكين بالمذهب الإنجليزى، وبدأ سيره بكتابة كتاب يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم... فراق لحكام الإنجليز مشربه ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين، فآخذوا فى تعزيزه وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة فى أليجار وسموها مدرسة المحمديين، لتكون فخاً يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل. وكتب أحمد خان تفسيرًا على القرآن فحرف الكلم عن مواضعه، وبذل ما أنزل الله.... وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة"^١ (مرجع ٣٢)

لعله يكون واضحًا الآن للقارئ لماذا يجب على الفرد أن يعتبر جمال الدين الأفغانى عملياً (برجماتياً) من الطراز الأول. وليس لنا أن نحكم على حقيقة إيمانه كمسلم، ولكن الكم الهائل من الأدلة المتوفرة، تشير إلى أنه كان بعيدًا عن الأصولية فى معتقداته. كان واعياً بقوة العلم الحديث. كما أدرك أن تقدمه كان مختنقًا بالأصولية الموجودة أيامها ولكنه كرجل عملى فلم يطلق مدافعه على الفقهاء فى المقام الأول، على العكس، فقد استعمل الرمزية الدينية على أوسع نطاق، كلما كان ذلك فى خدمة أغراضه السياسية فكما رأينا فى الفقرة المقتبسة السابقة، فقد اختار أن يهاجم سيد أحمد خان مستعملًا لغة الأصوليين. والسبب فى ذلك واضح: ففى منظوره إن أى متعاون مع الإمبراطورية الإنجليزية، خائن حقير وتجوز مهاجمته

^١ تحقيق المترجم من كتاب "العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى" إصدار دار العرب للبستانى، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩٢ ص ٣٨٣-٣٨٤. (المترجم)

بأى وسيلة متاحة ولقد كانت مهاجمة السيد أحمد خاں بالزندقة وسيلة فعالة لذلك، وضمنت للأفغانى الحصول على دعم الفقهاء الهندود الأصوليين، المعارضين للإنجليز.

ولعل الأفغانى كان أول برجماتى كبير من المعاصرين الذين عرفوا القوة الهائلة للوجدان الدينى وقدرتها على تحريك الجماهير. فأما غيره، فلم يستغلوا الدين كقوة سياسية، مؤكدين بدلاً عن ذلك على فصل الدين عن الحياة الاقتصادية والسياسية، ولعل أبرز أمثلة العمليين تتمثل فى تركيا وأتاتورك. وجدير بالذكر أن أحد الشعارات الرسمية، ابتكره ضياء جوكالب (Zia Gokalp) أيام الثورة التركية حيث يقول " أنتمى للدولة التركية، والديانة الإسلامية، والحضارة الأوروبية ".

الخلاصة:

لقد شهدت فترة ما بعد الاستعمار ظهور عدد من البرجمائين كزعماء شعبيين فى العالم الإسلامى. وكان من بين هؤلاء، ممن دعوا شعوبهم للحركة والعمل بدلاً من مجرد الإعجاب بالإسلام، كل من : محمد على جناح، وجمال عبد الناصر، وأحمد سوكارنو، والحبيب بورقيبة، وذو الفقار على بوتو، وحتى صدام حسين. ورغم أن تصاعد التوجهات الإصلاحية، المنادية بإعادة البناء، تبدو الأكثر وضوحاً فى الإسلام المعاصر، فإن المسلمين العمليين ما زالوا يمثلون الأغلبية. إن فشل الأحزاب الأصولية فى الانتخابات فى العديد من الدول الإسلامية، يشير بقوة إلى أنه فى حالة وجود بدائل، فإن غالبية المسلمين لن يقبلوا بالإشكال الأصولية للعقيدة.

وعلى أية الأحوال فيستحيل إخفاء حقيقة أن كلا من قدرة ورغبة المجتمعات الإسلامية، على قبول تحديات الحداثة، قد ضعفت وتآكلت فى القرن الماضى. وإن مستقبل العلم والحضارة فى الإسلام مرهون إلى حد كبير بما إذا كانت الأغلبية الصامتة ستستعيد نفقها وتتزعزع التحكم فى المجتمع المدنى، أم أنها ستنتشى وتتعرش أمام الهجوم الضارى للتيارات المتجددة لإعادة إحياء التراث.

- 1- An interesting and detailed discussion of Islam and modernity from an Islamic modernist point of view is given by Ghulam Nabi Saqib in *Modernization of Muslim Education*, (Lahore, Islamic Book Service, 1983).
- 2- Daniel Lerner, *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East*, (Illinois, Free Press of Glencoe, 1958), p. 199.
- 3- Manfred Halpern, *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa*, (New Jersey, Princeton University Press), p. 25.
- 4- William Montgomery Watt, quoted in Ref.1 above.
- 5- Edward W. Said, *Orientalism*, (New York, Vintage Books, 1979)
- 6- Maryam Jameelah, *Islam and Modernism*, (Lahore, Muhammad Yousuf Khan Publisher, 1977), pp. 16-17.
- 7- Maryam Jameelah, *Modern Technology and the Dehumanization of Man*, (Lahore, El-Matbaat-ul-Arabi, 1983), p. 8.
- 8- Ibid.
- 9- Abul Ala Maudoodi, *Taalimat*, (Lahore, Islamic Publishers, N. d.) p. 20.

- 10- Ibid.
- 11- Planning Curricula for Natural Sciences: The Islamic Perspective, (Islamabad, Institute of Policy Studies, 1983), p. 8.
- 12- Ibid. p. 10.
- 13- Kimiya Ki Tadrees Ka Nazriati Pehloo, (Islamabad, Institute of Policy Studies, 1982), p. 27.
- 14- Ibid. p. 10.
- 15- Ibid. p. 27.
- 16- 'Knowledge For What?', Proceedings of the Seminar on the Islamization of Knowledge, Islamic University, Islamabad, 1982, p. 73.
- 17- See Ref. 13, p. 65.
- 18- See Ref. 11, p. 31.
- 19- Syed Ahmed Khan, Tasnif-e-Ahmadia, Vol.1, (Aligarh, 1983), p. 2.
- 20- Syed Ahmed Khan, Maaqulat-e-Sir Syed, Vol. 1, (Lahore, Majlis-e Taraqi-e-Adab, 1962), pp. 97-8.
- 21- C. W. Troll, Sayyid Ahmad Khan, A reinterpretation of Muslim Theology, (Karachi, Oxford University Press, 1978), pp. 168-70.
- 22- William Cantwell Smith, Modern Islam in India, (Lahore, Shaikh Muhammed Ashraf, 1963), p. 70.

- 23- Syed Ameer Ali, *The Spirit of Islam*, (Karachi, Pakistan Publishing House, 1976), p. 454.
- 24- The authoritative work on Syed Jamaluddin's political and religious views is by Nikki R. Kiddie, *An Islamic Response to Imperialism*, (Berkeley, University of California Press, 1983), Most of the comments on Afghani in this section are derived from Keddie, and from Afghani's original writings which are contained in its Appendix.
- 25- Ibid., p. 102.
- 26- Ibid., p. 103.
- 27- Ibid., pp. 106-7.
- 28- Ernest Renan, *L'Islamisme wt la science*, (Paris, 1883), P. 17, quoted in Keddie, op. cit., p. 85.
- 29- Ernest Renan, *Ouvres completes*, 1, (Paris, 1947), pp. 960-5, quoted in Keddie, op. cit., p. 93.
- 30- Syed Jamaluddin Afghani in 'Reponse de Jamal ad-Din al-Afghani a Renan', Quoted in Keddie, op. cit., p. 86.
- 31- Ibid., p. 87.
- 32- Syed Jamaluddin Ahmed, 'The Materialists in India', Published in *al-Urwa al-Wuthqa*, August 28, 1884, quoted in Keddie, op. cit., pp. 176-7.

الفصل السادس

ثلاثة ممثلين للعالم الإسلامي : بوكاي، نصر وسادار

تدور الأصولية فى أساسها حول ظاهرة الوحي التى تحدث مرة ولا تحدث ثانية إلى الأبد، تتساوى فى ذلك الهندوسية، والمسيحية، واليهودية، والإسلام. يترتب على ذلك أن تصبح آفاق المعرفة محدودة بما أنزله الله من وحي فى السابق. يرى الأصوليون استحالة زيادة المعرفة الا من خلال الوصول إلى تفسيرات جديدة للأوامر الإلهية. كذلك كثيرًا ما يزعم الأصوليون أن كل الاكتشافات الكبيرة فى العلم الحديث، قد نص عليها، وتم توقعها ضمن نصوص معتقدتهم المقدسة. إذ يقولون اقرأ النص بعناية وستجدها مذكورة هناك، فإذا لم تجدها، فإما إنك لم تقرأ النص بالعناية الكافية، وإما فإن ما يقال أنه حقيقة علمية هو فى الواقع خطأ أكيد. لا بد من مقارنة هذا النوع من المنطق بمثله لدى المؤمنين العاديين، الذين لا يرون بصفة عامة أى تناقض بين أية معرفة جديدة وبين النص الإلهي، كما أن بعض المعرفة الجديدة قد يدعم المعتقد القديم.

يلاحظ أن المزاعم والحجج التى يستعملها الأصوليون، لا علاقة لها بديانة معينة. أقتبس على سبيل المثال شيئاً من كتاب نشر حديثاً، عن العلوم فى الهند القديمة (مرجع ١). من الواضح أن المؤلف شخص مؤمن ومتحمس لعقيدته الهندوسية، ومؤمن بتفوقها، فهو يطلب من القارئ أن يتأمل النص ١٦-٢ من الـ بهاجافاد جيتا^١ (Bhagavad Gita) الذى يقول ما معناه "لا يمكن إيجاد ما هو غير موجود، ولا يمكن إفناء الموجود. ثم يعلن المؤلف بكل فخر، أن أحد الأعمدة الأساسية للفيزياء الحديثة (يعنى قانون بقاء المادة والطاقة)^٢ - كان معروفاً للقدماء

^١ تعتبر الـ بهاجافاد جيتا بمثابة نصوص الكتاب المقدس للديانة الهندوسية، كتبت منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة، تتكون من حوارات مباشرة بين الإنسان والله المتجسد فى هيئة إنسان آخر. (المترجم)

^٢ بقاء المادة والطاقة : المادة لا تفنى ولا تسدّ نث من العدم. (المترجم)

منذ آلاف السنين. على ذلك تتأكد الطبيعة الإلهية للـ جيتا، وبثبت عدم إضافة شيء جديد إلى رصيد الحكمة الإنسانية منذ وضعت النصوص المقدسة.

وهناك أمثلة هندية أخرى، فقد وصف بعض الهندوس الأصوليون الرؤية الفيدية¹ (من الأصل فيدا، Veda) لخلق الكون من "المادة الأولية" المعروفة لهم باسم براكريتي (Prakriti) عبر عدة كالبا² (Kalpas)، وتوصلوا إلى الخلاصة السعيدة بأن هذا بالضبط ما تقوله الفيزياء الحديثة ونظرية الانفجار الكبير. (Big Bang) لبداية الكون. بعض الهندوس الأصوليون الآخرون، يرى أن قوانين "مانو"³ (Manu) ما هي إلا حقائق فيزيائية، ويجادلون بأن الاختلاف في المواد المختلفة ينشأ بسبب اختلاف كميات الـ جونا (Gunas) (بمعنى النوعية) والـ تانماترا (Tanmatras) (الحالات المطفة)، المتواجدة في كل مادة. كذلك هناك من غمرهم الرضاء، حيث ثبتت لديهم مسألة تناسخ الأرواح كحقيقة علمية، فقد اختاروا تصديق أقوال بعض العاملين في مجال متشابه مع مجال علم النفس (علم نفس الظواهر الخارقة، Parapsychologists) الذين يدعون أن لديهم دليل على فقد الجسم فجأة لحوالي ٥٠ جراماً عند الوفاة. وفي رأيهم أن هذا دليل قاطع على ترك الروح للجسد، استعداداً لمولد كائن آخر في مكان ما، جدير بالذكر أن جميع هذه المزاعم، ثبت عدم إمكانية التحقق منها، إما لكونها غير قابلة للتكرار، أو أنها فشلت عند محاولة إخضاعها للاختبار الدقيق. وبناء على ذلك فقد رفضت برمتها من قبل العلماء.

¹ الأصل فيدا Veda جزء من الكتب المقدسة للبوذية والهندوسية. والكلمة معناها المعرفة أو الحكمة. (المترجم)

² الـ كالبا تمثل المراحل الزمنية التي يمر بها الوجود حسب الديانة البوذية، وتتكون بعضها من حوالي ١٦ مليون سنة. كما يمكن تقسيمها إلى أجزاء أصغر. (المترجم)

³ قوانين مانو، في الديانة الهندوسية تمثل الأحكام التي ترشد الإنسان والمجتمعات في مسيرة الحياة، وهي من وضع الإنسان ولا تعتبر بمثابة كائن الله. (المترجم)

يستطيع الإنسان أن يجد أعدادًا كبيرة من هذه الأمثلة المشبوهة، ولكن نظرًا لأهميتها كمثلة لنوعية الجدل الأصولي، فأود الرجوع إلى المثال الأول المطروح عاليه لأفحصه عن قرب. هناك سؤالان يجب سؤالهما. أولاً، هل النص المقدس "لا يمكن إيجاد ما هو موجود ولا يمكن إفناء الموجود" نص صحيح؟ ثانيًا: هل تقام بذلك الحجة على اتهام قانون الفيزياء الحديثة ببقاء المادة والطاقة، واعتباره ادعاءً زائفاً؟.

الإجابة على السؤال الأول هي "من الجائز". فالأمر برمته مرهون بكيفية تفسير كلمة "موجود". خذ، مثلاً قصاصة ورق واحرقها في النار من الواضح لنتهاء وجودها كقطعة ورق بعد حرقها. وللإنسان أن يجادل، بأن الأصل في وجود الورقة هي الذرات المكونة لها، وأما عملية الحرق فلا تفعل أكثر من تحويل الورقة إلى غازات، في حين تبقى الذرات الأصلية على حالتها الأولى. على ذلك فبشرط حسن وملئمة التفسير، فلا تعارض بين جيتا ٢-١٦ وبين التجربة. وبأسلوب آخر يتميز النص المتعلق بتفسير الوجود بدرجة عالية من عدم الوضوح والدقة، مما يجعل نقضه مستحيلًا.

وأما إجابة السؤال الثاني فهي "لا، بكل تأكيد" فلا يوجد فيزيائي واحد له أي قدر من الأهمية يقبل بالـ جيتا ٢-١٦ كنص سليم لأي قانون فيزيائي بالرغم من أن بعض الفيزيائيين قد يؤمنون بأن النص يجسد بعض التعاليم السابقة لما بعد الطبيعية (Metaphysical). يا ترى هل تشير نصوص الـ جيتا ٢-١٦ إلى الأرواح؟ أم إلى الأفكار؟، أم إلى ماذا؟ لم يستطع أحد على الإطلاق استعمال ذلك النص في أي شيء له أي علاقة بالفيزياء. فالفيزياء الحديثة محددة جدًا. ولا تحتل النصوص غير المحددة أو المبهمة، فكل نص له قيمة بالنسبة للفيزياء، لا بد أن يكون قابلاً للتحقق وقابلًا للقياس الكمي. يقف نص "المادة والطاقة لا يفتيان ولا يستحدثان من العدم" عاجزًا وبلا أي فائدة، ما لم توجد طرق واضحة متاحة لقياس كتلة المادة بجانب تعريف واضح لمفهوم كنه الطاقة، ووسيلة لقياس معدلات إشعاعها أو إنتاجها فإذا لم يكن لدينا وسيلة دقيقة ورياضية لحساب وتوثيق هذه

الكميات، فإن أى مقولة تحاول الربط بينهم يمكن أن تعنى أموراً مختلفة جداً وكثيرة بحيث تصبح بلا فائدة للفيزيائيين. بأسلوب آخر فإن المقولات الهلامية غير المحددة مثل " لا يمكن إيجاد ما هو غير موجود" التى لا تتوقع شيئاً ولا تنتبأ بشيء، فلا يمكن باستعمالها أن نتوقع حدوث أى ظاهرة فيزيائية أو بناء آلات جديدة أو اقتراح أية تجارب جديدة. من البديهي أنه متى تم التعرف على شيء وتحديد كحقيقة علمية فمن الممكن دائماً بشيء من التفسير والتأويل، العمل على إعادة تشكيل مفهوم أحد النصوص المقدسة أو غيره ليعطى فى النهاية المعنى المناسب.

تؤدى أحيانا الرغبة الشديدة فى إرجاع كل نواحى العلم إلى مختلف النصوص الدينية، إلى الاضطرار للقيام ببعض التمارين العقلية الطريفة. فها هو ذا، ج.ف. نارليكار (J.V.Narlikar) الفلكى الهندى المحترم يسجل ما حدث فى الوقت الذى شاعت فيه نظرية خلق الكون فى حالة ثابتة مع الزمن¹ (Steady state theory of creation) حيث قام رجال الدين الهندوس بجمع أدلة نصية مقدسة عديدة لإظهار التوافق الكامل بين النظرية ونصوص الـ "فيدا" المقدسة. على أية حال لم تصمد النظرية طويلاً وتم الاستغناء عنها وحلت محلها نظرية الانفجار الكبير. وبلا أى شعور بالخل أو الهزيمة، سرعان ما وجد رجال الدين الأصوليون عبارات أخرى من الفيدا تتماشى مع نظرية الخلق الجديدة ليعلنوها مرة أخرى بكل زهو واعتزاز باعتبارها انتصار آخر للحكمة القديمة.

حاول بعض المفسرين والمؤولين للقرآن الكريم القيام بمحاولات مشابهة لما سبق ومن أبرز هؤلاء وأكثرهم شهرة نجد موريس بوكاي (Maurice Bucaille).

¹ نظرية خلق الكون فى حالة ثابتة مع الزمن أى خلق الله الكون على حالته هذه منذ الأزل. (المترجم)

موريس بوكاي

الأستاذ بوكاي طبيب جراح فرنسي تحول إلى الروحانيات وبزغ في سماء العالم الإسلامي بتفسيراته التي ضمنها في كتابه " الإنجيل والقرآن والعلم " (The Bible the Qur'an and Science) وقد تُرجم الكتاب إلى عدة لغات وطُبعت منه مئات الآلاف من النسخ، كما وُزعت أعداد كبيرة منه مجاناً عن طريق المنظمات الدينية الإسلامية من مختلف أنحاء العالم. وهو السلاح المفضل لدى الدعاة إلى الإسلام، حيث كانوا يوزعون في المطارات كما يوزعونه في حرم الجامعة الأمريكية أمّلين من خلاله إلى تحويل الناس إلى الإسلام، ومعظم من قابلتهم من المثقفين المسلمين، إما قرعوه أو على الأقل سمعوا به. وأما عن المؤلف فإن شهرته لا تجارى ولعل للون بشرته البيضاء بصفته "خواجة" دخل في سبب شهرته. خاصة في ظل رواسب زمن الاستعمار. على أية حال، راجت سوق الأستاذ بوكاي وزاد الطلب عليه في المؤتمرات مثل " المؤتمر الدولي الأول للمعجزات العلمية في القرآن والسنة"، حيث قامت الهيئة التنظيمية بتكريمه ومنحه شرف رئاسة بعض الأنشطة بالمؤتمر.

يتسم أسلوب بوكاي بالبساطة، فهو يطلب أولاً من القارئ أن يتمعن في إحدى الآيات القرآنية، ثم يستعرض المعاني المختلفة التي قد يحتملها نص الآية، وينتقى من بينها التفسير الذي يتوافق مع بعض الحقائق العلمية. ويستخلص من ذلك، أنه على عكس الإنجيل الذي كثيراً ما يخطئ في وصف الظواهر الطبيعية، فالقرآن دائماً على حق، كما أنه قد تنبأ بكل الاكتشافات الكبيرة للعلم الحديث. ومن هنا يبدأ في سرد عدد لا بأس به من الأمثلة القرآنية المختلفة، المتعلقة بأمور شتى مثل النحل، والعناكب، والطيور، وبعض النباتات والخضروات، واللبن، والأجنة، والتكاثر البشري. وأما استعراضه للجماد فيتراوح من كواكب المجموعة الشمسية إلى المجرات وما بين النجوم، وتعدد الكون وغزو الفضاء. وفي نهاية عرضه لكل جزئية يصل إلى استنتاج أن التوافق المدهش بين الوحي القرآني والحقائق العلمية إنما هو دليل قاطع على طبيعته الإعجازية.

فى الوقت الذى يبدو فيه الأستاذ بوكاى راضياً تماماً عن أسلوبه فإن المسلمين المغرمين بمزج المنطق بالإيمان، يلاحظون بسهولة وجود مفارقتين أساسيتين بالرغم من قبولهم للطبيعة الإلهية للقرآن.

أولاً: يلاحظ أن الدليل على صحة فرضية معينة لا يصح إلا باستعراض وبحث احتمالات خطئها ومناقشتها، فلا معنى للبدء بإقرار أن مجموع زوايا المثلث يساوى ١٨٠ درجة ثم السعى بعد ذلك لمحاولة إثباته. فطالما يؤمن المؤمنون باستحالة وجود أى خطأ فى القرآن بأى طريقة كانت، فكل المحاولات الهادفة لإثبات طبيعته الإلهية فهى محاولة مغرضة من الأساس.

ثانياً: من الخطورة بمكان تعليق الإيمان بالحقيقة الأزلية، بنظريات العلم المتغيرة فمفهومنا للكون قد يتغير جذرياً مع الوقت، كما أن العلم لا يستحى من هجر نظرياته القديمة واعتناق ما هو أحدث. أليس مثيراً للخراب، إرساء المسألة العقائدية على مثل تلك الرمال المتحركة ؟

نلقى نظرة إلى ما يلى: يزعم الأستاذ بوكاى أنه اكتشف أن القرآن يتحدث عن الكون الذى يتمدد باستمرار. ودعونا - مؤقتاً - نتجاوز عن الواقع المعروف بأن المشاهدات والدراسات الفلكية أثبتت حقيقة ظاهرة تمدد الكون قبل الاكتشاف المزعوم المفاجئ بأنها حقيقة دينية معروفة منذ أمد بعيد، وبدلاً من ذلك دعونا نتساءل عما يمكن حدوثه إذا دلت نتائج دراسات فلكية أحدث على أن الكون أخذ فى الانكماش بدلاً من التمدد. فى واقع الأمر فإن بعض علماء الفلك يعتقدون بأن هذا سيحدث بالتأكيد بعد مرور فترة زمنية ما، قد تمتد إلى بضعة بلايين من السنين، حينها سيتوقف الكون عن التمدد ويأخذ فى الانكماش. فإذا أخذنا بالاحتمال البعيد، واستمرت الحياة كما نعرفها اليوم إلى ذلك المستقبل البعيد فيا ترى ماذا ستكون الاختيارات المتاحة لأحد أنصار الأستاذ بوكاى حين يواجه بالكون الآخذ فى الانكماش. لعله سيفرض الأدلة الفلكية مفضلاً ما يعتقد بأنه حقيقة دينية. وعلى الأرجح فإنه قد يكتشف فروغاً لم تكتشف بعد فى اللغة العربية تكفى لإقناعه بأن التفسيرات السابقة قد جانبها الصواب، ثم يجد نصاً آخر أكثر ملائمة ليتوافق مع

الحقائق الجديدة. يلاحظ في كتاب بوكاي، عدم وجود أية توقع - ولو واحد - لأي حقيقة فيزيائية غير معلومة بالفعل، ويمكن ملاحظتها واختبارها في المستقبل.

إن المحاولات المتشبهة بالعلم والتي تشمل الأمثلة السابقة الساعية إلى استخلاص علوم فيزيائية من القرآن، قد أدينت بشجاعة وقوة من قبل بعض المسلمين المعاصرين العظماء. حيث توجد وجهات نظر معارضة تمامًا للأفكار الأصولية المشابهة لأفكار بوكاي. فهناك مثلاً أعمال الأستاذ أحمد خان، مؤسس جامعة أليجار بالهند. ويعتقد السيد أحمد خان بعقم أسلوب النظر إلى القرآن باعتباره عملاً علمياً. وقد كرس جزءاً كبيراً من أعماله بصفته عالماً دينياً لحل الالتباس الواقع بين ما يعتبره الرسالة الأساسية للقرآن وبين بعض المعتقدات الزائفة والمربكة للآراء الفلكية اليونانية. وبرغم أنه من المؤمنين بأن القرآن منزل من لدن الإله، إلا أنه يرى أن جميع المحاولات الهادفة لاستخلاص الحقائق العلمية من القرآن قد جانبها الصواب. وقد كتب في ذلك يقول:

”لم يثبت القرآن أن الأرض ثابتة لا تتحرك، ولم يثبت أيضاً أنها تتحرك. وبالمثل فلا يمكن بالقرآن إثبات أن الشمس ثابتة. فلم تكن هذه المشاكل من بين اهتمامات القرآن حيث ترك تقدير تلك المسائل للتقدم المعرفي للإنسان.... الهدف الحقيقي للدين هو الحث على الفضيلة... وأنا مقتنع تماماً باستحالة تعارض فعل الله مع كلمة الله. فقد نخطئ أحياناً في فهمنا لمعنى كلمات الله من خلال خطأ في معرفتنا. (مرجع ٢)

نصل إلى النقطة الأساسية في حديثه حيث يقول: ”الهدف الحقيقي للدين هو الحث على الفضيلة“. دع إثبات الحقائق العلمية يخضع للملاحظة والتجربة وليس لمحاولات تفسير النص الديني، كما لو كان كتاباً في العلوم. لقد استطاع أحمد خان بتفسيره للمعتقدات بهذا الوضوح، إضافة إلى دوره المعروف كمدافع عن الإسلام في أيام الاحتلال الإنجليزي للهند، أن يقدم من خلال فلسفته العقلانية، تريباً ناجعاً لعلاج الجرائم المختلفة التي بثها بوكاي وانتشرت على نطاق واسع في العالم الإسلامي المعاصر.

الأستاذ حسين نصر Seyed Hossein Nasr

فى خضم الجدل القائم حول مدى توافق الإسلام والعلم، تبرز حجة المسلمين المعاصرين القائلة بأن الإسلام بلا شك لا يتعارض مع، بل يدعم العلم. بدليل نمو العلم وازدهاره فى الأراضى الإسلامية على مدى ما يقرب من الخمسمائة عام. لم تسلم هذه الحجة من اعتراضات العلماء الأصوليين ولعل الأستاذ حسين نصر من أكثر هؤلاء حنكة وتأثيراً وبلاغة.

جدير بالذكر أن السيد حسين نصر، إيرانى شيعى بالمولد، تلقى تعليمه الأولى فى إيران ثم ارتحل إلى الولايات المتحدة للدراسة التأهيلية فى الفيزياء من معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا (Massachusetts Institute of Technology)، ثم حصل على الدكتوراه فى التاريخ من جامعة هارفارد. نال شهرته الواسعة عن جدارة كعالم من علماء تاريخ العلم الإسلامى من خلال العدد الكبير لمؤلفاته المثيرة للإعجاب فى هذا المجال. لا يرجع السبب فى نجاح كتاباته إلى الآراء التى يطرحها، بل إلى براعته الفائقة والوضوح البالغ فى أسلوب عرضه للأمور. هذا الأسلوب البلاغى السلس، جعله من أكثر المؤرخين المسلمين فى مجال تاريخ العلوم تواصلاً مع القراء وتأثيراً فيهم. ولعل مكانته كانت ستزداد لولا توليه لرئاسة منظمة إيرانية للكتاب فى الماضى، وإعلانه لدعوه لشاه إيران قبل الثورة هناك مما اضطره للحياة خارج إيران حيث يعمل حالياً أستاذاً بإحدى الجامعات الأمريكية.

تلاشت سبل التواصل بين الأستاذ نصر، وأعضاء الحداثة ممن يزعمون بعدم وجود خلاف بين الإسلام والعلم الحديث. ففى رأيه أنهم يقومون بتشويه الإسلام لملائمة وخدمة أغراضهم ويهاجمهم بعنف قائلاً: "قد تذهب الكتابات التبريرية لهم إلى أى مدى لاسترضاء الحداثة ولعلمهم مستعدون لدفع أى ثمن فى سبيل إظهار حداثة الإسلام وأنه - على عكس المسيحية - لا يختلف بتاتاً مع العلم. (مرجع ٣)

يرى نصر أن كتابات أنصار الحداثة هؤلاء، التى تزعم أن الإسلام متوافق مع العلم الحديث - بمعنى العلم المبني على الأسس التى وضعها جاليليو ونيوتن - خاطئة ومعيبة بشكل لا يمكن فهمه. الخطأ السائد فى هذه الكتابات كما يرى

نصر، أن المقصود بلفظ " علم " فى اللغة العربية، هو القضية العقائدية، قد جرى تحريفه عن عمد وتحويل معناه إلى العلم المدنى. يسترسل نصر فيرى فى هذا خطأ شديداً، حيث أن معنى لفظ " علم " يعود على المعرفة الإلهية، لا على المعرفة النجسة، كما يؤكد نصر على أهمية تعريف أنصار الحداثة بذلك، لأن العلم الحديث كالسرطان الآخذ فى تدمير نخاع العقيدة الإسلامية.

"لا يمكن منع هذا النوع من العلم - المبنى على أساس نسيان الله - من إحداث تآكل فى قلعة العقيدة الإسلامية، مهما بلغ حجم الإنكار بوجود المشكلة ومهما ارتفعت الشعارات القائلة بأن " الطبيعة العلمية " للإسلام قادرة على وقف انتشاره". (مرجع ٤)

لا مناص فى النهاية - على حد قول نصر - للعالم المسلم السورع الذى يستعمل أدوات العلم الحديث وتقنياته من إتلاف نسيج العقيدة الإسلامية لأن:

"بغض النظر عما يعتقد أفراد العلماء المسلمين الأتقياء، فهم لا يستطيعون منع نتيجة نشاطهم كعلماء عصريين، التى تؤدى إلى تفرغ العالم الثقافى الإسلامى من محتواه، ما لم يتم اجتثاث هذا العلم من جذوره الضاربة فى النسيج المدنى والإنسانى منذ نشأته فى عصر النهضة". (مرجع ٥)

يتضح من وجهة نظر هذا النوع من الأصولية الإسلامية، الرفض الكامل لمبدأ اعتماد الحقيقة بالكامل - فى العلم الحديث - على أحكام العقل والمنطق والملاحظة.

أما فيما يتعلق بالعلوم القديمة، فيذكرها نصر بطريقة لطيفة، ويقول: "إنها لم تمثل أى تحد للإسلام كما يفعل العلم الحديث. إن التلاميذ فى المدرسة التقليدية درسوا الرياضيات والجبر لعمر الخيام، والكيمياء القديمة من مجلدات جابر بن حيان، دون أن يمنعهم ذلك من أداء صلواتهم، كما يفعل طلاب اليوم الذين يفقدون روابطهم الدينية عند دراسة الرياضيات الحديثة والكيمياء. (مرجع ٦)

يا ترى ما مدى صحة هذا الفرق المزعوم بين علوم القرون الوسطى والعلوم الحديثة؟

يجب التعمق في فهم هذا السؤال، لما له من أهمية خاصة. في واقع الأمر، يختلف المفهوم الضمني للإطار المعرفي، اختلافًا جذريًا لكل من العلم القديم، والعلم الحديث. في الماضي، اشتغل العلماء - سواء من المسلمين أو المسيحيين - داخل حدود نموذج، تشابكت فيه كل من المعتقدات فوق الطبيعية، والمعتقدات الاجتماعية الشائعة، والنظريات العقلانية. كانت وظيفة العلوم الطبيعية، السعى لفهم النظام الإلهي للكون، حسبما تحددت ملامحه بالمشيئة الإلهية. بمعنى أنه كان ينظر إلى العلم كأداة لتوضيح الحقائق العقائدية، والتأكيد على الاحتياج للنظر إلى ما هو أبعد من مجرد الوجود المادي، كانت الإجابات معروفة مسبقًا، فعلى العلم، كخادم للعقيدة، أن يثبت تأييد العقلانية والحقائق الفيزيائية لمسألة الإيمان.

حتى الرياضيات، التي ينظر إليها اليوم بصفقتها المجردة والهنفصلة تمامًا عن المعتقدات، تم دمجها بقوة في نسيج المعتقدات الدينية. لاسيما وأن معظم أنظمة الترقيم الأولى، نسبت مصدر الأرقام إلى القوى فوق الطبيعية. من ثم أصبح يُنظر إلى علم الحساب على أنه من الامتيازات الخاصة برجال الدين، ومن ممتلكات المعابد والقصور. فالليونانيون مثلاً مجدوا الهندسة، وربطوا بين الأشكال المتساوية الأضلاع والزوايا، والآلهة. لا شك أن تحويل الرياضيات إلى علوم مدنية، ثم تحريرها من نماذجها العقائدية، قد استغرق من البشرية آلاف السنين.

نعم كانت هناك محاولات للبحث عن القواعد العلمية العامة لتفسير بعض الأشياء، مثل ظاهرة سقوط الأجسام، لكن كان من المستحيل تقدير أو فهم أهميتها وعالميتها في ظل حجم المعرفة المتاحة في ذلك الحين. لم تخل التأملات من المخاطرة، إذ كان حجم المعرفة المختبرة ضئيل جدًا، بحيث لا يسمح باستخلاص قانون فيزيائي قادر على تفسير أو حتى توقع أى من الأحداث المهمة. لم يتمكن علم القرون الوسطى من تفسير أسباب وقوع الزلازل أو ثورة البراكين، أو كيفية شروق الشمس ودوران الأرض حولها، أو سبب هبوب الرياح وسقوط المطر أو أسباب حدوث الأوبئة أو كيفية مجابقتها، وغير ذلك أمثلة كثيرة. لا يمكن إغفال دور حالة الجهل الباطش السائدة آنذاك، إذ يتضح دوره تمامًا مما حدث في أوروبا

من وقوع المذابح المتكررة لليهود على أيدي المسيحيين، كلما ظهر وباء بالبلاد، نظراً للأفكار السائدة بأن اليهود مسئولون عن حلول نقمة الله على أى مجتمع يعيشون فيه. فى ظل هذا المناخ، كان مجرد التأمل، شيئاً لا يمكن التكهن بعواقبه.

نستطيع أن نرى، بعد شىء من التمعن، صعوبة احتمال أن تكون الأمور على غير ما كانت عليه حيث لم يكن فن الملاحظة - ناهيك عن فن إجراء التجارب - قد تطور إلى أى حد يسمح بمقارنته بالعلم المعاصر أو يصلح ليكون أداة للتوقع والتحكم. تشير ملاحظات سارتون (Sarton) : إلى هذا المعنى:

"مهما بلغت إيجابية المعرفة لدى أسلافنا، فإنها كانت من النوع الذى لا يعتد به، حتى أصبح من السهل معارضة أى من مقولاتهم العلمية. هذا فى الوقت الذى بدت فيه التركيبة العقائدية، قوية، متماسكة، وغير قابلة للاهتزاز، من ثم لم يكن متاحاً لأى كم من المشاهدات أن يمس المعتقدات أو يهدمها. لم تكن المعتقدات قائمة على الاستنتاج، وبذلك تحصنت ضد أى تجريح محتمل من قبل العقلانية مهما بلغ حجمه". (مرجع ٧)

فى تلك الأيام، استقر استعمال التبريرات العقائدية كبديل للتبريرات العلمية، نظراً لعدم توافر الأخيرة. فجد البيرونى مثلاً، يشتبك فى معركة ضارية ضد محاورات أرسطو المتعلقة بأبدية العالم، مدافعاً فى المقابل بنظرية الخلق من العدم. (يلاحظ أننا نقف اليوم على مشارف الإجابة لتحديد ذلك علمياً).

لم تقتصر هذه الملاحظة على المسلمين فقط، بل شملت المسيحيين أيضاً، حيث نشأت لديهم (المسيحيين) إشكالية النقاط المتقابلة على سطح الكرة الأرضية، التى احتلت مساحة كبيرة من الجدل، حتى تم فى النهاية رفض الفكرة تماماً، على أساس أن وجود تلك النقاط، يستوجب وجود مسيح آخر على الجانب الآخر من الأرض، مما يعنى ضرورة تعرضه للصلب مرة أخرى. حتى بالنسبة لـ روجر بيكون^١ (Roger Bacon) المعروف بـ راديكاليته، الذى حاكمته الكنيسة وأودعته

^١ سبقت الإشارة إليه فى هامش بالفصل الثالث. (المترجم)

السجن، بسبب إجرائه بعض التجارب العلمية، رغم أن هدفه في النهاية كان تأييد ودعم مسألة الوحي الإلهي.

كانت صورة العالم، في العصور الوسطى، كاملة، ومتدرجة، مبنية على أساس نظام أثري مكون من مجالات وأفلاك. يحتل القمر والشمس المكانة الأولى في هذا النظام الجليل، ثم يليهما مجالات باقى الكواكب، ثم تأتى مجالات النجوم الثابتة، ومن بعدها الملكوت الإلهي. ارتبط علم الفلك بالملائكة، التى لعبت دوراً هاماً فى تحريك السماوات. وقد امتلأ علم الفلك عند ابن سينا بهذه المفاهيم. اقتضى النظام الكونى الذى تصونه الملائكة على هذا النحو، وجود نظام اجتماعى معين بل ونظام خاص داخل جسم الإنسان بما يتمشى مع التصور العام للكون. على سبيل المثال وضع إخوان الصفا الذين كونوا جماعة سرية للمفكرين الإسماعيليين العقلانيين فى القرنين العاشر والحادى عشر، علاقات بين الكواكب وأمراض الجسد (مرجع ٨) على النحو التالى :

المشتري	العينان
عطارد	الأذن
الزهرة	الأنف وحلمة الثدي
زحل	قنوات الإخراج
الشمس	الفم
القمر	السرة

بناءً على هذه التصورات، وُصفت الأمراض على أنها ظواهر مرتبطة بخسوف الأجرام السماوية. فى الخلاصة امتد نظام الارتباط بالأجسام الفلكية ليشمل تقريباً كل شئ فى الحياة.

يتمثل أحد الفروق الكبرى الأخرى، بين العلم القديم والعلم الحديث، فى النظرة إلى مفهوم التقدم. حيث أصبحنا فى زمننا المعاصر، نقبل ظاهرة التراكم المعرفى

والتقدم المستمر للأجيال المتعاقبة بشيء من التفانينة ونعتبر ذلك من الأشياء الطبيعية. أما فى القرون الوسطى، فكان من الصعب تصور أن الحياة آنذاك، تختلف عما كانت عليه عند الأجيال الضاربة فى القدم، أو أن معرفة القدماء كانت أقل. فقد آمن البيرونى مثلاً بأن القدماء (البيزنطيون، والمصريون، واليونانيون) امتلكوا معرفة أكثر من معاصريه، فكتب فى هذا يقول : " إن ما نملكه من علمنا الخاص، ليس إلا الفضلات القليلة المتبقية من الأزمنة الغابرة" (مرجع ٩). رغم إيمان علماء القرون الوسطى بأحادية اتجاه التقدم، فإن نظرتهم إلى التاريخ كانت مختلفة، حيث رأوه يسير فى دورات. من ثم مر تاريخ البشرية بشكل منتظم، بفترات من الصعود والهبوط، فكلما ازدادت قوة الناس أو مهارتهم أنزل الله عليهم غضبه فى صورة الأوبئة أو الزلازل، أو الفيضانات التى تدمر الأرض بصفة دورية. أصابت هذه الرؤية للكوارث، هدفين فى نفس الوقت أولهما التأكيد على معاقبة الناس على خطاياهم، وثانيهما التذكير بأن الله لا يتوقف أبداً عن التدخل الفاعل فى هذا العالم.

بناءً على ذلك، فلا يستطيع المرء الاختلاف مع نصر بشأن تحديد مفهوم إطار علم القرون الوسطى عن طريق المعتقدات. من ناحية أخرى، فيبدو أنه لا يقدر حقيقة أن الإنجازات الوحيدة المتبقية من هذا العلم، سواء تمت على أيدي اليونانيين أو المسلمين أو المسيحيين، كانت الإنجازات التى تميزت بما لها من طبيعة عالمية، ومدنية، وهذه بالتحديد هى العناصر المشتركة بينها وبين العلم المعاصر. فمثلاً فى سبيل تحقيق الثراء والمنفعة الشخصية البحتة، اندفع المشتغلون بالكيمياء القديمة فى محاولات تحويل المعادن المختلفة إلى ذهب. لكن ورغم فشلهم الذريع فى مسعاهم، فإن العديد من القواعد الكيميائية الهامة تم اكتشافها من خلال أعمالهم. كذلك جرت دراسة آليات الأجسام المتساقطة، والروافع، والآلات البسيطة، وخصائص العدسات، وحياة النبات والحشرات، والجغرافيا وطبيعة سطح الأرض... إلخ بهدف استخلاص القواعد العامة. نبع الحافز بوضوح من حب الاستطلاع الطبيعى للإنسان ولا يمكن تعليقه بالضرورة على المراسيم الإلهية.

لتلخيص المناقشة التي تدور حول الفروق بين نظريات المعرفة والافتراضات الفلسفية للعلم الحديث، وبين علم القرون الوسطى الإسلامية، فأعتقد أن نصر قد أثار نقطة في غاية الأهمية، بمناقشته لفرضية تقبع في قلب الأطروحة الإسلامية المعاصرة، ونادرًا ما نالت حظها من الشرح. لكن رفضه الصارخ للعلم المعاصر باعتباره ضد الإسلام فلا يمكن قبوله إلا من قبل الأصوليين المترممين.

يعرف عن نصر، أنه ليس فقط مؤرخ للعلم، بل أيضًا من الدعاة للعلم الإسلامي الجديد، الذي لا يجب أن يخضع لاستبداد المنطق، فكما يقول :

"لا يمكن استخلاص العلم الإسلامي الحقيقي من المنطق الإنساني، بل يجب أن يكون مستمدًا من الذكاء الإلهي... إن مكان العقل في القلب، لا في الرأس، وما المنطق إلا انعكاس للعقل على مستوى الذهن. (مرجع ١٠). كلمات شاعرية جميلة، تصور لنا مشهدًا للمعرفة الكاملة، لكن للأسف، فإن معنى الكلمات في الحقيقة، واضح تمامًا كالطين. لا شك في تميز ذلك العلم الذي يزعم أنه مستمد من الذكاء الإلهي، لا من المنطق الإنساني، بشرط أن يكون لمن يمارسه اتصال مباشر مع الذكاء الإلهي، فبدون ذلك، يصبح علمًا محيرًا جدًا ومثيرًا للمشاكل بكل تأكيد. ولعل نجاح علم نصر الإسلامي الجديد يعتمد على العثور على مفسرين للذكاء الإلهي، الذين يفترض أنه سيجري اختيارهم من بين الأتقياء الورعين.

مع انشغال الدكتور نصر الشديد في الدعاية لنموذجه الأثيري من العلم الإسلامي، الذي "يجب أن يجتث من جذوره الضاربة في النسيج المدني والإنساني"، والذي يتميز بـ: "مكان العقل في القلب، لا في الرأس". فلا يجد الدكتور نصر وقتًا كافيًا للالتفات إلى بعض المسائل العملية ذات الطبيعة الدنيوية، التي قد تتسبب في حدوث مشاكل كثيرة كما سنرى في المثل التالي:

- مثل ١ : ينتمي كلا من العالم "أ" والعالم "ب"، إلى رؤية دكتور نصر الخاصة بالعلم. ينشغل كلاهما بالبحث عن أصل تكوين القارات، وكلاهما مقتنع بأن العقل، مكانه القلب، لا في الرؤوس. يستلهم العالم "أ" نصًا مقدسًا يرى فيه ما يدعم الاعتقاد بأن القارات كانت متصلة ببعضها منذ

زمن بعيد. لكن يقتنع العالم "ب" بأن القارات برزت بتلقائية من البحار، ثم يقتبس نصاً مقدساً آخر، يرى فيه ما يدعم اعتقاده، لا ترقى أدلة أى منهما لحض الرأى الآخر تماماً. مما يستلزم رفع الأمر إلى "المجلس الدينى الأعلى". حيث يتشاور أعضاء المجلس الأتقياء بشأن هذا الموضوع الهام، وبعد كثير من الدراسة والصلوات وقراءة التعاويذ، يُصدر المجلس قراره بأن القارات تكونت عن طريق كذا أو كذا. فى نفس الوقت، بعيداً فى بلاد روسيا الشيوعية، تُذيع مجموعة من علماء الجيولوجيا، أنهم قد توصلوا إلى نتائج حاسمة، تمثل طفرة فى علم القشرة الأرضية وتكوينها، بحيث أمكنهم أخيراً حل المسألة علمياً. يشجب المجلس الدينى الأعلى نتائجهم باعتبارها عمل من أعمال الكفار.

لام الدكتور نصر على العلم الغربى، باعتباره علماً مدمراً للإنسان والطبيعة. ولا يستطيع الإنسان أن يختلف معه كثيراً فى تلك النقطة. لكنه يستطرد ليبنى رؤية أثرية لعلم إسلامى متناغم وسلمى، خال تماماً من الخطأ، كما هو خال من أى منظومة قواعد حاكمة ذات معنى. يتضح مدى خواء رؤية نصر من المثل غير المستبعد التالى.

- مثل ٢: يعيش العالم الكيميائى "جـ" فى بلد اسمها "إيرنا"، أما العالم الكيميائى الآخر "د" فيعيش فى بلد اسمها "عرقا". كلاهما قرأ كتاب الدكتور نصر عن مازق الإنسان المعاصر، ويتفق كلاهما معه على مدى انحطاط الحضارة الغربية وعلى الطبيعة التدميرية للعلم الحديث. كذلك اقتصعا بحجج دكتور نصر القائلة بأن أخلاقيات العلم المبني على العقيدة، لن تسمح للعلم بتدمير الحياة الإنسانية. لكن تبدأ حرب بشعة بين إيرنا وعرقا، ويصبح غاز الأعصاب مطلوباً فى كل من البلدين، تطلب حكومة إيرنا من العالم "جـ"، كما تطلب عرقا من العالم "د"، أن يبدأ كل منهما أبحاثه وتجاربه لإنتاج المركب الكيميائى "ثنائى فينابل الكلوروتتراسين" (Diphenyl Chlorotetrasine). من المعروف أن الإنسان تحت تأثير

هذا الغاز، يفقد قدرته على التحكم في التبرز وتتأهب التشنجات قبل أن يسلم الروح. يعتبر الغاز مطلبًا عسكريًا مرغوبًا فيه، نظرًا لما يحدثه استعماله من انهيار شديد في الروح المعنوية لجنود العدو.. في البداية يترأخى كل من العالمين، خاصة وأن البلدين ينتميان لنفس الديانة. لكن يصدر بيان رسمي من المجلس الدينى الأعلى بمدينة "مق"، معلنا أن الخصوم كفرة. فى نفس الوقت يعلن مجلس الصالحين والأقوياء بمدينة "دابغ"، أن أبواب الجنة قد فُتحت لمن يبذل الشر المسجد فى هذا العالم.... فى اليوم التالى، وبعد إفطار لطيف، وبضمير صاف تمامًا، وبشيء من السعادة، يعمل كل من العالم "ج"، والعالم "د"، فى معمله الخاص، بهدف إنتاج الغاز المطلوب.

ضياء الدين ساردار Ziauddin Sardar

يقف الأصوليون اليوم، موقف القزم الجريء، المحاصر فى معركة ضد عملاق العلم المعاصر. لا شك فى أن الأمر يحتاج إلى شجاعة فائقة للمطالبة بهدم صرح العلم الحديث واستبداله ببناء آخر، لم توضع حتى مسودته المبدئية إلى الآن. هذه الصفاقة، ليست دائمًا محمودة العواقب. فمن النادر أن يوجد عالم حقيقى واحد، من بين هؤلاء الأقزام المسلحون بسيف الإيمان، والفاقدين لبقاى ترسانة المنطق. كما أنهم غير قادرين حتى على تقدير حجم المهمة التى يبشرون بها. أما بالنسبة للقلّة النادرة منهم، التى تستند إلى تنشأة علمية، فيلاحظ عدم وجود ولو واحد منهم من أصحاب الأعمال العلمية البارزة. لكن هذه المسألة الصغيرة لا تسبب أية إحباط لهؤلاء المشحونين بالإيمان، الذين لم يقلقهم الشك فى يوم من الأيام.

فى مرتبة تالية من الإعجاب، نجد طبقة المنتحلين للعلم، يبدأ جدل المنادين منهم بتدوين العلم، بنقد العلم الحديث، من خلال التشكيك فى طبيعة العلم غير المبنى على القيم، مبرزين الآثار المدمرة لبعض منتجاته، كذلك يؤكدون على أن تطبيقه العملى قد جرد المجتمع من إنسانيته، وحوله إلى مجرد آلات متحركة.

ورغم الاتفاق إلى حد بعيد على صحة هذه النقاط الهامة، إلا أنها لا ترتبط ولا تتبثق بالضرورة من أعماق أية عقيدة معينة.

إن اكتشاف ما ترتب على ممارسة العلم الحديث من مشاكل متعددة، لم يكن أبداً من اكتشافات الأصوليين الجدد. ففي واقع الأمر، جاءت أقسى الانتقادات للعلم في الحضارة الصناعية من ناحية الماركسيين والفوضويين من أمثال ماركيوس (Marcuse)، وكون (Kuhn) — وإيلول (Ellul)، و فييرابند (Feyerabend)

يبدو كأن الأقزام قد وضعت السيف على صدر العملاق بتوجيههم لتلك الاتهامات المذكورة، ولم يبق للأقزام إلا الضغط على السيف لإنهاء المعركة. ولكن لكل قزم نموذج الخاص من العلم الذي يعتقد أنه مستند إلى صحيح التعليمات الإلهية. لقد استعرضنا نموذج الدكتور نصر وموقفه من العلم الإسلامي. وهو ليس النموذج الوحيد المطروح على الساحة، حيث توجد أيضاً منظومة الآراء، التي يطرحها ضياء الدين ساردار، الباكستاني المولد، الذي هاجر إلى إنجلترا، ومؤلف ما لا يقل عن ستة كتب عن الإسلام والعلم. يعلن ساردار، في مقال بعنوان: لماذا يحتاج الإسلام إلى علم إسلامي* (مرجع ١١). نشرته له مجلة "العالم الجديد" (New Scientist)، وهي من أكثر المجلات العلمية احتراماً، أن البحث عن علم إسلامي، هو أكثر القضايا الملحة التي يواجهها المسلمون اليوم. وأما المسائل الأخرى، مثل ضائقة وضعف مستوى تعليم المسلمين، وجهلهم الفاضح بأساسيات العلم، واعتمادهم الكامل على التكنولوجيا الغربية، فليس لدى الأستاذ ساردار أى اهتمام يذكر بها. أما ما يزعم بأنه "علم غربي"، فيراه غير مناسباً، ليس فقط للأضرار الناجمة عن استخدامه، بل لأن نظريته المعرفية، تتعارض من الأساس، مع الرؤية الإسلامية. لنؤجل الحديث عن مفهوم ساردار للعلم الإسلامي، فجدير بالذكر أنه لا يشعر بالرضا بأطروحات دعاة العلم الإسلامي الآخرون. حيث يتوجه باللوم والتوبيخ إلى المرحوم الفاروقى^١ الذي كان من المسلمين المحافظين،

^١ إسماعيل راجى للفاروقى (Ismail Raji Al-Faruki): فيلسوف فلسطينى-أمريكى، من مرجعيات الإسلام والأديان المقارنة. قُتل طعنًا هو وزوجته في أمريكا عام ١٩٨٦. (المترجم)

الداعين بقوة إلى أسلمة العلوم، إذ كان يرى أن أسلمة المعارف، تحتاج في المقام الأول إلى تحديد وتأسيس العلاقة بين الإسلام وبين كل فرع من فروع المعرفة الحديثة. من ثم يعقب ساردار قائلاً بأن مثل ذلك، مثل وضع العربية أمام الحصان، فليس الإسلام هو الذى يحتاج إلى إيجاد صلة بينه وبين المعارف، لكنها المعارف الحديثة التى تحتاج إلى إيجاد علاقة لها بالإسلام (مرجع ١٢). ثم ينتقد أسلوب الفاروقى باعتباره لا يزيد عن كونه تصريح ورع، فيقول: "للأسف، إن أسلوب الفاروقى لا يساوى الكثير" (مرجع ١٣)، أما بالنسبة لحسين نصر، فإن آرائه عن العلم الإسلامى تستحق الإعجاب بصفة عامة، "إلا أنه يخطئ بالمبالغة فى تقدير النواحي الغيبية للعلم الإسلامى، على حساب جوانبه النوعية". (مرجع ١٤)

رغم كتابات ساردار العديدة عن "العلم الإسلامى"، وتأييده له، إلا أنه لا يضيف شيئاً يذكر عما يعنيه بهذا اللفظ الضبابى. فالعلم والتكنولوجيا، على حد قوله، مرتبطان بمجموعة مكونة من عشر قيم إسلامية، تشمل على التوحيد، والعبادة، والخلافة. كذلك فالإسلام يتعارض مع مفهوم "العلم من أجل العلم، كما يتعارض مع العلم والتكنولوجيا الظالمين. إذا أراد القارئ استعراض المزيد من التفاهات، فسيصاب بالإحباط بكل تأكيد.

يخلق ساردار فى رحلاته الفخمة فى سماء الأوهام، مستعيناً الكثير من مفردات العلم الحديث وزينته الخارجية، دون الالتفات إلى شىء من حكمته، ومستعيناً بالعديد من الرسوم البيانية والرسوم التوضيحية، وخرائط الانسياب (Flow charts) المكونة من سبعة خانات، (مرجع ١٥) لتصميم مشروع متكامل، أسماه "مشروع عمران" (Project Umran) لإعادة تشييد النظام الإسلامى بالكامل، بما يتلاءم مع إعداداته لدخول القرن الواحد والعشرين.

يبدأ المشروع من الخانة الأولى فى الخارطة، وعنوانها "نموذج دولة المدينة، وينتهى بخانة تحمل عنواناً جذاباً "سداد دين المسلم" "Moslem PAYOFF"

^١ أود أن أوجه نظر القارئ إلى أن الكتابة الأصلية باللغة الإنجليزية، تم استعمالها بحنكة شديدة. فظاهر للكلمة PAYOFF بكامل حروفها تعطى معنى "تمام سداد الديون" ولا يخفى على أحد ما قد تحمله من معنى وجدائى مؤثر. إلا أن الكاتب أوضح مقصده فما كل حرف من حروف الكلمة،

PAYOFF. نسأى Plans and Assessment to Yield Options For the Future وتعنى بالعربية " خطط وتقييم لإنتاج اختيارات للمستقبل".

لو كانت طرافة التلاعب بالألفاظ، هو كل ما نحتاجه لنجعل مشاريعنا تتطلق، لكان مشروع عمران الآن يطاول السحاب، لولا الحقيقة المحزنة، لضرورة احتياجنا إلى بعض الأفكار المادية والموضوعية، وحيث أن "عمران"، خاو فى محتواه، فإن مستقبله يبدو موحشاً للغاية.

مهما كانت فضائل أو مميزات مقترحات الأفراد من أمثال نصر وساردار، فهناك قضايا أوسع لنوليها اهتمامنا. يبقى السؤال: هل من الممكن وجود علم إسلامى للعالم الفيزيائى؟ وطالما نتعامل هنا مع أرض تقع بين المعتقد والعلم، فمن المشوق طرح أسئلة أخرى عديدة، فهل يمكن وجود علم خاص بالماركسية، مختلف عن العلم العادى الغربى أو العلم الرأسمالى؟ ثم لماذا لا يكون هناك علم فريد من نوعه خاص بالعالم الثالث؟

= إلا اختصار لكلمة أخرى، وركبت حروف الاختصارات ببراعة شديدة، ليتكون منها اللفظ المستعمل PAYOFF. بهذا يتغير مفهوم الكلمة تماماً وتحل محلها جملة كاملة كالآتى "Plans and Assessment to Yield Options For the Future". وتعنى بالعربية " خطط وتقييم لإنتاج اختيارات للمستقبل". هذا النوع من التلاعب بالألفاظ شائع فى اللغات الغربية للإنجليزية الأصل ويطلق عليه لفظ Acronyms. (المترجم)

- 1- Nem Kumar Jain, Science and Scientists in India, (Delhi, Indian Book Gallery, 1985), p. 1.
- 2- W. T. Bary, Sources of Indian Traditions, (New York, Columbia University Press, 1958), p. 743.
- 3- H. S. Nasr in Islam and Contemporary Society, (London, Longman Group, 1982). p. 176.
- 4- Ibid., p. 179.
- 5- Ibid., p. 180.
- 6- Ibid., p. 179.
- 7- G. Sarton, Introduction to the History of Science, Vol.1, (New York, Krieger Publishing, 1975), p. 5.
- 8- S. H. Nasr, An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines, (Bath, Thames and Hudson, 1978), p. 101.
- 9- Al-Biruni, Quoted in Nasr, op. cit., p121.
- 10- Nasr in Ref. 3, p. 179.
- 11- Ziauddin Sardar, 'Why Islam needs Islamic Science' New Scientist, April 1982.
- 12- Ziauddin Sardar, Islamic Futures- The Shape of Ideas to Come, (New York, Mansell Publishing), p. 101.
- 13- Ibid., p95.

14- Ibid., p.174.

15- Ziauddin Sardar, *The Future of Muslim Civilization*, (New York, Mansell Publishing), pp 122-36.

الفصل السابع

هل يمكن تواجده علم إسلامي؟

ببساطة شديدة، أرى الإجابة عن هذا السؤال بالنفى، لا يمكن وجود علم إسلامى للعالم المادى الذى نعيش فيه، كما أن أية محاولة لخلق مثل هذا العلم، إنما تمثل إهداراً للجهود. ولست أرى فى هذا أى مساس بالإسلام، فكما أشار الأستاذ أحمد خان، إن هدف الدين، تحسين الأخلاقيات، لا تحديد الحقائق العلمية.

علم إسلامى؟

سأحاول توضيح أسباب عقم محاولة خلق علم فيزيائى جديد، مبنى على أسس دينية.

- أولاً، لا يوجد علم إسلامى الآن، كما أن جميع المحاولات لصنع علم إسلامى، قد مُنيت حتى الآن بالفشل.

يتميز العلم الحديث بأنه محدد المعالم وملاموس. فبدونه، تتوقف المصانع عن الإنتاج، كما لا تستطيع الجيوش القتال، كذلك لا يمكن مجابهة الأمراض، أما بواسطته، فنتنقل الصور فى لحظات عبر آلاف الأميال، كما تعبر الطائرات النفائة القارات، وتُعالج عيوب القلب الخلقية بأجزاء صناعية، هذا بالإضافة إلى القدرة على إنتاج أصناف جديدة من النباتات والحيوانات فى المعامل البحثية. فى المجتمعات الصناعية، يفرض العلم على الناس أسلوب حياتهم كما يشكل رؤيتهم للعالم وعاداتهم الفكرية، بل أكثر من ذلك، أصبح يتدخل حتى فى العلاقات الإنسانية. قد تثير بعض هذه الأمور الشعور بالأسف، فى حين قد يتم الترحيب بغيرها. وعلى كل الأحوال، فلا يستطيع المرء إنكار قوة العلم الحديث أو حقيقة أنه أو ضخمته.

أما فيما يتعلق بالعلم الإسلامى، فبالرغم من الأصوات الحماسية التى تكررت كثيراً خلال العقود الماضية للمطالبة بإيجاده، وبرغم إقامة العديد من المؤتمرات

المحلية والدولية لتحقيق هذا الغرض، إلا أن جميع الجهود الرامية إلى خلق هذا العلم قد فشلت، مما يشير بشدة إلى هشاشة محتوى كل تلك الأطروحات. وعلى حد علمي، فلم يفتح العلم الإسلامي حتى الآن في إنتاج آلة واحدة، أو جهاز واحد، كما لم ينتج مادة كيميائية واحدة أو دواء واحد ولم يقدم تصميمًا لأية تجربة جديدة، كذلك لم يؤد إلى اكتشاف حقيقة فيزيائية، لم تكن معلومة من قبل ويمكن اختبارها. على العكس، قام العاملون بالعلوم الإسلامية بتوجيه نشاطهم نحو مسائل تقع خارج نطاق العلم المعتاد، حيث تضمنت اهتماماتهم أشياء لا يمكن اختبارها، مثل سرعة الجنة، ودرجة حرارة جهنم، والتركيب الكيميائي للجن، وكذا معادلات لقياس النفاق، وتفسيرات للإسراء والمعراج مبنية على أساس نظرية النسبية، وأشياء أخرى عديدة، مشار إليها في الفصل الأخير من هذا الكتاب (الملحق)، بعنوان: "يسمونه علماء إسلاميًا". أما فيما يتعلق بمدى تمشى تلك الاكتشافات المزعومة للعلم الإسلامي مع العقيدة الإسلامية ذاتها، فالأمر موضع تساؤل، وأما عن تمشيها مع مقومات النظريات العلمية، فهي بكل تأكيد، لا تستوفي أيًا منها.

• ثانيًا: إن تحديد أية مجموعة من الأخلاقيات والقواعد الدينية - مهما بلغت - لا يتيح للفرد بناء علم جديد من لا شيء.

لنفرض أن العالم "أ" من الموحدين بالله، والعالم "ب" من المؤمنين بتعدد الآلهة، أما العالم "ج" فمن الملاحدة، وجميعهم من العاملين في مجال فيزياء الجسيمات الأولية، الذي يتميز بنظرياته المتعددة ومعادلاته الرياضية المعقدة. بغض النظر عن اختلاف معتقدات العلماء الثلاثة الدينية، فسيتم في النهاية الحكم على نتائج جهودهم العلمية بمقياس واحد، ألا وهو قابلية النتائج لتخطى عقبة الاختبارات. أشرت في مقدمة الكتاب إلى المثل الخاص بعبد السلام وستيفن فاينبرج، حيث نجد عالميين من علماء الفيزياء، تقاسموا جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩، لنظريتهما عن توحيد القوى الضعيفة والقوى الكهرومغناطيسية الموجودة في الطبيعة. كان كل من عبد السلام المعروف بإسلامه، وفاينبرج المعروف بالحاده، بعيدين عن بعضها تمامًا سواء من الناحية الجغرافية أو العقائدية، ولم يقف ذلك عائقًا دون توصلهما لنفس النظرية الفيزيائية الناجحة.

تأتى استحالة القدرة على الحكم بوجوب وجود هذا النوع من العلم أو ذاك من واقع وجود منطق خاص، داخلى للعلم، لا يمكن التلاعب به من خارجه. حتى أن العالم نفسه لا يملك الاختيار. على سبيل المثال، كان كل من جاليليو ونيوتن من المسيحيين الأتقياء ولم تكن لديهما رغبة لتغيير المعتقدات الدينية السائدة أيامها. كان نيوتن يقلق بعض الأحيان بسبب الاختلاف مع العقيدة المسيحية السائدة، ولكنه سلم فى نهاية الأمر للموضوعية العلمية. أحدثت اكتشافاتهم فى النهاية، موجات عالية من النمو العلمى، اكتسحت فى طريقها الكثير من سلطان الكنيسة. لو علم نيوتن - المتدين - مسبقاً بما كان سيحدث لكنيستته من جراء إنجازاته، فلعلم ما كان أفصح عن أفكاره وما كان نشر كتابه الشهير "القواعد" (Principia).

فشلت كل المحاولات الهادفة لتحديد المعالم العملية للعلم الإسلامى بالرغم من كل الدعم العقائدى، وكل الدفع السياسى. يبدو ذلك بوضوح من تجربة باكستان، فقد قضت إحدى عشرة سنة فى ظل نظام ضياء الحق، الذى وضع مسألة أسلمة التعليم ضمن أهدافه الأساسية. كما أولاهما كل الاهتمام، وأنشأ لها العديد من المؤسسات الثقافية، ونظم ما لا حصر له من اجتماعات ومؤتمرات. لم تفرز كل هذه الجهود إلا قدرًا مؤسفًا من التقدم. فلا توجد حتى اليوم إجابة معقولة عن التساؤل عن محتوى منهج العلم المسلم، كما يتفادى المدافعين عن الأسلمة مناقشة هذا الموضوع. يمكن الحكم على مدى الفشل الذريع لتجربة الأسلمة من النظر إلى الموقف من نظرية داروين عن النشوء والارتقاء، التى نالت كل أنواع الهجوم، حتى تقرر إسقاطها تمامًا من مقررات علم الأحياء فى باكستان فى عام ١٩٧٧، مع عدم تغيير باقى المنهج.

إن الضرر الواقع على تشكيل المنهج التعليمى ونوعيته، كان كبيرًا جدًا حتى أصبح الموقف فى حاجة إلى سنوات عديدة من الجهود الصبورة لإعادة البناء إلى ما كان عليه. والذى كان فى أصله، ليس متميزًا بحال من الأحوال.

من الشيق استعراض تسلسل محاولات أسلمة العلم فى باكستان أثناء فترة حكم ضياء الحق. جاءت أول إشارة جادة بشأن إعلان قرب أسلمة كل المعارف،

بما فيها العلم فى عام ١٩٨٢، عندما قامت كل من الجامعة الدولية الإسلامية فى إسلام آباد، والمعهد الدولى للفكر الإسلامى بأمريكا بتنظيم ندوة تحت رعاية ضياء الحق، لمناقشة أسلمة المعارف.

ألقى الأستاذ الراحل أ.ك. بروهى (A. K. Brohi) الخطاب الرئيسى فى اللقاء. يجب التنويه إلى أن الأستاذ بروهى من المتحدثين المفوهين ومن خريجى المدرسة الإنجليزىة القديمة ثم أصبح من الرموز القومية بعد انقلاب ١٩٧٧، ترجع شهرته إلى مذهبه العبرى عن الضرورات، الذى أعلن فيه عن شرعية، بل ضرورة النظام العسكرى الجديد الذى جاء لينقذ البلاد من الفوضى والتسيب. شيع جثمانه فى عام ١٩٨٧ فى جنازة رسمية حملت كل معانى التكريم، اعترافا بخدماته للحكومة العسكرىة. أبدى الأستاذ بروهى فى خطابه المشار إليه أعلاه، عدم رضائه عن "الإسهام المريب للفكر المعاصر، الذى ينعكس على علوم مثل الكيمياء والفيزياء" (مرجع ١). انصب غضبه على الكتب والمراجع المستعملة فى الجامعات، لأنها تحمل على أوجه صفحاتها، بصمات لا تمحى للنتائج التى توصل إليها بعض المفكرين البارزين اللادينيين من أمثال داروين وفرويد وكارل ماركس، (مرجع ٢).

توصل الأستاذ بروهى إلى أن نظرية النسبية لأينشتاين، نظرية مكروهة ومتعارضة مع الإسلام فيقول : قى اعتقادى الراسخ، أن رأى أينشتاين فيما يتعلق بحركة الجزيئات، أو المكونات الأساسية للمادة، رأى خاطئ من الناحية الإسلامية ". (مرجع ٣).

تجدر الإشارة إلى أن أى عالم فيزياء، يستقطع عدة سنوات من عمره حتى يتمكن من استيعاب المعادلات الرياضىة التى تؤهله لفهم نظرية النسبية، ناهيك عما يحتاجه الأمر للتأهل للاعتراض عليها والطعن فيها. أما الأستاذ بروهى، فلم يكن يوماً من الأيام عالماً فيزيائياً.

عندما يكون هناك مجال للشك أو عدم الدراية بشىء فالناس الأقل مقاماً من الأستاذ بروهى يمتنعون عن إبداء ملاحظاتهم على أمور خارج نطاق تخصصهم

خوفاً من أن يظهروا بمظهر الحمقى. لكن، مثل الأسقف أوشر الموقر الذى استخلص من دراسته للإنجيل أن العالم بدأ فى الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد الموافق ٢٣ أكتوبر عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، كذلك كان أيضاً الأستاذ بروهى، رجلاً مؤمناً ورجاً، أعطى الأولوية لتفسيراته العقائدية فى مقابل متطلبات المنطق العلمى.

تأكيد آخر على مبدأ تبعية العلم للدين، جاء من الدكتور م. أ. قاضى (M.A. Kazi) مستشار الرئيس للعلم والتكنولوجيا، الذى لم يمنعه مركزه الرفيع من التعبير عن اشمئزازه من أساليب العلم الحديث. أعلن الدكتور قاضى فى خطاب بعنوان "أسلمة المعارف العلمية الحديثة" عن الحاجة الملحة إلى كتابة مرجعيات علمية جديدة لجميع مستويات الدراسة بحيث "كلما أردنا إثبات أى نظرية علمية، أو قاعدة، على أساس ما هو متاح من معلومات وبراهين، فيجب إضافة دليل آخر، مستمد من القرآن والسنة كلما توفر ذلك" (مرجع ٤).

لا يبدو أن فشل الجهود السابقة فى تعريف العلم الإسلامى، ستمثل أى رادع لهؤلاء المصممين. فشعارهم ببساطة، أن عليهم أن يبذلوا جهداً أكبر. من المؤكد أن الموافقة على مشروع القانون المستلهم من الشريعة فى باكستان فى عام ١٩٩١، الذى ينص على أسلمة التعليم بالكامل، سيدفع بهم لتجديد البحث عن الأدلة الدينية مرة أخرى.

• ثالثاً: لم يتواجد أبداً، لا فى الماضى ولا فى الحاضر، تعريف للعلم الإسلامى تقبله جموع المسلمين. كان هناك جدل شديد بين المسلمين حول مضمون العلم الشرعى، حتى قبل حلول العلم المعاصر بزمان بعيد، حيث اشتبك العقلائيون من المسلمين مثل ابن سينا، وابن الهيثم، وابن رشد فى خلاقات مع أعضاء المدرسة الأشعرية (Asharite School). لكن من حسن الحظ، أن الأصوليون لم يتمكنوا من السلطة السياسية لعدة قرون، من ثم لم تكن لهم سيادة تذكر فوق العقلائية. فلو اختلفت الأمور، لما كان هناك عصر ذهبي لإنجازات المسلمين العلمية.

يكاد يكون من المستحيل في ظل الأوضاع الحالية الوصول إلى اتفاق على مفهوم موحد للعلم الإسلامي. فالخلاقات المذهبية ما زالت بالشدة التي كانت عليها في السابق. أضف إلى ذلك تراكم الخلاقات القومية بين الدول الإسلامية وبعضها، مما أدى إلى قيام إيران مؤخرًا بمقاطعة كل الاجتماعات الخاصة بأسلمة العلوم.

إضافة لما سبق، وبجانب مشاكل العلم الإسلامي، توجد إشكاليات التكنولوجيا الإسلامية الافتراضية. حيث يتوقع منا أصحاب الأوهام الوردية مثل الأستاذ حسن نصر، أن نصدق أنه بالرغم من قدرة المسلمين في القرون السالفة على صناعة الآلات المعقدة والبنادق، إلا أنهم لم يقدموا عليه، نظرًا لما ينطوى عليه ذلك من إخلال بالميزان الدقيق بين الإنسان والطبيعة، كما أنه قد يعكر صفو تسامي الإنسان الروحي. حتى لو كانت هذه النظرة النسكية صحيحة - وأنا أراها أكثر من مجرد مشكوك فيها - فلا يُعتقد أنها ستكون محل قبول من جموع المسلمين اليوم، الذين يريدون الآلات المعقدة من كل نوع، ويبتغون الحصول على أنواع الأسلحة. ثم أنها ليست بالنظرة البديهيّة الساذجة، أن استعمال الدول الإسلامية لتلك التكنولوجيات المتقدمة سيكون مختلفًا عن استعمالها بواسطة الدول الغير إسلامية. فلعله كان من حسن حظ المسلمين جميعًا عدم امتلاك لا العراق ولا إيران، لأسلحة نووية خلال فترة خلافاتهم.

هل في الإمكان وجود علم ماركسي؟

إن عملية استكشاف المواجهة بين العلم والمعتقدات، في ظل سياق مختلف، لهو على ارتباط وثيق بموضوع اهتمامنا الأول الذي ينصب حول مسألة العلم الإسلامي. أوحى فلسفة كارل ماركس في الفترة من ١٩٣٠-١٩٦٠، إلى الكثير من العلماء السوفييت، والعلماء الغربيين، بالبحث عن علم للعالم المادي، تقوم نظريته المعرفية على أساس الجدلية المادية. كان في ظنهم، وهم مسلحون بكتب "جدليات الطبيعة لـ"إنجلز"، و"المادية ونقد الإمبريالية" لـ "لينين"، أنهم قادرون على إيجاد علم ماركسي، مختلف عن، ومتفوق على العلم اليورجوازي الذي يتعامل به المجتمع الرأسمالي.

بحثوا ونقبوا بكل جهد، عن الأطروحات وما يعارضها وما يبينها، نظروا في تطابقتها العقائدية، ولم يتركوا منطقة من مناطق العلم إلا وخاضوا فيها.

لم تسفر جهودهم عن فشل ذريع فقط، بل كارثة تامة. يتمثل ذلك بوضوح في نموذج ليسينكو (Lysenko) لعلم البيولوجيا الاشتراكي، الذي تشكل أيام حكم ستالين. تعتبر هذه الظاهرة من الأمور البالغة الأهمية في تاريخ الفكر الاشتراكي، لذلك جرت دراستها على نطاق واسع. وتعددت الكتب المكرسة لها (مرجع ٥). فيما يلي محاولة لتقديم مجرد موجز سريع عنها. لم يكن لـ ليسينكو أية خلفية علمية، فهو رجل ريفي يعمل في الزراعة في أحد المشاتل. ظهر على مسرح أحداث علم البيولوجيا في روسيا في أوائل الثلاثينيات ١٩٣٠ وعمل على مناهضة علماء الوراثة الذين كانوا ينتمون حينها إلى الطبقات الثرية. تبنت الدولة الروسية في عصر ستالين، إدعاءات ليسينكو العلمية، حتى أصبحت بمثابة خطابها الرسمي في هذا المجال، نظرًا لما اتسمت به لهجة مقولاته من تقارب شديد مع لهجة الصراع الطبقي والجدلية القائمة آنذاك. لم يمض وقت طويل حتى تمكن مناصروه من الوصول إلى المراكز القيادية في جهاز الإرهاب الحكومي. ثم بدأت بعد ذلك مرحلة إبعاد المعارضين العلميين من جميع المراكز، وتجريدتهم من جميع السلطات. كما حدث مع العالم نيكولاي فافيلوف (Nicolai Vavilov) الذي تُعد قصته من أقل الحالات شهرة. كان فافيلوف من رواد علم الوراثة في النبات، وهو في نفس الوقت من المعروفين بميولهم الاشتراكية. حوكم فافيلوف أمام محكمة عسكرية بتهمة متعددة، منها تهمة التخريب الزراعي. صدر الحكم عليه بالإعدام. خفف الحكم بعد ذلك إلى السجن لمدة عشرة أعوام، إلا أنه توفي في سجنه بعد مضي ثلاث سنوات.

استندت حركة ليسينكو على البيانات المغلوطة، والحجج المشبوهة، في محاولة لهم نظرية مندل للوراثة، إدعت في المقابل أن الوراثة لا تعتمد على التركيبات الجينية، بل إنها تحدث كنتيجة للتفاعل بين الكائن والبيئة، حيث تنتقل خبرة الكائن عبر مشوار حياته، إلى ذريته. إن النتيجة الطبيعية لهذا التصور، أن الإنسان قادر على تحديد ذاته بنفسه. بلا شك، هذه النظرة تبدو طرخا عقائديا،

جذابًا جدًا من وجهة النظر الاشتراكية. من البديهي خطأ تلك النظرية وباستطاعة العديد من علماء علم الأحياء، تقديم ثلال من الأدلة القاطعة بعدم إمكانية توارث الصفقات المكتسبة. من بين إدعاءات ليسينكو الزائفة الأخرى، أن النباتات التي تنتمي إلى نفس النوع، تُظهر نوعًا من التكاثر الاشتراكي، فهي لا تتنافس مع بعضها من أجل البقاء، كما أنه أكد وأصر على أن زراعة نفس النوع من الأشجار بالقرب من بعضها، يساعد على نموها. ولقد عانت زراعة الغابات بشدة من جراء هذا الزعم الخاطئ.

لقد تسببت خطط ليسينكو في العودة بعلم الأحياء السوفييتي عشرين عامًا للوراء، ناهيك عن مدى معاناة البشر من جراء خطوات تخلصه من معارضيه. بالإضافة إلى الخسائر الفادحة في الزراعات السوفييتية. لم تتعرض هذه الخطط والسياسات لإجراءات سحب الثقة إلا في عهد خروشوف. وكما كان من المتوقع فقد سارع المعارضون للاشتراكية لوضع يدهم على هذا الخراب.... كشاهد على مدى عدم عقلانية، واستبداد الماركسية.

تفاوتت ردود فعل الاشتراكيين تجاه مبادئ ليسينكو، فمن ناحية، وبعد فترة طويلة من سحب الثقة بها في روسيا، تلقىها الصينيون من أتباع ماو، وتغنوا بها باعتبارها قمة التجسيد لجذليات إنجلز، ليس هذا فحسب، بل عابوا على السوفييت تركهم لمبادئ ليسينكو التجديدية، من ناحية أخرى توجه عدد من الباحثين لتقصي الأسباب المادية لضعف حالة الزراعة في روسيا وفشل ستالين في إقامة الزراعات المجمعة، مما دفع بهم إلى البحث ببأس عن حل سحري، لا عقلاني، لإنقاذ الموقف، من ثم كان التوجه لتبني أفكار ليسينكو. على صعيد آخر، أسقط آخرون المسألة برمتها باعتبارها حالة فردية طموحة، لشخص انتهazy يعمل وسط مناخ سلطوي، ونظرًا لكونها حالة فردية - حسب قولهم - فليس فيها ما يستحق الاهتمام.

لا يجب إسقاط تجربة ليسينكو بهذه البساطة، فبرغم كونها أكثر الأمثلة امتهانًا للعلم الماركسي، فإنها لم تكن الحالة الفريدة في هذا السياق. إن تعدد الاحتمالات،

وافتراد الءءمفة (اللائقفن) فى مكاففكا الكم؁ إضافة إلى الإسقاطاء الفلففففة لنظرفة النسبفة لأفنشتافن؁ وضاءهما مواء الرفة فى روسفا السئالفنفة؁ ءفء ءارء مءافوف فلاسفة الءرب من اءءمال اءئاء اللافقفن الكامن فى قلب مكاففكا الكم؁ إلى عالم السفاسة؁ من ءم قد ءءعارض مع نظرفة ءءمة ءطور المءءمعااء الءف طرءها كارل ماركس. كءلك اءءبرء نظرفة النسبفة لأفنشتافن؁ كءمهفء لنسبفة الأخلافااء والمءل العلفا. فسءطفع أى إنسان؁ بإطلاعها على الكءب والمقالاء المطولة الءف كءبء فى ءلك الءفن أن ىرى مءى السءف الءى ءضاءءه؁ ءاصة وأن بعضها كءب بواءسة بعض علماء الطبفة المءءرمفن من أمءال "فوك" (V. Fock) الءفن أسهبوا فى كءاباءهم لءرء طبفة أعمالهم بصفءها مسءمة من مباءى ماركس ولفنفن.

لعبء هءه الممارساء والءءارب ءورا مءورفا فى إءراج العلماء الءءمففن من وهم مقولة إمكانيءة إءبار الطبفة لقبول الأفكار العفانءفة.

وماءا عن علم ءاص بالعالم الءالء ؟

إنه ءقا عالم رففر عاءل؁ هءا الءى نعلش ففه؁ ءفء ءشفر الأرقام إلى أن ءلاءة أرباع سكان العالم؁ فكسبون أقل من ٢٠% من إءمالى الإءئاء العالمى؁ فى الوقت الءى فسءهلكون ففه ٢٢% فقط من المواء الطبفعفة فى العالم. على سبفل المءال؁ فسءهلك المواءن الأمريكى ألف ضعف الطاقة الءى فسءهلكها المواءن الإفرفقى؁ كما ءءئء الءول النامفة أربعة أضعاف ما فسءهلكه من الءاماء الطبفعفة رففر المءءءءة؁ بهذا فسءئزف أراضفها الءاصة من أجل صالح العمالء الأجانب. كءلك فءفشى اعءماءهم على الءول الصئاعفة فى كل ءانب من ءوانب وءوءهم.

فبءو ءلك واضءا فى المءال الاقفصاءى؁ ءفء قامء ءول العالم الءالء فى عام ١٩٨٩ بءفع مبلء ١٥٠ بلفون ءولار للبنوك فى الءول الصئاعفة ءءء بئء مصارف ءءمة الءفون فقط.

لم ياء هءا الاعءماء عن طرفق المصاءفة بأى ءال من الأحوال. ءفء إن بقاء الوضاء على ما هو علفه؁ ياءى فى مصلءة الءول الصئاعفة فى المقام الأول؁

بالرغم من ادعاءاتهم المتكررة بغير ذلك. يبدو ذلك واضحاً من فحص السياسات المدمرة للعالم الثالث، التي وضعتها الدول الصناعية، وطرحتها من خلال الوكالات الدولية والمؤسسات المانحة للقروض كالبنوك وغيرها. على سبيل المثال، يُوحى عن عمد إلى طبقة الصفوة في تلك البلاد بسياسات جشعة، غير مكبوحة الجماح، لاستيراد البضائع الاستهلاكية، كما يجري تشجيع وإشباع نزواتهم للخوض في مغامرات عسكرية، عن طريق إمدادهم بأكثر الأسلحة تعقيداً من المخازن الحربية للدول الصناعية. لا تتظر الدول الصناعية إلى تلك المسائل على أنها من الأمور الجديرة بإثارة الاهتمام، إلا عندما تقوم بعض الدول، مثل العراق، باستخدام هذه الأسلحة ضد الغرب وعملائه، كذلك يتم نهب الموارد الطبيعية بواسطة المؤسسات متعددة الجنسيات التي تقوم بقطع أشجار الغابات وتلويث الأنهار من أجل الربح. علاوة على ذلك تتعرض بعض الدول إلى إساءة استخدام أراضيها في دفن الكيماويات الضارة والمبيدات الحشرية، مما يهدد بتدمير بيئتها المحلية ويعرضهم ليكونوا ضحايا لمثل كارثة بهوبال¹ (Bhopal).

لا شك أن المؤمنين بعالم عادل، يشعرون بالأسى من استعراض هذه الوقائع مما يولد شعوراً معارضاً لكل ما هو غربي، بما في ذلك العلم الغربي. بناءً على ذلك يكثر الجدل هذه الأيام حول وجوب مقاطعة دول العالم الثالث للعلم الحديث. كما يشار إلى أن العلم، كما يمارس اليوم في العالم الثالث، ليس إبداعياً أو أصيلاً، كما أنه يعمل في معظم الأحيان، بعيداً عن المجتمع ككل. كما أنه من ناحية الشكل فقط، (لا المضمون ولا النوعية)، يتشابه مع علم الغرب، وبوضعه الحالي فهو منفصل تماماً من ناحية الروح والمادة، عن المعارف والفلسفات التي تواجدت في أزمنة ما قبل الاستعمار. و يستطرد الجدل قائلاً بأنه على ذلك، وبما أن العلم صنيعة استعمارية، فمن الخطأ توقع أن ينمو في البلاد غير الغربية.

¹ موهال مدينة هندية، بها مصنع لشركة يونيون كاربايد للمبيدات الحشرية. حدث تسرب لحوالي ٤٠ طن من أحد مستحضرات غاز السيانور القاتل في ديسمبر ١٩٨٤ مما أسفر عن أكبر كارثة صناعية في تاريخ العالم. حيث تدل الإحصاءات على أن عدد القتلى الإجمالي حتى عام ٢٠٠٢ بلغ ٢٠,٠٠٠. (المترجم)

هل يعنى ذلك أن العالم الثالث يحتاج إلى علم خاص به ؟

يرى البعض ضرورة ذلك، مثل السيد سوسانتا جوناتيليك (Susantha Goonatilleke) المتقف السريلانكى المفوه. يشترك السيد جوناتيليك مع معاصريه مثل نصر وساردار، فى عشقه للفكرة الرومانسية القائلة بأن أعمق مصادر الحكمة لا توجد إلا فى تراث الماضى البعيد (مرجع ٦). مع الفارق الواضح، أنه يبحث عن هذه المصادر فى حضارات ما قبل الاستعمار فى دول جنوب آسيا، بدلاً من البحث عنها فى الأزمنة الإسلامية. هذا بالإضافة إلى تشابهه مع نصر وساردار فى اعتقاده بأن العلم الحديث يقترب بسرعة من مرحلة الانهيار التام، ولا يوجد لإنقاذه سوى الحكمة العميقة القديمة فقط. على ذلك يمكن البحث فى أساليب الطب القديم المعروفة باسم "أيورفيديك" (Ayurvedic) عن نقاط معينة لتتميتها، كما يمكن الربط بينه وبين المعرفة العلمية المعاصرة. كذلك يمكن العثور على التوجهات الحديثة فى علوم فيزياء الذرة والفلك، بالعودة إلى : "التقاليد التاريخية الغنية علماً وفكراً". مثل تلك التقاليد الخاصة بجنوب آسيا أو الصين" (مرجع ٧). بدون ذلك كما يقول جوناتيليك، سنظل، نحن سكان العالم الثالث، محكومين بعلوم مقلدة. يقع مركزها فى الغرب.

تصنّر من أن آخر تصريحات شاعرية مماثلة من المدافعين عن علم العالم الثالث، مما أدى إلى اجتماع بعضهم فى عام ١٩٨٦ بمدينة بينانج (Penang) فى مؤتمر دولى بعنوان : أزمة العالم المعاصر". أعلن المؤتمر أن العلم والتكنولوجيا المعاصرين مؤسسان على الخبرة والنظريات المعرفية الغربية، بالتالى فهما لا يصلحان لتلبية احتياجات العالم الثالث. كما تم التأكيد على أن أصعب جوانب المعركة، هو إجراء عملية عكسية للدخول من غسيل المخ الواقع على شعوب العالم الثالث من جراء اختراقات العالم الأول، وكذا، محاربة "العلماء المدربون بالخارج" حيث أنهم أكبر حاملى الجرائم والفيروسات الغربية، التى تبحث مجتمعاتنا عن أساليب للوقاية منها. (مرجع ٨)

رغم اختلاف الدوافع تماماً بين المطالبة بعلم مبنى على أساس سياسى، وعلم مبنى على أساس عقائدى، إلا أننى أرى أن كلاهما يتساويان فى عدم العقلانية. كل

الاعتراضات على العلم العقائدى تتطبق بالكامل على العلم السياسى. وأكرر، لا يوجد علم كهذا، كل المقترحات التى قدمت حتى الآن بشوبها الكثير من عدم الوضوح، كذلك فإن الكثير منها متعارض مع نفسه كما أنها لا تلقى أى قبول جماعى، إلا داخل مجموعات صغيرة من الأفراد، لا علاقة لمعظمهم بالعلم، بالإضافة إلى إلغائها لروح العالمية ولا داع لتكرار المناقشات المطولة بهذا الشأن، حيث سبقت الإشارة إليها فى فصول سابقة.

لهذه الأسباب، أعتقد أنه إذا نظر إلى علم العالم الثالث كمبحث عن نظرية معرفية جديدة، فهو مفهوم غير شرعى ولا يعدو كونه مضیعة للوقت، ولن تسفر ملاحظته إلا إلى الإسراع بمعدلات التخلف والفقر، وتدمير بيئة العالم الثالث. يختلف الأمر تمامًا، عند النظر إلى دور العلم المعاصر كعنصر أساسى فى تشكيل عدم المساواة بين الحضارات المختلفة. هذا التفاوت لم يتواجد فى الأزمنة السابقة، حيث لم تكن هناك حضارة مفردة، قوية بالدرجة التى نجعلها تتسید وتقلل من الآخرين، حتى ولد العلم الحديث فى أوروبا. أصبح واضحًا الآن، أن العلم، باعتباره أحد عناصر الإنتاج، فهو ممتاز حقًا فى العملية الإنتاجية، لكنه سىء للغاية فيما يتعلق بالتوزيع. حيث أن العدالة مفهوم يقع خارج دائرة العلم. إن الطبيعة التراكمية للعلم تشير إلى أن من يملك سيستمر فى امتلاك الأكثر، ومن لا يملك سيته إلى الأقل فالأقل. هذا الوضع يجعل من الضرورى خلق صیغة لتدخل واع يقوم بموجبه القطاع الإنسانى الذى يملك العلم، بمساعدة القطاعات التى لا تملكه. أما بالنسبة للدول النامية، فلا بد لها من امتلاك أدوات العلم والتمكن منه، بدلاً من المطالبة بهجره. ليس لهم سبيل آخر غير هذا، إذا أرادوا تأكيد احتمال استمرارهم فى البقاء، واستمرار تواجد الحضارة العالمية.

- 1- A. K. Brohi in 'Knowledge For What', Proceedings of the Seminar on the Islamization of Knowledge, Islamic University, Islamabad, 1982, p. xv.
- 2- Ibid.
- 3- Ibid.
- 4- M. A. Kazi in 'Knowledge For What', op. cit., pp. 67-8.
- 5- Z. Medvedev, The Rise and Fall of T. D. Lysenko, (New York, Columbia University Press, 1969), Also R. Lewontine and Richard Levins.' The Problem Of Lysenkoism', In The Radicalisation of Science, eds. Hillary Rose and Steven Rose, (London, Macmillan Press, 1976), pp. 32-64.
- 6- Susantha Goonatilake, Aborted Discovery- Science and Creativity in the Third World, (London, Zed Books, 1984).
- 7- Ibid.
- 8- Modern Science in Crisis- A Third World Response, (Penang, Third World Network and Consumers Association of Penang, 1988).

الفصل الثامن

نهضة العلم الإسلامي

يصور علماء التاريخ، العصور الوسطى على أنها حالة استثنائية من الظلام في تاريخ البشرية، لكن يبدو هذا التعبير قاصراً جداً حيث أنه يعبر فقط عن وجهه نظر بعض أبناء الحضارة الغربية. فالعصور السوداء كانت عصور أوروبا السوداء، لا العصور السوداء للبشرية كلها. في الحقيقة أن الحضارة الإسلامية كانت في أبهى صورها في الوقت الذي كانت أوروبا مشغولة فيه بحرق الساحرات ونزع أحشاء الهراطقة، وقد أقر كل المؤرخين المحترمين بالإنجازات الإسلامية المدهشة في تلك الحقبة. كما أوضح ذلك بجلاء المؤرخ جورج سارتون (George Sarton) في موسوعته عن تاريخ العلم:

"كانت اللغة العربية هي لغة العلم ولغة التقدم للبشرية، من النصف الثاني للقرن الثامن وإلى نهاية القرن الحادي عشر.... يكفي هنا الإشادة ببعض الأسماء اللمعة التي لم يكن هناك من يضاهيها في الغرب مثل جابر بن حيان والكندي والخوارزمي والفرغني والرازي وثابت بن قره والبطاني وحنين بن اسحق والفارابي وابن سنان والمسعودي والطبري وأبو الوفا وعلي بن عباس وأبو القاسم وابن الجزار والبيروني وابن سينا وابن يونس وابن الهيثم وعلي بن عيسى والغزالي والزرقلّي وعمر الخيام.....إذا قال لك أحد أن العصور الوسطى كانت عقيمة علمياً فانكر له هؤلاء الرجال، كلهم بزغوا في فترة قصيرة ما بين عام ٧٥٠ و ١١٠٠ (مرجع ١)

كذلك نشرت مجلة نيتشر "الطبيعة" (Nature) المحترمة في أحد أعدادها الحديثة مقالاً يحمل نفس وجهة النظر:

"أضاف العلم الإسلامي الكثير إلى العلم حين كان في ذروته منذ حوالي ألف عام. خاصة في مجال الرياضيات والطب. شيدت الجامعات التي توافد عليها الآلاف، في بغداد أثناء ازدهارها وفي جنوب إسبانيا. أحاط الحكام أنفسهم بحلقات

العلماء والفنانيين كما سمحت روح الحرية بعمل اليهود والمسيحيين جنباً إلى جنب،
أما اليوم فقد أصبح كل ذلك فى عداد الذكريات " (مرجع ٢)

جدير بالذكر أن كل هذا الثناء والإطراء المستحق عن جدارة، إنما هو ظاهرة
قاصرة على زمن القرن العشرين فقط، حيث يخلو ما سبق كتابته عن الشرق فى
القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أى شئ مشابه. كان السبب فى ذلك واضحاً،
إذ ظل الإسلام حتى الوقت الذى تحققت فيه السيادة الأوروبية بشكل حاسم، مصدرًا
للتهديد الأكبر - عقائديًا وعسكريًا - للمسيحية. بناءً على ذلك ظهرت الفرضية
المسيحية الدفاعية القائلة بأن النجاح الإسلامى ما جاء إلا كنتيجة لما يتضمنه من
عنف وشهوانية وخداع. كان هذا القول ملائمًا جدًا فى عصر بزوغ الاستعمار
التجارى، حيث ساعد على تخفيف وطأة شعور الأوروبيين بالذنب. كما أن تصوير
الدول المقهورة على أنها دول بربرية وجاهلة علمياً وثقافياً ساعد المهام
الاستعمارية وأظهرها (المهام) بمظهر الضرورة الأخلاقية. من ثم كان القمع
الشديد لأى مقولة نزيهة تحمل فى طياتها ما قد يشكك فى الفرضية المطروحة.

مع إحساس المسلمين المعاصرين العام بالنظرة الغربية المتمزئة تجاههم،
تولدت لديهم رغبة شديدة فى البحث عن صورة بديلة مستمدة من تاريخهم الثقافى
والحضارى. تحول تاريخ العصور الوسطى لديهم - بعد استخلاصه من كتب
التاريخ الجافة - إلى قصة للأمجاد الإسلامية السابقة، خاصة فيما يتعلق بالمنجزات
العلمية، ثم أصبح بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من الخيالات الحية للمسلمين المعاصرين
فى العالم أجمع. رغم مرور ألف عام، إلا أن البعض ما زال يعتقد بكل جدية
بوجود مفتاح الباب المؤدى إلى طريق عصر ذهبي جديد ملقى فى مكان ما على
الطريق المظلم المؤدى إلى الماضى. تمضى حجتهم قائلة بأننا إذا عرفنا ماذا حدث
فى الماضى من أخطاء، فسنعرف كيف نتصرف فى المستقبل.

لهذا السبب استمر النشاط المتأرجح عبر المائتى سنة الماضية وحتى الآن،
للبحث عن أسباب الانهيار الحضارى. لكن كما هى العادة فى حالة حدوث أية
خلافات مبنية على التحليل المنطقى للتاريخ فإن النتائج لا تعدو كونها مُصدقة
لما هو معروف بالفعل.

ينظر الأصوليون من أنصار مذهب الترميم (Restoration) إلى العصر الذهبي على أنه نوع من المكافأة الإلهية على السلوك القويم للمسلمين، حيث تفلح أمورهم وتزدهر. بنياهم طالما أقاموا صلواتهم في مواعيدها، وأدوا حجهم وصاموا شهر رمضان وأخرجوا زكاتهم وحرصوا على الالتزام بشعائر دينهم. وعلى النقيض، يُعزى التراجع والانهيار إلى ارتكاب المعاصي والردائل في قصور الخلفاء كشرب الخمر والغناء والرقص والاحلال الجنسي. على ذلك فإن استعادة أمجاد الماضي تقتضى العودة لفرض الشريعة والالتزام الصارم بشعائر الدين. من المؤسف في الأمر أن أزهى أزمنة التقدم الثقافي، جاءت في وقت حكام مثل هارون الرشيد والمأمون من المعروفين بتحررهم الذي كان موضع استياء شديد من الأصوليين المعاصرين لهم.

في المقابل نجد المسلم المعاصر من أنصار إعادة البناء (Reconstruction)، يبحث عن قيم مختلفة إذ يرى في الإنجازات العلمية الإسلامية السالفة دليلاً قوياً على توافق الإسلام والعلم، إذ يرى في العصر الذهبي حجة قوية مؤيدة للعديد من المواقف التي يحث فيها القرآن - كما تحث الأحاديث - على البحث عن المعرفة. أما هذا الحث، فيُفهم تحديداً كتعليمات لنيل المعرفة العلمية كما نعرفها اليوم بالمفهوم المعاصر، علماً بأنه أصبح من المؤلفات التأكيد على أن ٧٥٠ آية من القرآن (ما يقرب من ١/٨ منه) تحث المؤمنين على دراسة الطبيعة وملاحقة العلم الحديث. تستطرد المناقشات فتقول بأن النجاح العلمي في العصر الذهبي يثبت أن الإسلام يدعم العلم تماماً، كما أن السعي وراء العلم يعتبر من الواجبات الدينية، إضافة إلى كونه حاجة عملية.

نظراً للأهمية التي يمثلها تاريخ العلم في العالم الإسلامي القديم في تشكيل مستقبل العلم في الحضارة الإسلامية المعاصرة، فمن الضروري مناقشة عدد من المسائل المختلف عليها.

توجد ثلاثة من بين هذه المسائل على درجة خاصة من الأهمية:

- هل كان العلم الذى نماه المسلمون علمًا ذا طابع إسلامي، وعليه تحقق تسميته علمًا إسلاميًا ؟. أم أنه كان علمًا عالميًا وبالتالي تصبح تسميته بعلم المسلمين أكثر ملائمة.

- ما مدى صحة الأطروحة بأن العصر الذهبي للعلم تمت تنميته فى المقام الأول على أيدي العرب ؟ ثم ما مدى أهمية الدور الذى لعبه العلماء من غير المسلمين ومن غير العرب ؟

- هل قامت فعلاً المؤسسات الكبرى للمجتمع الإسلامى فى عصوره الوسطى بقبول العلوم العقلانية واستوعبتها واندجت معها ؟

سيشغل الاهتمام بهذه التساؤلات، الجزء المتبقى من هذا الفصل.

هل كان علمًا إسلاميًا أم علم المسلمين ؟.

ليس هذا تلاعبًا بالألفاظ بأى حال من الأحوال. فهل كان العلم الذى نماه المسلمون فى العصور الوسطى فريدًا فى ارتباطه بالعقيدة الإسلامية أم أن فرضياته وأساليبه كانت من أساسها نفس فرضيات وأساليب الحضارات الإنسانية الأخرى. هذه المحاولة لتمييز الحدود بين الخصوصية والعالمية تتساوى مع السؤال عما إذا كان يجب تسمية علم العصر الذهبى علمًا إسلاميًا أم علم المسلمين.

يرجع السبب فيما تحدثه هذه المسألة من لبس وارتباك إلى أن مفهوم العلم فى العصور الوسطى لم يكن بحال من الأحوال هو نفس مفهوم اليوم. فعلى سبيل المثال عرّف الغزالي العلم بأنه دراسة الشريعة، وهو ما يتعارض تمامًا مع استعمال اللفظ الآن. فى الواقع كانت هناك علوم كثيرة وقام العديد من علماء العصور الوسطى بتصنيفها فى طبقات متفاوتة. استأذنا إلى كتاب "إحصاء العلوم" للفارابى، يأتى علم الكلام والغيبيات فى نفس مرتبة علم الهندسة والبصريات. كذلك كان الحال مع شمس المولى (Shams Al-Muli) الذى قسم العلوم إلى قسمين علوم الأوائل (كاليونانيين والهنود) وتشمل الأخلاقيات والمنطق والموسيقى والفلسفة والرياضيات والفلك وغيرها، وعلوم الأواخر وتشمل الشريعة والصوفية

والتاريخ.... إلخ. وأما بالنسبة للغزالي فقد كانت له طريقته الخاصة فى تصنيف المعرفة. وفى جميع الأحوال لا تتسق أى من تلك التصنيفات مع مفهومنا الحالى للعلم.

لذلك وقبل الدخول فى مزيد من المناقشات، فلا بد من الاتفاق من البداية على مفهوم موحد عن العلم، وليكن المفهوم السائد فى زماننا. ساعثها يكون هناك معنى للسؤال عما إذا كانت إنجازات المسلمين فى الرياضيات والبصريات والميكانيكا والفلك والكيمياء والطب، يمكن الأخذ بها كتقدم للعلوم الإسلامية أم لعلوم المسلمين.

فى الرياضيات مثلاً، هل كانت المشاكل الرياضية التى اعتبرها عظماء الرياضيين المسلمين جديرة بالاهتمام، مختلفة عن المشكلات الرياضية التى تناولها غيرهم من المصريين الأوائل أو البابليين أو الهنود أو اليونانيين من قبلهم بآلاف السنين، أو اختلفت عما تلاها لعدة قرون؟. إن طبيعة الإنجاز فى هذا المجال تقف شاهداً على الحقيقة. فمثلاً استغل المسلمون معرفتهم بأساليب الترقيم الهندية ليبتكروا النمط المعروف والمستعمل حتى الآن للتعبير عن الأرقام العشرية. ولقد توصل جامشيد الكاشانى^١ (Jamshid Kashani) إلى النظرية ذات الحدين (Binomial theorem) وبذلك سبق نيوتن ب ٧٠٠ سنة ثم ان عبد الوفا (Abdul Wafa) قام بتأسيس قانون جيبوب الزوايا (Sines) فى حساب المثلثات، أما الخوارزمى فقام بتنظيم دراسة المعادلات الرياضية من خلال دراسته للجبر، كما ابتكر عمر الخيام حلاً هندسياً للمعادلات التكعيبية، وهلم جرا. (مرجع ٣). فأما الادعاء بأن الميل إلى الرياضيات مرتبط مباشرة بمسألة التوحيد الإلهى فتتصدى لها بديهية أن الحضارات الأخرى تناولت نفس الموضوع وتوصلت إلى رياضيات مماثلة. ومن

^١ غياث الدين جامشيد الكاشانى: المتوفى ١٤٢٩ ولد بكاشان بإيران، ارتحل إلى سمرقند حيث انضم إلى حلقة من العلماء هناك. عمل بأحد المراصد وأول من حدد قيمة النسبة بين محيط الدائرة وقطرها "ط" (pi) بدقة بالغة. عقدت جامعة كاشان مؤتمراً دولياً فى عام ٢٠٠٠ خصيصاً للاحتفال بذكره. (المترجم)

المؤكد أن فيثاغورث^١ (Pythagorus) أو ديوفانتس^٢ (Diophantus) لم يكونا من الموحدين بأي حال من الأحوال.

لا شك أن بعض أعمال الباحثين المنتمين للعصور الوسطى كان مرتبطاً بأمور تابعة من المعتقدات الدينية مثل أعمال الخوارزمي الذي خصص نصف كتاباته عن الجبر لمسألة الميراث، لكن لم يكن لتلك الأعمال قيمة استمرارية حيث إنها كانت محددة للغاية.

في الخلاصة لا يوجد في الرياضيات التي مارسها المسلمون ما يمكن تسميته رياضيات إسلامية. أما إذا كان هناك فرق يذكر فهو أن حضارة المسلمين تقدمت أفضل من غيرها على مدى الخمسمائة عام من عصرها الذهبي.

تتطبق نفس المقولة العامة السابقة على علم البصريات، ذلك أن أعمال ابن الهيثم المتعلقة بالعدسات وانعكاس الضوء كانت من بين الأمور التي شغلت بال العلماء من قبله ومن بعده. لكن ستظل مكانته محفوظة في التاريخ حيث كان أول من اكتشف بعض الظواهر البصرية. لا شك في أن الفضل في ظهور رجال من هذا النوع يرجع إلى الحضارة الإسلامية ولكن لا علاقة له مطلقاً بأية تعاليم دينية. من المؤكد كذلك أن هذه الحقيقة لا تلقى ترحيباً من الأصوليين حتى في أيامنا هذه.

^١ فيثاغورث (Pythagorus) ولد بجزيرة ساموس باليونان حوالي عام ٥٧٠ قبل الميلاد. ارتحل إلى مصر في سن الثالثة والعشرين حيث قضى بها ٢١ سنة، عاد بعدها إلى بلاده ليؤسس مدرسة كبيرة. ربط بين الآلهة والأرقام، وتوفي في سن ٩٩. (المترجم)

^٢ ديوفانتس (Diophantus of Alexandria) من علماء الإسكندرية. توفي حوالي عام ٢٨٤ قبل الميلاد. سجل أكثر من ١٠٠ معادلة رياضية مازالت مستعملة ومعروفة حتى الآن باسمه (Diophantine equations) ويلقب بـ أبو الجبر. لم يبق من أعماله إلّا ١٣ سوى ٦ مجلدات وضاعت أو أحرقت باقي المجلدات أثناء حرق مكتبة الإسكندرية. (المترجم)

تمشياً مع ذلك نشرت إحدى المجلات الممولة من السعودية والتي تصدر في لندن، مقالا تصف فيه أعمال ابن الهيثم وغيره من المسلمين العقلانيين، بأنها مجرد " امتداد طبيعي ومنطقي للفكر اليوناني " فلا عجب أن ابن الهيثم كان معتبرا من الزنادقة وكاد ان يُنسى تماماً في العالم الإسلامي" (مرجع ٤).

لعله من السخف أن يُنظر إلى الآراء العلمية لأحد العلماء المسلمين على أنها مرتبطة بالضرورة بعقيدته الدينية أو بأنه يستمد إلهاماته العلمية من وحي إيمانه. يصح هذا القول على ما كان من ألف سنة مضت، كما يصح الآن، ويتمثل ذلك جيداً في مجال الكيمياء القديمة (Alchemy) التي تعتبر من أهم المجالات التي أسهم فيها المسلمون. حيث قام جابر ابن حيان والرازي بتطويرها استناداً على الخرافات السابقة التي تعود إلى أريوس^١ (Arius) وفيثاغورث. أصبح بديهيًا النظر إلى الكيمياء القديمة كضرب من ضروب الهراء العلمي، فلا يمكن وجود شيء كحجر الفلاسفة، كذلك من المستحيل تحويل بعض المعادن مثل النحاس والقصدير إلى ذهب أو فضة باستعمال الأساليب الكيميائية. على أية حال مع مضي الزمن، ظهرت الأهمية البالغة للكيمياء القديمة باعتبارها جنيهاً للكيمياء الحديثة. حيث تعرّف العلماء القدماء على أهمية خلط المواد بمقادير محددة، كما تعرفوا على خصائص الأحماض والقلويات، وقابلية بعض العناصر لبعضها البعض..إلخ. جدير بالملاحظة أن كل ذلك جاء كمنتجات ثانوية عن طريق المصادفة السعيدة لأعمال كانت تهدف أساساً إلى أشياء أخرى. تأسسنا على ذلك يصبح من المؤكد خطأ مقولة إن كيمياء المسلمين القديمة استمدت وحياً من الإسلام.

^١ أريوس: (٢٥٦-٣٣٦) يعتقد أنه من أصل ليبي من البربر مؤسس المذهب الآرياني المسيحي الذي نبذته الكنيسة. تم تدمير معظم أعماله بواسطة أعدائه من الكنيسة الكاثوليكية واتهم بالهرطقة. ألف كتاباً يضم بعض الأغاني لنشر مذهبه وكان له مؤيدين كثيرين من بين النساء بصفة خاصة. توفي بطريقة مريبة وهو في طريقه لمقابلة الإمبراطور قنسطانطين. (المترجم)

هل كان العلم فى العصر الذهبى علماً عربياً؟

خلال الجدل المشهور الذى دار فى القرن التاسع عشر بين الفرنسى الإسلامى إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى المعروف بإسلامه العصرى، العلمى. احتج رينان بأن العلم والفلسفة لم يتم فقط إدخالهما إلى العالم الإسلامى بواسطة العلماء غير العرب. بل إليهم أيضاً يرجع الفضل فى رعاية تلك العلوم واستمراريتها. كما أبرز حقيقة أن الكندى^١ - الفيلسوف الشهير - كان العربى الوحيد بالميلاد. على ذلك يؤكد رينان خطأ استعمال تعبير " علم عربى " أما الصحيح فالقول بأن منبع العلم والفلسفة يرجع إلى اليونانيين والفرس. (مرجع ٥).

ترددت مقولات مشابهة فى مواقف أخرى كثيرة. على ذلك يصح بحث المسألة بشيء من التفصيل خاصة فيما يتعلق بكيفية دخول العلم إلى المجتمع الإسلامى وكيفية تطوره بعد ذلك كما سنعرض رد الأفغانى على مقولة رينان السابقة.

تمهيداً لما سيلي من مناقشة، يفضل تقسيم تاريخ العصور الوسطى الإسلامية إلى أربعة فترات: ما قبل عام ٧٥٠ (فترة التكوين) من عام ٧٥٠ إلى عام ١٠٠٠ (الفترة العباسية التقليدية) من عام ١٠٠٠ إلى ١٢٥٠ (العصور الوسطى) ثم من عام ١٢٥٠ - ١٥٠٠ (العصور الوسطى المتأخرة).

لم يكن هناك علم أو فلسفة خلال فترة التكوين، حيث كان دخولهما أساساً فى العصر العباسى التقليدى. (يراعى أن بعض الترجمات لعلوم الكيمياء القديمة والفلك والطب تمت بناء على مبادرة من الأمير خالد بن زياد (المتوفى عام ٧٠٤)

^١ الكندى (٧٩٦-٨٧٣) تعلم بالكوفة على يد الإمام أبى حنيفة النعمان ويعتبر أول فلاسفة العرب والمسلمين وهو أول من عارض الاشتغال بالكيمياء من أجل الحصول على الذهب، كما بحث فى نشأة الحياة على الأرض وفى أسباب زرق لون السماء وأول من وضع سلماً موسيقياً للموسيقى العربية، وألف ما يربو على ٢٧٠ مؤلفاً. (المترجم)

فى العصر الأموى، حيث حول اهتمامه إلى الكيمياء القديمة عندما فشلت مطالبته بالخلافة). كانت تلك الفترة، فترة انشغل الإسلام فيها بشدة فى التوسع الإقليمى والنمو التجارى. كذلك خلق الانتعاش الاقتصادى الناتج من النشاط التجارى والانتصارات الحربية، طبقة من الأثرياء المستقرين فى ديارهم ممن لا تشغلهم المهام الدنيوية لكسب لقمة العيش، وبالتالي أصبحوا قادرين على الخوض فى مسائل تحتاج إلى درجة أعلى من التعقيد الثقافى. هنا بدأت رعايتهم للفنون والعلوم.

بدأ الحدث التاريخى على أيدي علماء، معظمهم من غير المسلمين، حيث قاموا بترجمة وتصنيف أعمال اليونانيون فى العلم والفلسفة والطب. كانت الخطوة الأولى فى مدينة جوندشاپور¹ (Jundishapur) بفارس، ثم انتقل النشاط بعد ذلك إلى بغداد. يشير "صبره" Sabra (مرجع ٦) إلى أن معظم المترجمين كانوا من المسيحيين النسطوريين الذين حملوا معهم عادة التعليم فى المدارس والأبيرة المنتشرة فى الشرق الأوسط ووسط آسيا. من أعظم المترجمين وقتها كان حنين بن اسحق² الذى قاد مجموعة من المترجمين، ضمت ابنه اسحق الذى تولى ترجمة جزء كبير من الأعمال اليونانية فى الطب والفلسفة والرياضيات، كما كان هناك

¹ جوندشاپور: مدينة فارسية بالأهواز، أسسها الملك شاپور الأول. رحل إليها الكثير من علماء اليونان وفلاسفتهم عندما أمر جستينيان بإغلاق مدرسة أثينا فى عام ٥٢٩، جعل منها الملك شاپور الثانى عاصمة له، وذاع صيتها أيام حكم خسرو أنوشىروان الذى دعا إليها الفلاسفة والعلماء والأطباء. وبها تمت ترجمة كتاب كليلة ودمنة من السنسكريتية إلى الفارسية، وبها جمعت كل الكتب الطبية التى كانت معروفة أيامها، كما أنشئ بها أول مستشفى تعليمى. (المترجم)

² حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٨٧٧) ولد بالحيرة وتعلم العربية على يد الفراهيدى وبرز فى طب العيون وسمى بـ "أبو طب العيون" طب العيون وكان من كبار المترجمين حتى أن الخليفة المأمون كان يمنحه من الذهب ما يساوى وزن ما يقوم بترجمته. (المترجم)

ثابت بن قرة^١ من صابئة حران، الذى جاء بثقافة وثنية متأثرة بالتنجيم وألغاز فيثاغورس. هذا بالإضافة إلى عدد من المترجمين الكبار مثل أبو بشر متى ويحيى بن عدى من اليعاقبة، كما كان هناك غيرهم من الهنود من الأصل البوذى، الذين شكلوا الروح الدافعة لتأسيس بيت الحكمة وادخلوا علوم الطب والرياضيات والفلك الهندية قبل إجراء الترجمات من اليونانية. اتسمت تلك المرحلة الأولى لنمو العلم فى الإسلام باستيعابها للمعرفة المستوردة ولعب فيها المسلمون أدواراً ثانوية كـمترجمين فقط.

يمكن اعتبار مقولة رينان صحيحة إلى حد بعيد إذا كان المقصود بإشارته السابقة، تلك الفترة الأولى التى لم تكن إسهامات علماء المسلمين فيها ذات وزن يذكر. جدير بالذكر أنه ما كان لأعمال الترجمة أن تتم لولا الدعم الكامل والتشجيع المستمر من النخبة المسلمة الحاكمة. مما لا شك فيه أن بلاط الخليفة وبيوت النبلاء استقبلت العديد من الحكماء والعلماء من مختلف المذاهب واعتبرتهم من الوجهاء. لم يكن الأمر قاصراً على مجرد استقبالهم وتحملهم، بل جرت العادة على احترامهم وتوقيرهم، ثم امتدت بعد ذلك جذور العلم بسرعة فى الأراضى الإسلامية التى أحاطتها بمناخ مناسب من الحرية والفكر الدينى المنفتح.

دخل العلم مرحلته الثانية من النمو فى العصور الوسطى العليا التى اكتملت فيها أعمال الترجمة وأصبحت اللغة العربية حينذاك، لا اليونانية، وعاءاً للفكر الثقافى. وعلى النقيض من المراحل السابقة، أصبح معظم العلماء فى الأراضى الإسلامية من المسلمين. أفرزت الحضارة الإسلامية وهى فى قمتها، علماء مسلمين مثل ابن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩) والبيرونى (٩٧٣ - ١٠٥١) وعمر الخيام (١٠٣٨ - ١١٢٣) ونصير الدين الطوسى (١٢٠١ - ١٢٧٤) ولا تتسع المساحة هنا لسرد إسهاماتهم العلمية^٢.

^١ ثابت بن قرة (٨٣٦-٩٠١) بزغ فى الرياضيات حتى سُمى برائد علم التكامل والتفاضل. (المترجم)

^٢ أوجه نظر القارئ الراغب فى الاستزادة فى تلك الناحية إلى كتاب الأستاذ سليمان فياض بعنوان عمالقة العلوم التطبيقية وإنجازاتهم العلمية فى الحضارة الإسلامية ، الصادر عن الهيئة المصرية للكتاب ضمن مجموعة مكتبة الأسرة فى عام ٢٠٠١. (المترجم)

انتقل الكثير من تلك المعارف إلى أوروبا في عصر النهضة حيث إن روجر بيكون (السابق الإشارة إليه) بدأ تجاربه - رغم عدم رضا الكنيسة - اعتماداً على أبحاث ابن الهيثم في البصريات. كذلك يذكر أن الترجمة اللاتينية لكتاب ابن سينا " القانون في الطب " كان بمثابة المرجعية الأساسية للطب في أوروبا ودام العمل به وتدريسه في الجامعات الأوروبية لعدة قرون، كما يُعد ابن رشد أول فلاسفة الإصلاح. تجدر العودة الآن إلى رد جمال الدين الأفغانى على مقولة رينان.

في البداية أشار الأفغانى إلى أنه بالرغم من الأصول الجاهلة والبربرية للعرب، فإنهم نهضوا وأخذوا ما تركته الأمم المتحضرة وأوقدوا جذوة العلوم. لم يهتم الأوروبيون بأرسطو حين كان جاراً يونانيا لهم، ورحبوا عندما هجرهم وتوجه إلى العرب. ثم يستطرد الأفغانى قائلاً بأنه لا جدال في أن انهيار مملكة العرب في الشرق تسبب في وقوع مراكز العلم الشامخة - كما في العراق والأندلس - في قبضة الجهالة مرة أخرى، حيث تحولت تلك الأماكن إلى مراكز للهوس الدينى. بالرغم من ذلك فلا يمكن إنكار أن التقدم العلمى والفلسفى فى العصور الوسطى، إنما تم على أيدي العرب الذين حكموا البلاد في ذلك الوقت. ثم يتحول الأفغانى للرد على ادعاءات رينان بشأن قلة عدد علماء المسلمين العظام ممن يرجعون بأصولهم لجذور عربية:

" قال رينان إن الفلاسفة في القرن الأول للإسلام، وكذلك رجال الدولة المشهورين جاءوا من حران ومن الأندلس ومن إيران، كما كان بينهم رهبان من خراسان ومن سوريا. لا أود أن أنكر القيمة العالية للعلماء الفرس ولا الدور الكبير الذى لعبوه فى العلم العربى ولكن اسمح لى بأن أذكر أن الحرانيين عرب، كما أن العرب لم يفقدوا قوميتهم عند احتلالهم لإسبانيا والأندلس، وظلوا عرباً. كانت اللغة العربية هى لغة أهل حران لعدة قرون قبل الإسلام، أما حقيقة أنهم حافظوا على عقيدتهم السابقة فلا يعنى اعتبارهم أغراباً عن القومية العربية. كذلك كان الوضع أيضاً مع الرهبان السوريين، فقد كان معظمهم من الغساسنة العرب الذين اعتنقوا المسيحية.

أما بالنسبة لابن باجه وابن رشد وابن طفيل والكندي، فلا أحد يستطيع القول بأنهم ليسوا عربًا بسبب مولدهم في أراضى غير الجزيرة العربية... وإذا صح الزعم بانتماء كل الأوروبيون إلى نفس القطيع، فمن العدل النظر إلى السوريين والحرانيين - وكلاهما من أصل سامى واحد - على أنهم ينتمون بحق إلى العائلة العربية الكبيرة (مرجع ٧).

تجدر إضافة جزئية هامة هنا أغفلها الأفغانى فى مقاله وهى أن لغة العلم كانت اللغة العربية بغض النظر عن المكان الذى جاء منه العالم، أما الكتابات الفارسية فكانت -بشكل عام- تحمل طابع التقديم للأعمال حيث كانت كل الأعمال الجادة بالعربية.

رد رينان على الأفغانى ونُشر رده فى نفس الجريدة فى اليوم التالى كما أعيد نشره من خلال الكتاب الذى لفته كيتى عن الأفغانى. يقر رينان فى مجمل رده، بعدالة رأى الأفغانى المبنى على الحجج العقلانية المتوازنة، ويفوز الأفغانى ببراعة فى هذه الجولة من الجدل على رينان، خاصة وأنه (الأفغانى) لم ينكر إسهامات غير العرب أو غير المسلمين.

فى ظل الخلاف المشهور الذى كان قائمًا بينهما تجدر الإشارة إلى توافقهما المدهش عندما تناولا مسألة أخرى _ سبق التعرض لها- حول عرقلة المعتقدات الدينية للفكر الحر ومسيرة العلم.

هل كان العلم مقبولا من مجتمع العصور الوسطى الإسلامية ؟

تقف على درجة كبيرة من الأهمية مسألة استكشاف مدى تقبل المؤسسات فى مجتمع العصور الوسطى الإسلامية للعلم العقلانى، ومدى استيعابه والامتزاج به ونقله. حيث نتيج لنا تلك الأمور التعرف على الحجم الذى شغله العلم كجزء من المجتمع.

فى البداية تجب الإشارة إلى أن العلم قد لعب أدوارًا مختلفة تمامًا فى كل المجتمعات التقليدية بما فى ذلك مجتمع القرون الوسطى المسيحية. تعودنا فى زمننا

المعاصر على النظر إلى العلم ككيان كبير يضم العديد من الأخصائيين المتفرغين لأداء مهام غاية في التخصص، يتواصلون عادة بلغة لا يفهمها أحد من خارج مجال التخصص. يخلق هذا الكيان كما يُخلق بواسطة المؤسسات الكبيرة في المجتمع المعاصر. كل المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية نشأت وتطورت حول المنجزات التكنولوجية الكبرى، كما يتم تعريف الحضارة إلى حد بعيد بالعلم.

لم يكن الأمر كذلك في الأزمنة الأولى من التاريخ. من الملاحظ أن جميع الحضارات السابقة بما فيها الحضارة الإسلامية، اختلفت دوافعها لممارسة العلم، كما اختلفت أساليبها في استخدامه عن النمط الذي نمارسه اليوم. بطبيعة الحال توجد بعض المساحات المشتركة، فكلًا من العلم القديم والحديث يبدآن من خاصية بشرية واحدة، ألا وهي غريزة حب الاستطلاع. ظواهر كثيرة أدهشت الإنسان منذ الأزمنة الغابرة، مثل خواص الأرقام الغريبة والخسوف وموجات المد والجزر، والاتساع الفائق للمجرات، وتعقيدات الجسم البشري. لاشك أن الرغبة الملحة للمعرفة، بالإضافة لقدرة العقل البشري على التحليل والتجريد كونا الركائز الأساسية لكل العلوم. وبما أن هذه القوة المحركة كانت موجودة عبر العصور، وغفّتها كل المجتمعات، فلا بد وأن يسح القول بأن العلم موجود منذ وجود الإنسان ذاته.

من الملاحظ عدم وجود علاقة قوية بين العلم والتكنولوجيا في الحضارات القديمة بما فيها الحضارة الإسلامية. يبدو ذلك واضحًا من ندرة وجود مردود واضح للعلم القديم في صورة إدخال أي تحسين على أساليب الزراعة أو المساكن أو الملابس أو حتى الأسلحة الحربية. يرجع السبب في ذلك إلى طبيعة التكنولوجيا التي كانت مستعملة آنذاك حيث كانت في الأساس تكنولوجيا تجريبية مصممة لخدمة غرض معين وبلا خلفية علمية راسخة. اقتصر دور العلم إلى حد بعيد على مجرد تعلم الكتب ومناقشتها، دون البحث عن اختبارات قابلة للاستعمال العملي. يشير ذلك، بالإضافة إلى أمور أخرى، إلى أن التقدير العميق لإمكانيات

العلم الإسلامى لم يكن متاحا فى إطار الحضارة التى أفرزته واحتضنته. مما لا شك فيه أن تنظيم الجبر الذى أنجزه الخوارزمى كان رائعا فى حد ذاته كما أصبح علامة تاريخية من علامات الطريق إلى الفكر التجريدى. لكن الاستعمالات المحتملة لذلك العلم وتلك الرياضات لم تكن واضحة بأى شكل من الأشكال فى ظل تلك الفترة الجينية للنمو الثقافى والمعرفى. استمر الأمر على ذلك حتى مولد الحضارة الحديثة فى أوروبا، حين تم الربط المباشر بين الرياضيات والتكنولوجيا. إحقاقا للحق فإن التكنولوجيا الحديثة اعتمدت فى بدايتها على العبقريّة التجريبية، أما التكنولوجيا المبنية على أساس تطبيق العلم فلم تنشأ حتى القرن التاسع عشر. معظم الاختراعات التجريبية سبقت تطور العلوم النظرية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. على سبيل المثال جاءت الآلة البخارية أولاً ثم تلاها تطور علوم الديناميكا الحرارية. بناءً على ذلك لم يكن للعلم والرياضيات تطبيق مباشر على مجالات اهتمام مجتمع العصور الوسطى الإسلامى. كانت هناك بعض الاستثناءات لكنها فى مجملها هامشية إلى حد بعيد، مثلاً ظهر الاحتياج إلى بعض الرياضيات الأساسية فى بعض المجالات مثل المسائل التجارية وحصر الأراضي ورسم الخرائط، على ذلك تم إدخالها ضمن مناهج التعليم فى المدارس. كذلك ظهرت الحاجة إلى استعمال بعض الرياضيات لتحديد اتجاه القبلة (مكة) من مختلف بقاع الأرض ولوضع الجداول الخاصة بتحديد مواعيد الصلاة، إذ أن " المؤقت " (الرجل المنوط به تحديد أوقات الصلاة) كان يلجأ أحيانا إلى حساب المثلثات والجبر لمعاونته فى مهمته. توجد أيضا بعض الأمثلة العابرة فى مجال الهندسة والحياة المدنية كما حدث عندما طلب الخليفة الحاكم من ابن الهيثم إقامة السدود على نهر النيل للتحكم فى مياهه والقضاء على مشكلة الفيضان والتحاريق. للأسف باء هذا المشروع بالفشل بسبب عدم وجود تكنولوجيا مناسبة فى ذلك الوقت لنقل التربة. مع إلغاء الاحتمال بأن تكون التكنولوجيا هى الدافع الأساسى لنمو العلم فى مجتمع العصور الوسطى الإسلامى، يبقى السؤال قائما عن الأسباب التى يمكن إرجاع ازدهار العلم إليها فى ظل الإسلام.

يتمثل أحد أهم الأسباب في رعاية الخلفاء والأمراء الذين فتتهدم التعليم والعلم بدرجة تفوق التصور، ولم يمكن تقدير مدى جديتها، حتى من قبل الفرنسيين الأرستقراطيين في عصر النهضة الأوروبية، حيث تنافس الحكام في استقطاب أفضل العلماء وضمهم إلى بلاطهم، انضم الكندي إلى بلاط الخليفة المأمون، وفخر الدين الرازي إلى بلاط السلطان محمد بن طقوش، وابن سينا كطبيب لأمرأء كثيرين، وابن الهيثم كمستشار للحاكم وابن رشد في رعاية المنصور... الخ.

ارتبط عملنا جميع العلماء في ذلك الوقت بالبلاط الحاكم، الذي أضفى عليهم الشهرة المهنية والمكانة الاجتماعية الرفيعة، كما هيا لهم المكتبات والمراصد وأخيرًا ولعله أهم الأمور، أمدهم بالرواتب المالية السخية. إضافة إلى ذلك كانت رعاية الخلفاء مهمة للغاية لإبعاد مضايقات المتطرفين الذين رأوا في أعمال العلماء ضربًا من البدع والزندقة. يحق القول بأنه لم يكن ممكنا ظهور العصر الذهبي للإسلام دون تلك الحماية.

على جانب آخر كانت تلك الرعاية من أخطر نقاط الضعف في تشكيل العلم الإسلامي حيث تدخلت الميول الخاصة للرعاة، وحظ ومستقبل السلالة الحاكمة حينها، ومكائد حياة البلاط. فعلى أساس كل ذلك، تحدت توجهات تنمية التعليم ومصائر العلماء. كان تغيير الحكام يمثل كارثة لحاشية وعلماء البلاط السابق. على سبيل المثال، اضطر الكندي وأقرانه من العلماء العقلانيين الذين ترعرعوا في بلاط الخليفة المأمون إلى الفرار للنجاة بحياتهم عندما تولى الخلافة من بعده الخليفة المحافظ المتوكل، حيث أغلقت كل المدارس ومجالس العلماء، كما أدين الأدب والعلم والفلسفة، وجرى تعقب العقلانيين في كل مكان بأوامر من بغداد. يُذكر أن فرار العلماء لم يكن دائما بسبب خلافات عقائدية، يبدو ذلك واضحا من تاريخ ابن سينا الذي يظهر أن حياة الطبيب تتعلق بخيط رفيع خاصة إذا أصيب أحد أفراد العائلة الحاكمة بمرض لا شفاء منه. أما مسألة هروب ابن سينا ممتطيا فرسه في منتصف الليل متخفيا أحيانا في زي الدراويش، ثم رحلته متقلًا من بلاط إلى آخر، فتشبه رواية قصصية مليئة بالأحداث المثيرة.

فى الخلاصة يبدو أن العلم وكل ما يتبعه من تعليم مدنى ظل قاصراً على الطبقة العليا المستتيرة فى المجتمع الإسلامى ويبدو هذا الاستنتاج معقولاً فى ظل ما يلى:

١- كانت التطبيقات العملية المحتملة للعلم، بمعنى الأساليب المبنية على الأسس النظرية، قليلة جداً بحيث لم يكن لها أية مردود ذو قيمة على التكنولوجيا فى ذلك الحين. كذلك لم يخلق العلم أية مؤسسات لها قيمة اقتصادية، أو يؤلد أية نشاط اقتصادى محسوس، كما لم ينتج عنه أى تجمع لذوى الخبرة. بالتالى لم تكن هناك حاجة حقيقية لانتقاله إلى الناس.

٢ - رغم أن الرعاية المكفولة من البلاط تستحق كل الإشادة، فأنها عنت أن المهمة الأساسية للعالم كانت إرضاء راعيه فى المقام الأول. حيث لم تكن هناك قيمة ترجى من الناس العاديين.

٣ - لم يترك إبعاد العلوم العقلانية من مناهج التعليم فى المدارس التقليدية أية آلية مؤسسية قادرة على نشر العلوم فى المجتمع.

٤ - حوت كتابات الفلاسفة العظام مثل الكندى وابن سينا والرازى وابن رشد إلخ ازدياداً مقروناً بالخوف من الجماهير الجاهلة. حيث جرت عادة هؤلاء الفلاسفة على مناصرة بعض الحقائق بطريقتين مختلفتين، تتناسب إحداها مع ميول الجماهير فى حين تتناسب الأخرى مع ميول النخبة الحاكمة. كان ذلك ضرورياً للإبقاء على أنفسهم، وتطبيقاً محسوباً لمبادئ النقية، حيث لم يكن من الصعب على المشايخ المتطرفين استثارة الجماهير ضدهم. لكنهم فى ذات الوقت كانوا مقتنعين بأن الإسلام يملئ عليهم دراسة العلم والفلسفة. رغم أن هذا رأى كان رأى الأقلية فإنه كانت له أهميته الخاصة فى سياق ذلك المجتمع.

فى ظل ما سبق من مناقشات يصبح من المقبول استخلاص أن العلم كان قائماً على دوافع شخصية للعلماء كأفراد، كما كان مدعوماً بالنخبة الحاكمة المستتيرة.

أما الجماهير فكانت بعيدة تمامًا عن ذلك الإطار. يبقى بعد ذلك اللغز المحير وراء بقاء هذه العلوم لما يقرب من الستمائة عام، وهي فترة تزيد كما أشار سارتون عن بقاء أى من العلوم اليونانية أو علوم القرون الوسطى المسيحية أو حتى العلوم الحديثة. أما كيف استطاع الأفراد دعم استمرارية هذا العلم طوال هذه السفين فشيء غير مفهوم حقًا.

- 1- George Sarton, Introduction to the History of Science, Vol. 1, (New York, Krieger, 1975), p. 17.
- 2- Francis Ghiles, ' What is Wrong With Muslim Science' Nature, 24 March 1983.
- 3- For references, see S. H. Nasr, Islamic Science-An Illustrated Study, (Kent, World of Islam Publishing Company, 1976), p. 81.
- 4- Javed Ansari, 'This is a Formula for Islamic Scientific Impotence', Arabia: The Islamic World Review, London, 20 April 1983.
- 5- Ernest Renan, L'Islame et la science, (Paris, 1883),p.17, quoted in Nikkie R. Keddie, An Islamic Response to Imperialism, (Berkeley University of California Press, 1983), p. 85.
- 6- A.I. Sabra, 'Greek Science In Islam', History of Science, XXV, (1987), p.223.
- 7- Jamaluddin Afghani, 'Journal des Debats', May 18, 1883, quoted in Kiddie, op. cit. p. 185.

الفصل التاسع

الأصولية الدينية في مواجهة علم المسلمين

ليس التاريخ علماً بأى حال من الأحوال، فعلى عكس الفيزياء، التى تتحدد فيها النتائج بمعرفة المعطيات والبيانات الأولية، فى التاريخ مهما بلغ حجم المعلومات التاريخية السابقة، فلا يمكن التنبؤ، بأى قدر من التأكد، بما يمكن حدوثه فى المستقبل. كما أن منهج السببية فى التاريخ محفوف بالمخاطر (السببية هو الاعتقاد بأن لكل علة أو حدث سبب) حيث أن القاعدة الرئيسية تفترض أن توفر الأسباب المتماثلة سيؤدى حتماً لنفس النتائج (الأحداث). من ناحية أخرى، ترتفع بعض الأصوات المنادية بعدم جدوى دراسة أسباب التاريخ، أو تفسيراته، وأنه ليس للتاريخ دروساً. يحتم القبول بهذا رأى، لفظ كل التجارب الإنسانية المتراكمة. كما يحتم إرجاع كل الأحداث - صغرت أو كبرت - إلى المشيئة الإلهية، أو إهمالها تماماً باعتبارها نوعاً من أنواع المصادفة. بناء على ذلك يصبح الماضى، بل والحاضر أيضاً، بلا ترابط، وبلا معنى.

إذا أخذنا فى الاعتبار حالة الضعف والانهييار التى حدثت للعلم أثناء الحضارة الإسلامية - وخصوصاً، فيما يمكن أن يكون له علاقة بحالة العلم الحالية فى الإسلام - فإن المرء يستطيع أن يجزئ أن هذه الحلقة التاريخية المحددة تقع خارج إطار التحليل والنقد، أو ببساطة شديدة هى تعبير عن وحي إلهى مقدس. إذا كانت تلك هى الحالة، فلا جدوى من المزيد من المناقشة. من ناحية أخرى، قد يرغب المرء فى البحث عن أسباب الانهييار، واضعين فى الاعتبار أنه من غير المتوقع أن تتفق جميع الآراء على أسباب معينة. فمن المعروف أنه إذا طُرح سؤال محدد على مجموعة من أساتذة التاريخ وطلّبت منهم إجابة، فسوف يقوم كل منهم بإلقاء شبابه فى نفس بحر وقائع التاريخ، ليخرج كل منهم بمنظومة مختلفة، سيتركز تفسير البعض حول العوامل الخارجية والهزائم الحربية، مثل غزوات المغول، أو سلب بغداد أو الحروب الصليبية إلخ... أما وجهة نظر الأساتذة الأصوليين. فالأسباب ترجع فى المقام الأول لاختفاء القيم الإسلامية.

بدلاً من إرجاع أسباب الانهيار إلى سبب واحد، سأبدى ملاحظة يبدو أن لها سنداً قوياً من التاريخ، حيث تزامن انهيار العلم في الحضارة الإسلامية مع تصاعد التيارات الدينية المتكلسة، التي أعاققت وجود المؤسسات المدنية واستمراريتها. هذا لا يعنى تحديد رد الفعل الأصولى ضد العلم، كسبب منفرد، خاصة أنه لا يمكن استبعاد العناصر الاقتصادية والسياسية من المشكلة. لكن من المؤكد أنه بتعالى أصوات عدم السماحة، والتعصب الأعمى، تراجعت العلوم المدنية أكثر فأكثر. حتى انتهى العصر الذهبي للنبوغ الإسلامى فى القرن الرابع عشر، وتحول صرح العلم الإسلامى إلى أنقاض.. ثم صارت الحضارة الإسلامية من حينها، وجوداً لزجاً متشبثاً بماضيه الذى كان يوماً ما رائعاً وجديداً.

يحتاج الوصول إلى جذور رد الفعل الأصولى ضد العلم، إلى عودة سريعة إلى القرن الأول للإسلام منذ ١٣٠٠ سنة.

أمدت ديانة الإسلام الجديدة العرب بهوية واحدة، ووعى جديد، ونظرة عالمية، متخطية بذلك الفواصل القبلية والعرقية الضيقة. استحوذ المسلمون فى ظل الثورة الحضارية التالية، على العديد من الكنوز الثقافية الخلابية من مختلف الحضارات القديمة، مثل الفلسفة والعلم اليونانيين، والأدب الفارسى، وعلوم الطب والرياضيات الهندية، بالإضافة إلى بعض جوانب العلوم المصرية والبابلية، ومنها ما لم يعلم به حتى اليونانيون أنفسهم. عُرِفَت تلك العلوم، بعلوم ما قبل الإسلام، أو علوم الأوائل، واشتملت على كل ما كان متاحاً من معرفة، فى الطب والفلك والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية ونظرية الموسيقى وعلوم السحر والتنجيم. كان علم الأوائل بمثابة مخزوناً ضخماً للكنوز الثقافية، من ثم تمثل التحدى فى القدرة على استيعاب عناصر العلوم المدنية بواسطة العقيدة الإسلامية، وقد تم هذا فى وقت قصير بالفعل. سارع العلماء المسلمون فى البداية وهم فى غمرة نشوتهم من تمكنهم من اللغة اليونانية ومنطقهم القياسى، باستعمال ذلك فى مجادلاتهم الدينية، ظهر أول تطبيق لذلك فى الجدل الذى اشتعل بين أنصار حرية الإرادة (التدرية) من ناحية وبين أنصار فكرة أن كل شئ مقدر مسبقاً (مذهب الجبرية) من ناحية أخرى.

وقف المناصرون لمبدأ حرية الإرادة في جانب، وهم الذين استعملوا تفسيراتهم الخاصة للنصوص المقدسة مدعومة بأسلوب أرسطو القياسى بخوض معركة الإرادة الحرة للإنسان وقدرته على الاختيار. قام جدلهم، مدعوماً بالآيات القرآنية، على أساس أن الإنسان قادر على اختيار ما يشاء من بين العديد من البدائل المتاحة له. لم يكن لتلك المحاوراة هدف ديني فقط، بل كانت لها أبعاد سياسية أيضاً، فالاعتقاد بأن الإنسان مفطور على حرية الإرادة والقدرة على الاختيار قد يعنى، بجانب أشياء أخرى، أن حكم الطغاة - وتعنى هنا حكم الخلفاء الأمويين - لا يجوز قبوله كنوع من القدر. كان ذلك في حد ذاته خطاباً ثورياً، كما أنه أعطى مثلاً مبكراً واضحاً عن الإسلام، كأداة للعصيان والتمرد من أجل العدالة. فى الجانب الآخر من الخلاف وقفت ثلاثة قطاعات مذهبية، الجهمية، والنجارية، والزرارية. معروفون فى مجملهم بالجبرية. آمن أنصار الجبرية بأن كل حدث وتصرف فمرجه إلى المشيئة الإلهية. حتى أن الاغتيال القاسى للحسين فى معركة كربلاء، كان بالنسبة لهم عملاً مقدرًا، وعلى ذلك تصبح الاتهامات الموجهة لقتلته غير ذات معنى.

نظرًا لأن الاختيارات أمام الحكام الأمويين، تلخصت فى احتمال خسارتهم لكل ما يملكون، فى مقابل لاشيء يمكن كسبه من وراء ذلك الجدل المخرب، المنادى بحرية الإرادة، فقد تكالبوا بشدة ضد المنادين بالقدرية، فتم قطع رأس كبيرهم، معبد الجوهانى فى عصر مروان بن عبد الملك. كذلك تم إما تعذيب أو شنق عدد من المنادين بحرية الإرادة. لكن الخطاب ذاته لم يمكن إخماده. فلم يمض وقت طويل حتى تولدت حركة المعتزلة.

تمرد المعتزلة ضد الأصولية :

وقعت فى شوارع البصرة وبغداد، خلافات دموية بين أنصار القدرية من ناحية وأنصار الجبرية من ناحية أخرى، ظهرت المعتزلة من وسط تلك الخلافات كفرقة من العلماء العقلانيين التحليليين، كان تأثير هذه الحركة قويا على الفكر والمجتمع الإسلامى، وترددت أصداؤها عبر القرون (مرجع ١)، حتى أن كلا من

ال خليفة المأمون، والمعنصم، تبوا أفكارها، واعتبروا بمثابة الخطاب الرسمى للدولة. كذلك لعبت تلك الأفكار دورها المحورى فى تشكيل فكر الإصلاحيين المسلمين فى زمن انتشارهم فى أوروبا، كما أن آثارها مازالت محسوسة فى فكر مسلمى اليوم من أنصار الحداثة.

يرجع الفضل فى تأسيس مذهب المعتزلة، فى أوائل القرن الثامن، إلى واصل بن عطاء، أحد تلاميذ الإمام حسن البصرى. اختلفت آراء بن عطاء عن الأفكار المستقرة حينها، مما اضطره إلى الانشقاق وتأسيس مدرسته الخاصة. فى البداية، لم تأخذ الحركة شكل مذهب منفصل، حيث ضمت بين أنصارها عناصر من الشيعة، كما ضمت عناصر من أنصار السنة. إلا أنها اكتسبت صفات المذهب مع تطورها بعد ذلك. بحث المعتزلة فى مواجهتهم مع الجبرية الأصولية المتمزمة، عن صيغة للتوفيق بين الإيمان والمنطق. أفرز مزج العقيدة الإسلامية مع العقلانية اليونانية، علمًا عقائديًا، سمي بـ "علم الكلام"، الذى ساد الفكر الإسلامى لعدة قرون بعد ذلك، كما شكل الأساس الذى قامت عليه المدرسة الإسلامية. كان الفكر العقائدى المدرسى فى بدايته، من أهم وسائل دعم العقيدة الإسلامية، والدفاع عنها بالمجادلات العقلانية، خاصة فى مواجهة أنصار المادية والمانوية¹ المذهب المانوى (Manicheanism).

خرج المعتزلة من بحثهم عن أسانيد عقلانية وفلسفية للعقيدة الإسلامية، بجذليات مؤسسة على القيم والمنطق، مستعينين فى ذلك بالآيات القرآنية المناسبة. توصلوا فى بعض الأحيان، إلى استنتاجات غريبة لم تكن مألوفة من قبل، مما جعل الأصوليين ينظرون إليها كنوع من الهرطقة من بين هذه المعتقدات تذكر ما يلى :

¹ المانوية: ديانة قديمة تابعة لمؤسسها "مانى" الذى ظهر فى القرن الثالث الميلادى فى غرب فارس وكان يهدف إلى توحيد الأديان الكبرى آنذاك. وكان لأتباعه الفضل فى المحافظة على بعض الأعمال المسيحية الهامة. آمن بوجود إله للخير وآخر للشر. (المترجم)

• من الأمور التي شغلت المعتزلة إلى حد بعيد، كانت مسألة الإرادة الحرة للإنسان. انصب اهتمامهم على المأزق الأخلاقي الناجم من التأكيد على أن الله تَعَدَّد خداع المخطئين، بتقريره المسبق بأفعالهم السيئة، ثم إرساله إياهم بعد ذلك إلى جهنم بسبب خطاياهم. فتساءلوا كيف يمكن لإله يتصف بأنه رحمن رحيم، أن يعاقب الناس على أفعال، أمرهم هو بفعلها ؟. قادهم الاعتقاد بأن مبدأ الجبرية ما هو إلا تشويه للعدالة الإلهية، إلى الإنعام على أنفسهم بلقب : أبطال العدالة الإلهية. اقتضى تحليلهم لمسألة الخطيئة والعقاب، النظر إلى الإله على أنه واضع للقوانين، وليس كملك لسلطة استبدادية منقطعة النظير. كذلك رأوا أنه حتى يكون للحاكم الإلهي معنى، فقد أعطى الله للناس الحرية الكاملة غير المقيدة للاختيار. رأى الأصوليون في تلك الأفكار نوعاً من الوثنية، إذ كيف يتسنى للإنسان أن يكون صاحب القرار بشأن أفعاله، بدون أن يكون هو نفسه خالقاً وإلهاً.

• رفضت المعتزلة النظرة الشائعة في ذلك الوقت، التي شبهت الله بالإنسان فقالوا في ذلك : "إنه (الله) ليس بجسد، ولا بشيء ولا حجم، ولا شكل، لا لحم ولا دم، ولا شخص ولا مادة.... لا تتركه الحواس، ولا يستطيع أحد أن يصفه بأي شكل من القياس.... لا تراه عين ولا تتركه الأبصار. (مرجع ٢)

• تناقضت تلك الآراء مع آراء معارضيه بقيادة أبو الحسن الأشعري (Abu-Al-Hasan Al-Ashari)، الذي انتمى قبل ذلك إلى العقلانيين، ثم انقلب عليهم وعلى هرطقات معلميه. بصر الأشعري على التمسك بحرفية النص وبتجسيد صورة الإله، وهو الموقف الذي انتقلت حوله آراء الأصوليين السنيين. كتب الأشعري ما معناه : " نحن نقر بأن الله يجلس مستقراً على عرشه.... نحن نقر أن الله يدين، دون أن نسأل كيف.... نحن نقر أن الله عينيّن دون أن نسأل كيف... نحن نقر أن الله وجه... نحن نؤكد السمع والرؤية" (مرجع ٣).

بناءً على رفض هذه الصفات مع التأكيد على وجود ذات الله، تم اتهام المعتزلة بتفريغ الذات الإلهية من محتواها، مما يجعل فهمه وعبادته أمراً صعباً على الناس.

• ارتاب المعتزلة في صحة الأحاديث والسنة لشكهم في صحة اعتماديتها فلم يستعملوها كثيراً. كذلك قالوا بأن أهمية العقل لا تقل عن أهمية الوحي، ثم ابتدعوا أسلوباً لغوياً معقداً لتأويل القرآن، لشرح بعض النقاط التي يبدو ظاهرها مناقياً للمنطق. لم تلق هذه الآراء قبولاً من الكثيرين ممن حولهم، فاتهمهم بالتجريف والضلال، إلا أن ذلك بدا قليلاً أمام تأكيد المعتزلة أن القرآن ليس أزلياً، إنما خلقه الله (قضية خلق القرآن). ساقوا في سبيل إثبات ذلك العديد من المبررات، فقالوا على سبيل المثال إن القرآن إن لم يكن مخلوقاً، إذا يتحتم كونه إله آخر، مما يتنافى مع وحدانية الإله. من ضمن ما جادلوا به أيضاً، إشارتهم إلى احتواء القرآن على حوارات موسى، لكن موسى كان مخلوقاً مؤقتاً، على ذلك لا يجوز اعتباره أزلياً.

لم يكن هناك منافس حقيقي للمعتزلة في زمنها الأول، قبل أن يستوعب الأصوليون قوة المنطق القياسي. من ثم انتشرت مبادئهم في بلاط النبلاء حتى دخلت الأندلس. مما يذكر أن الخليفة المنصور، أيد الحركة، دون التزامه شخصياً بها، لكن فرضت مبادئ المعتزلة نفسها على الخطاب الرسمي للدولة في زمن حكم المأمون والمعتصم. مما لا شك فيه أن الخليفة المأمون كان أبرز راع للفلسفة والعلم في تاريخ الإسلام، حيث أنشأ بيت الحكمة، وجعل منه علامة مميزة في التاريخ. أرسل المأمون ببعثاته في شتى الأرجاء، حتى إلى بيزنطة، للحصول على مخطوطات العلم والفلسفة، ليجعل من بيت الحكمة مؤسسة رسمية ومكتبة موسوعية للبحث والترجمة.

أصبحت تعاليم العقلانية من المظاهر البارزة للثقافة، دارت حولها الخطب في المساجد، كما دخلت مناهج المدارس. قبلتها الطبقات المؤثرة والطبقات المتقفة في المجتمع - الأمراء ورجال الحاشية والقضاة والأساتذة والأطباء والتجار -

كعقيدتهم الأساسية. حدث تقدم غير عادى فى العلوم المدنية فى ظل حكم المعتزلة، حيث أعلن معظم الأساتذة الكبار والعلماء إما عن تحالفهم الصريح مع العقلانية، أو تأثرهم الشديد بها.

جدير بالذكر أن مذهب المعتزلة كان حركة ثورية من داخل الإسلام، لا من خارجه، ولا ضده، إلا أنه هزم فى النهاية، ونُبذ من المسار الرئيسى للعقيدة. هنا يبرز السؤال الهام، لماذا حدث ذلك؟ من الجائز أن المعتزلة، بضمها لكل من أنصار الشيعة والسنة إضافة إلى استنادهم إلى المنطق المرتب، حملوا عناصر القدرة على إنهاء ممارسة تلقيق العقيدة الذى نشأ واستمر بعد عصر الخلفاء الراشدين. من الجائز أيضًا الاعتقاد بأنه كان يمكن للمعتزلة أن يقدموا أساسًا عقلانيًا للعقيدة، على أية حال، فقد تم فى النهاية رفضهم ونبذهم لسببين رئيسيين:

السبب الأول، أن الوصول إلى السلطة مهد الطريق أمام المعتزلة للفساد وممارسة القهر. حيث أن مضمون ممارسة الديمقراطية لم يكن موجودًا فى مجتمع تُؤخذ فيه سلطة الخلافة الحاكمة إما بالتأمر وإما بالانتصار الحربى، وكانت ممارسة القهر والقمع حسب أهواء الحاكم، من بين الوسائل الطبيعية للسلطة الحاكمة. على ذلك استعمل الخلفاء من المعتزلة نفس الوسائل بحرية تامة، يبدو ذلك واضحًا من اضطهاد المأمون لأى من القائمين على القضاء أو الإفتاء، أو الفقهاء الذين رفضوا التسليم بخلق القرآن. مما أسفر عن إنشاء دواوين خاصة، مثل محاكم التفتيش، للتعامل مع من يشتبه فى ولائهم للمذهب.

جاء الاعتراض على المعتزلة من بعض المحافظين مثل الإمام أحمد بن حنبل، الذى كان من بين الذين عُدُّوا بتهمة خروجهم عن العقيدة حتى استشهد فى النهاية. كان بن حنبل من المتمسكين بحرفية النص؛ فيذكر قوله ما معناه "من الخطأ مناقشة أى شىء مما لم يناقشه الرسول"، وقد تمسك بهذا رأى حتى النهاية. يعتبر ابن حنبل من الرموز الموقرة بين المحافظين، لثباته على رأيه ورفضه الانحناء أمام مذهب خلق القرآن. لا ينظر كل المسلمين إلى بن حنبل كبطل أو قديس، فعلى سبيل المثال، يتخذ الأستاذ أمير على فى القرن التاسع عشر - وهو

من أنصار الحداثة - موقفاً آخر، فينقد ابن حنبل وغيره من المتطرفين، و يتخذ من تجاوزات المعتزلة وسيلة لاستمالة جماهير المسلمين البسيطة وتحريكها لقتال العقلانية:

"ظهر الإمام بن حنبل في هذا الوقت، ثائراً متزمتاً، نافثاً الجحيم على كل من يختلف معه في الرأي... شجب التعليم والعلم. كما أعلن الحرب المقدسة ضد العقلانية. استجابت الجماهير لبلاغته، أو لشدة... تفجرت المنابر وصبت نيرانها على المؤمنين بالعقلانية ودعاة الفلسفة والعلم. تحولت شوارع بغداد إلى مسرح للمظاهرات والعنف وإسالة الدماء" (مرجع ٤).

من الجائز إرجاع سبب فشل العقلانيين للتغلغل في أعماق المجتمع الإسلامي، إلى التعاطف الشديد بين معارضيه. على أية حال، يقال أن حجم المشيعين لجنازة بن حنبل تجاوز الـ ١٥٠,٠٠٠ شخص، وهو رقم ضخم جداً بالنسبة لذلك الوقت.

هناك سبب آخر، قد يكون أكثر أهمية، في فشل بقاء العقلانية، التي أعطت الأولوية للمنطق على الوحي مع التأكيد على عدم تعارضهما. أدى ذلك في بعض الأحيان إلى خلق تحديات غير محتملة. يبدو ذلك كأوضح ما يكون في مسألة خلق القرآن، حيث شكلت العقلانية تهديداً جوهرياً للعقيدة الدينية السائدة، وحسب رأى ا.ج. أربيري (A.J. Arberry): "كان لا بد من الحفاظ على مبدأ الإعجاز الذي لا يضاهي للقرآن، بأي ثمن، وإلا رضح الوحي لإعمال المنطق. تتضح الخطورة الكبيرة، الكامنة في السماح بقبول فكرة خلق القرآن، من احتمال ذهاب أتباع الأفلاطونية الحديثة (Neoplatonist)، إلى القول بأن كلمة الله، كما أوحى بها، تشترك مع كل الأشياء المخلوقة في عدم كمالها".

بدأت التصفية المادية الجادة للمعتزلة، بالإضافة إلى الشيعة، بتولى المتوكل للخلافة، كان المتوكل من السننيين المحافظين، وكان كما وصفه أمير على "كان سكيراً فظاً، متحالفاً مع القضاة والفقهاء". من ثم تم إبعادهم من جميع المناصب الحكومية كما تم اتهامهم بالهرطقة كما تعرضوا للتعذيب والإبادة الجماعية. فر الأساتذة والعلماء من بغداد نظراً لأن معظمهم كانوا من العقلانيين. وهكذا انتهت

أكبر محاولة في الإسلام للتوفيق بين الوحي والمنطق. باستثناء بعض المحاولات الفردية في القرن التاسع عشر، على أيدى دعاة الإصلاح في الإسلام، فقد تم الفصل الكامل بين ما هو ديني، وما هو مدني (علماني) منذ ذلك الحين.

الأصولية ترد الهجوم

يبدو واضحًا أن الفكر العقلاني والميول المدنية ذات الجذور اليونانية، التي أشعلت جذوة العلم والتعليم في المراحل الأولى للإسلام، قوبلا بالمعارضة والتحدى في نهاية الأمر. لم يمض وقت طويل، حتى ساوت الأصولية بين "علوم الأوائل" والزندقة، كما أدبنت الفلسفة. من البديهي أن ذلك لم يكن الحال في جميع الفترات، بدليل استيعاب الحضارة الإسلامية في بدايتها لكل العلوم المدنية، وإلا لما ولد العلم الإسلامي من الأساس. لكن اشتدت الميول المعارضة للتعاليم المدنية تدريجياً، حتى اكتمل القضاء على نفوذ وتأثير حركة المعتزلة في القرن الثاني عشر، على أيدى المدارس الفكرية المحافظة والمعارضة للعقلانية. كان ذلك قاسيًا، حتى أصبح ينظر إلى الأشعري، على أنه معتدل إلى حد بعيد إذا ما قورن بآبن حنبل، ثم جاء الوهابيون الذين لم يسمحوا بأى قدر من التأمل والتفكير. تعتبر الدراسة التي أجراها إجناز جولزايهر (Ignaz Goldziher) (١٩١٦) المسلم، المجري الأصل، من أهم الدراسات الشاملة حول موقف الأصولية الدينية من علوم الأوائل. حيث استمد مادته من مختلف المراجع العربية الأصلية، كما غطى مساحة كبيرة في تاريخ الإسلام، ووثق للخصومة الشديدة بين الأصولية والعلوم الفلسفية. هذا وقد ترجمت أعماله حديثًا من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية. يشير جولزايهر إلى الاهتمام البالغ بعلوم الأوائل في الأوساط الإسلامية وبين الخلفاء العباسيين، إلا أن الأصولية كانت دائمًا تنتظر بعين الارتياح إلى هؤلاء الذين يتركون علم الشافعي ومالك، ويرفعون من رأى إمبيدوكليس^١ (Empedocles)

^١ إمبيدوكليس Empedocles (المتوفى ٤٣٣ قبل الميلاد تقريبًا) فيلسوف يوناني سابق لسقراط، افترض أن عناصر الوجود أربعة، النار والماء والأرض والهواء، وأشار بأن =

إلى مستوى القانون فى الإسلام" (مرجع ٦). مع نمو نفوذ تلك الأصولية القليلة، ازدادت شدة الارتياح، التى انعكست على نواحي متعددة :

- كثيرًا ما يشار إلى علوم الأوائل بوصفها بـ "العلوم المهجورة" من قبل الأساتذة الأصوليون كما وصفوها بأنها "حكمة مشوبة بالكفر"، مما دعا إبراهيم بن موسى المتوفى ١٣٩٨ الإشبانى الأصل إلى استخلاص "يُعتبر الفقهاء الأصوليون أن لتلك العلوم قيمة فقط فيما يرونه مهما أو مفيدًا لممارسة العقيدة. كل ما عدا ذلك قبلًا قيمة، ويذهب بالناس بعيدًا عن الصراط المستقيم. كذلك ينظر ابن تيمية، الحنبلى، إلى العلم بمعنى المعرفة المستمدة من الرسول، وكل ما عدا ذلك فلا قيمة له، ولا يجوز اعتباره علمًا من الأساس، بالرغم من تسميته بذلك الاسم. (مرجع ٧).

- بعد أن يُسهب الذهبي، وهو من الحنابلة فى مديح بعض الأساتذة، يضيف هذه العبارة الحزينة: " لينته أحجم عن استعمال علم الأوائل فهى لا تنتج شيئًا غير السقم وفساد أمور الدين، عدد قليل جدًا ممن استعملوها استطاعوا تجنب هذا المصير" (مرجع ٨)

- تشكك الأصوليون بشدة فىمن لوثوا أنفسهم بالفلسفة ومناقشة علوم الأوائل. لذلك كان سرورهم بالغًا عندما وافقت المنية أحد فلاسفة الشيعة، هو حسن بن محمد بن نجا العربى، المتوفى (١٢٦٨) فأعلن تخليه عن أخطاء الفلسفة وأدار ظهره لمعلميه الذين وضع ثقته فيهم طوال حياته. كان رجلًا ضريبًا، يجتمع المسلمون وأهل الكتاب والفلاسفة فى منزله بدمشق لسماع دروسه - ذكروا بلهجة المنتصر - أن آخر ما نفوه به قبل وفاته كان " صدق الله العظيم، وكذب ابن سينا".

= الهواء مادة وليس فراغًا يرتبطون ببعض أو يفصلون بناءً على أساس قوتين متباينتين، القابلية والتنافر، عاش فى صقلية ورفض تولى الحكم بها. (المترجم)

• فرض القسم على كل الكتبة والنساخ في عام ٨٨٥ في بغداد ألا ينسخوا شيئاً من كتب الفلسفة. يشير الطيباوى (مرجع ١٠) (Tibawi) ، أنه بالرغم من أن العرب أدخلوا الورق إلى أوروبا، إلا أنهم تجنبوا استخدامه في طباعة الكتب لمدة حوالى ثلاثة قرون. حيث صورت لهم الوسواس أن نسخ لفظ الله بطريقة آلية، يشوبه الكثير من عدم الاحترام.

• عقد أعداء عبد السلام الحفيد الأكبر للإمام ابن حنبل، العزم على تدميره لاهتمامه بالفلسفة. وفي أثناء تفتيش بيته، وجدوا بعض أعمال الفلسفة مثل رسائل إخوان الصفا، إلى جانب بعض كتب السحر والفلك، وعبادة النجوم، وكتب أخرى تحتوى على صلوات موجهة للكواكب إلخ، وكلها بخط يده. فما كان منه إلا أن قدم اعتذاره الضعيف بأنه لا يؤمن بهذه الأشياء وإنما نسخها ليفندھا. مثل أمام القضاة والفقهاء، حيث نصبت محرقة جنازية في الساحة الرئيسية أمام مسجد الخليفة. أُلقيت كتبه في النار من منصة بالمسجد، حيث جلس وجهاء القوم المتقفون. حدث هذا بمראה من الحشد الذى اجتمع في ساحة المسجد، ثم وقف رجل، ليقرأ بعض المقتطفات من الكتب، ثم يأمر في حضور عبد السلام، بلعنة من كتبها، ومن آمن بما جاء فيها. استجابات الجماهير للنداء، وامتدت اللعنات لتتال من الشيخ عبد القادر وحتى الإمام احمد بن حنبل ذاته. لا اعتبار الزنديق المتهم من تلاميذهم ثم أُلقي بعض الشعر الساخر من عبادة النجوم، تلا ذلك إعلان الحكم على عبد السلام بالزندقة، ونزعت عمامته تحقيراً له، وأما مدرسة عبد القادر، التى كان يقوم بالتدريس بها، فأوكلت إلى ابن الجوزى. فى النهاية وبعد إطلاق سراحه من السجن، أقر عبد السلام، إقراراً إسلامياً مناسباً وتبرأ من أخطائه السابقة. (مرجع ١١)

• أُلقيت الهندسة عقول الأصوليون، باعتبارها من تخصصات علوم الأوائل، كما أزعجتهم الأشكال الهندسية بصفة خاصة. فى إحدى الحالات الموثقة، أدين شخص بالهرطقة لاقتنائه كتاباً يحتوى على بعض الرسوم الهندسية.

وكذا هناك حالة ذلك المتطرف الذى أصابه الرعب من كتب الفلك لابن الهيثم، التى رأى فيها نوعاً من الإغراءات المخجلة، ونكبة لا توصف، وفاجعة تُذهب البصر. (مرجع ١٢)

إضافة إلى ذلك، كانت الطبيعة التجريدية للرياضيات، مصدر استفزاز للعقلية الأصولية. يبدو ذلك من امتعاض أبو الحسين ابن فارس (Abul Husayn Ibn Faris)، مؤلف القواميس، من التجريد وإدانتته لهؤلاء الناس من غير العرب: "الذين يدعون فهمهم لأساسيات طبيعة الأشياء من خلال استعمال الأرقام والخطوط والنقاط، التى لا أرى لها أى علاقة. فى الواقع هم يُضعفون الإيمان ويتسببون فى حالات، ندعو الله أن يقينا منها" (مرجع ١٣)

- لم تكن الأصولية أبداً فى اتفاق مع علوم الفلك، حتى ولو أن بعض جوانبها، كان مهماً لتحديد مواعيد الصلاة واتجاه القبلة. رأت الأصولية أن بعض فرضيات علم الفلك متجاوزة لكل الحدود، مثل تقرير أحد الرحالة، الذى وصل إلى السلطان الأصولي، خوارزم شاه، عن وجود بلاد تطلع فيها الشمس فى منتصف الليل، فأعتبر التقرير بمثابة هرطقة كاملة (إلحاد وقرمطة)، إذ كان من شأن ذلك أن يضع القواعد التى تحدد مواعيد الصلاة، موضع تساؤل. ولولا وجود البيروني، الذى عاش فى ذلك العصر فى بلاط السلطان، لما كان لأحد أن يقنع السلطان بمدى دقة تقرير الرحالة المذكور. (مرجع ١٤)

- يقف مثل أبو معشر البلخي^١ المشار إليه كثيرًا، كدليل على التأثيرات السيئة لعلم الفلك والتنجيم. فهذا المنجم المشهور، الذى كان فى صباه

^١ جعفر ابن محمد أبو معشر البلخي (٧٨٧-٨٨٦) فارسي ورياضي من مدينة البلخ، وهى مدينة صغيرة فى مقاطعة البلخ فى أفغانستان، تبعد حوالى ٢٠ كيلو متر شمال غرب مزار الشريف. تُرجمت أعماله إلى اللاتينية مثل كتاب المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم". (المترجم)

متدينًا ورعًا. تصادف أن كان في طريقه من خوراسان إلى مكة، حيث شاعت الصدفة أن يزور مكتبة الوزير المعروف باسم الوزير الـ "منجم" (Munajjeim)، هناك: "شغلته مسائل التجيم (وعلم الفلك بالتأكيد) إلى حد أنه أصبح من الهراطقة، وكان في هذا نهاية رحلة الحج بالنسبة له، وكذلك نهاية الإسلام كعقيدة" (مرجع ١٥)

- عندما سئل ابن الصلاح (المتوفى ١٢٥١) عن مدى السماح بدراسة أو تدريس الفلسفة والمنطق، أصدر الفتوى التي يصف فيها الفلسفة بأنها: "مؤسسة الحماقة، وسبب كل الخط، وكل الأخطاء، وكل الهراطقة. فالشخص الذي يشغل نفسه بها - وهي مدعومة بالبراهين البراقة - يصبح كأعمى الألوان، فلا يرى جمال قانون العقيدة. أما فيما يتعلق بالمنطق، فهو وسيلة للوصول إلى الفلسفة. على ذلك، فإن الوسائل المؤدية إلى شيء فاسد، فهي أيضًا فاسدة... على كل من يحاول أن يبرهن على تتبع تعاليم الفلسفة، أن يواجه أحد الاحتمالين "فإما القتل بالسيف، أو التحول إلى الإسلام، ذلك حتى يمكن حماية الأرض واستئصال آثار هؤلاء الناس وعلومهم". (مرجع ١٦).

- صرح تاج الدين السبكي (المتوفى ١٢٧١) وهو من أعلام المذهب الشافعي، بأنه يجوز التعامل مع المنطق بشرط التمكن أولاً من علوم الدين حتى يصل الدارس إلى مرتبة الفقيه أو المفتي. أما بالنسبة لمن لم يصل بدراساته إلى هذه المرتبة، فلا بد من اعتبار دراسة المنطق من باب المحرمات. (مرجع ١٧)

- كثيرًا ما يلجأ المسامون من أنصار الحداثة، إلى الإشارة إلى الأصولية كاهم أسباب الانهيار، ففي رده على رينان، يقول جمال الدين الأفغاني: "يقول السيوطي، أن الخليفة الهادي قام بقتل خمسة آلاف من الفلاسفة حتى يجتث العلوم من أساسها في البلاد الإسلامية، أقر بداية أن هذا الرقم الكبير للضحايا، مبالغًا فيه، على أية حال، يبقى ثابتًا أن واقعة الإعدام

ذاتها، قد حدثت، وبإلها من لطفة دموية في تاريخ الدين، كما هي بالنسبة لتاريخ البشر. كذلك أستطيع أن أجد أمثلة مشابهة في تاريخ المسيحية. على ذلك فإن الأدبان جميعها متشابهة بغض النظر عن مسمياتها. (مرجع ١٨)

• أصيب ابن خلدون، المحافظ في بعض نواحي معتقده، بالفزع من ميول المسلمين السلبية نحو التعليم، فكتب^١: " .. ولما فُتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأنه في شأنها وتلقينها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضللاً فقد كفانا الله؛ فطرحوها في الماء أو النار، وذهبت علوم الفرس..". (مرجع ١٩).

• لاشك في أن الأصولية القديمة وقفت موقفاً معارضاً صريحاً لعلوم الأوائل والعلوم العقلانية، لكن لم يكن لكل هذا وزن يذكر، ولم يكن ليؤثر في استيعاب المجتمع الإسلامي للعلم. أما نقطة التحول الحقيقية فجاءت عندما تولى الإمام الغزالي بما له من نفوذ سياسي كبير - قيادة الأصوليين إلى نصرهم الحاسم. من ثم يصح الالتفات الآن إلى تعاليم هذا الفقيه الكبير.

الغزالي يقهر العقلانيين:

بدأت، كما شاهدنا، الاعتراضات الهادرة لطبيعة العلوم المدنية للمعرفة اليونانية، منذ بداية دخولها إلى الحضارة الإسلامية. لكن لم تظهر المعارضة الدعوية الحاسمة ضد العقلانية لعدة أسباب، منها عدم وضوح وتحديد أوجه الخلاف مع المعتقدات الدينية، وقلة الخبرة بآليات العلم والمنطق، واستمرار المنازعات. حتى جاء الغزالي، الذي يصفه حسين نصر بكل إجلال فيقول أنه "أنقذ الأصولية

^١ مقدمة ابن خلدون، إصدار دار الشعب بالقاهرة، فصل العلوم العقلية وأصنافها، ص ٤٥٣. (تحقيق المترجم)

بكبحه العلم". بدأت حينها المحاولات المنسقة لرفض الفلسفة العقلانية. عمل الغزالي بلا كلل لتتقية الحضارة الإسلامية من شوائب الأفكار اليونانية الدخيلة. ولد أبو حامد الغزالي في عام ١٠٥٨ ودرس علوم الدين في سن مبكرة حتى ذاع صيته لتمكنه الموسوعي من مختلف تعاليم الإسلام وعين أستاذًا للعلوم الدينية في المدرسة النظامية بجامعة بغداد، حيث درس أعمال العلم والفلسفة للمشائين^١ الكبار (Peripatetic)، وتمكن من وسائلهم. دخل الغزالي بعد هذا في حالة عميقة من النسك والتقص، عاد بعدها إلى المجتمع خصمًا عنيدًا لكل الفلاسفة العقلانيين. اعتبر الغزالي أرسطو أفضل الجميع، إذ أنه هاجم بلاتو وسقراط، بالرغم من أنه مُبطل بالكفر والهرطقة، كما يعلن الغزالي إدانته لأتباع أرسطو من المسلمين قائلًا: "لا بد من اعتبار هؤلاء الفلاسفة أنفسهم، وكل من يتبعهم من فلاسفة المسلمين، المتناقلين لفلسفة أرسطو مثل ابن سينا والفارابي وغيرهم، في عداد الملحدين". (مرجع ٢٠)

اتسمت تعاليم الغزالي بغزارتها، وتناولها لشتى الأمور الهامة مما كان يشغل عقول العصور الوسطى. على درجة خاصة من الأهمية، تقف أرائه عن السبب والعلة، والعقل والرياضيات والمنطق، لما كان لها من تأثير قوى على تشكيل مواقف المسلمين تجاه العلوم.

الغزالي والسببية (الأثر والسبب)

تقع العلاقة بين الأثر (العلة) والسبب في قلب الأسلوب العلمي للتفكير، فمثلا تحدث الحرائق بسبب النيران، والرعد ينتج عن البرق إلخ. نبذت تعاليم الأشاعرة هذه العلاقة بوجه خاص كما كان الغزالي أبرز المعارضين لها وأكبرهم تأثيرًا. رأى الغزالي عدم الاعتقاد بأن العالم يجرى حسب قوانين الفيزياء، فالله يُفنى العالم ثم يُعيد خلقه في كل لحظة من الزمن. على ذلك فلا يمكن وجود تواصل بين

^١ المشائين (Peripatetic): من أتباع أسلوب أرسطو الذي كان من عادته إلقاء دروسه وحواراته وهو يمشى في أروقة مدرسته الثقافية التي تأسست عام ٣٣٥ قبل الميلاد في أثينا القديمة. يطلق الاسم أحيانا على أتباع فلسفة أرسطو. (المترجم)

أية لحظة وأخرى، بالتالى لا يمكن افتراض أن أى فعل سيؤدى بالتأكيد إلى إحداث أثر معين. على العكس أيضاً فمن الخطأ إرجاع أى ظاهرة إلى أسباب فيزيائية، ففى رأيه أن كل الظواهر والأحداث إنما تحدث كنتيجة مباشرة للتدخل الإلهى الدائم فى العالم. يضرب الغزالى مثلاً فيقول خذ قطعة قطن تحترق بالنار، يستنتج الفلاسفة العقلانيين، المهرطقين أن النار هى التى تحرق القطن، ولكن:

"نحن ننفى ذلك بقولنا: أن الفاعل فى الاحتراق هو الله بخلقه السواد فى القطن وفصله لأجزائه، كما أن الله هو الذى جعل القطن يحترق، وصنع رماده، إما بواسطة ملائكته أو بدونهم. ذلك لأن النار فى حد ذاتها جسم ميت وليس لها فعل، ثم، أين الدليل على أنها السبب؟. حقاً، ليس للفلاسفة دليل سوى ملاحظة حدوث الاحتراق عند ملامسة القطن للنار. تثبت تلك الملاحظة فقط تزامن الأحداث، لا سببيتها، وفى الحقيقة فلا سبب إلا الله". (مرجع ٢١)

الغزالى والرياضيات والعلم

تميز الغزالى عن غيره من علماء زمانه، بدراسته لعلوم عصره، مما منحه الفرصة لإصدار أحكامه المرجعية عن العلاقة بين العلم والدين، ولم تكن معارضته أبداً، مجرد معارضة عمياء. يقول الغزالى إنه لا علاقة للدين بنتائج الرياضيات، وعلى ذلك فالرياضيات ليست محرمة. بالرغم من ذلك:

"هناك مشكلتان فى مسألة الرياضيات، تتمثل أولاهما فى إعجاب الدارس الشديد بدقتها ووضوح أدلتها، مما يقوده إلى الإيمان بالفلاسفة، والاعتقاد بأن كل علومهم على نفس الدرجة من الوضوح وقوة البرهان. إضافة إلى ذلك، فإنه قد سمع ما يتردد على ألسنة الجميع عن إلحادهم، وإنكارهم لصفات الله، واستخفافهم بالحقيقة الملهمة، فمجرد قبوله إياهم كمرجعيات، يجعل منه كافرًا". (مرجع ٢٢)

القول هنا واضح بأن الرياضيات تحمل فى طياتها مواطن للخطر، دون أن تكون بالضرورة خطيرة، أما الخطر ذاته فيكمن فى احتمال أن تُسكر الدارس بقوتها وجمال ودقة منطقها، مما يجعله عرضة لهجر الوعى المنزل. فى موقف

آخر، بصرح الغزالي برأى أكثر تشدداً، حيث يدين الرياضيات بقوة وبلا تحفظ، رافضاً احتمال تضمنها لأى شئ جيد، فيسوق حجه قائلاً بأنه لا شك فى أن الخمر تقوى البدن، ولكنها قطعاً محرمة. كذلك يمكن المجادلة بأن الألعاب والميسر والشطرنج تشد العقل، لكن هذا ليس مبرراً لممارستها، ثم يستطرد قائلاً:

"ينطبق الشئ نفسه على علوم إقليدس، والماجيس^١ والرياضيات والهندسة، فهم أيضاً يقومون العقل ويغذون الروح، لكننا ننبتهم لسبب واحد، لأنهم من افتراضات علوم الأوائل، التى تحمل علوماً أخرى غير ذلك، تتضمن القبول بالعالم الخطيرة. حتى لو لم تحمل الهندسة والرياضة إشارات ضارة بالعقيدة، إلا أننا نخشى أن ينساق أحد من خلالهم إلى مذاهب خطيرة. (مرجع ٢٣)

بعكس معظم العلماء الأصوليون فى ذلك الوقت، فلم يكن الغزالي معارضاً - من ناحية المبدأ - للمنطق. ولعله اضطر إلى أسلوب المواربة فى الكلام، حتى لا يتهم بأنه من أتباع أرسطو، لذلك لجأ إلى استعمال عناوين مبهمه لكتبه عن المنطق حتى يتحاشى استعمال لفظ "منطق". دافع محمد بن طملىس (Mohammad Ibn Tumulus)، الذى كتب أيضاً عن المنطق، مدافعاً عن نفسه، ومستدعياً سلطة الغزالي قائلاً:

"لقد غير الغزالي من عناوين كتبه، كما بدل فى الألفاظ التى استعملها بداخلها. فبدلاً من استعمال الألفاظ المعتادة للتعبير فى تلك المجالات، لجأ إلى استعمال ألفاظ كانت مألوفة للفقهاء فى عصره. لقد فعل هذا ليحمى نفسه ويفلت من مصير العلماء السابقين الذين نادوا بأشياء غريبة وغير معتادة، فلاقوا ما لاقوا من تعذيب وامتهان، ولقد حماه الله منها. (مرجع ٢٤)

^١ الماجيس: ويسمى أيضاً كتاب المجسطى (Almagest) (بمعنى الأكبر) مجلد كبير عن النجوم وحركة الكواكب، كتبه بطليموس (السكندرى) ١٥٠ سنة قبل الميلاد، وسجل فيه الأرض بصفتها مركزاً للكون. ترجم إلى العربية فى عصر الخليفة المأمون فى القرن التاسع. (المترجم)

من المفارقات الجديرة بالذكر أن الغزالي، في قيادته للهجوم على أصحاب الفكر الحر وأنصار المنطق، اضطر إلى استخدام نفس أسلحة أعدائه. لا شك في أن شبح الجدليات اليونانية العنيد، تحمل وصمد أمام كل تعاويذ أعظم عظماء الأشاعرة.

الغزالي والمعرفة التجريدية:

من وجهة نظر عالم يعتبر الوحي الإلهي مصدرًا لكل المعرفة، يصبح الغرض من كل تساؤل معرفي، هو دعم وتأييد الكلمة المقدسة، وتتحول فيه المعرفة من أجل إرضاء الفكر، أو المعرفة من أجل الوصول إلى التميز والمكافأة، إلى أمور غير مقبولة، ولا يسمح بها. إذ وبخ الغزالي صراحة أحد شباب الدارسين لتعلقه بالمعرفة التجريدية قائلاً:

يا فتى، كم سهرت الليالي، مردداً للعلم، منكباً على الكتب، ناكراً النوم على نفسك. لا أدرى السبب في هذا كله، فإن كان لإدراك غايات دنيوية، وضمان زهوها، والحصول على شرفها وجلالها، أو للتفوق على زملائك وما ماثل ذلك، فالويل لك، الويل لك". (مرجع ٢٥)

بما أن العلم والرياضيات، ينبنيان على أساس من الفكر التجريدي، كما أن حب الاستطلاع البشري يمثل مصدرًا للتساؤلات غير المجدية. على ذلك تصبح تحذيرات الغزالي، بكل تأكيد، غير مشجعة على الإطلاق على دراسة هذه الأمور.

سنرى في الفصل القادم، كيف واجه بعض أبطال المسلمين هذه العقبات في طريق الفكر والتساؤل.

- 1- A. J. Arberry, *Revelation and Reason in Islam*, (London, George Allen & Unwin, 1965), Passim, Alfred Guillaume, *Islam*, (New York, Penguin, 1954), pp. 128-42; Syed Ameer Ali, *The Spirit of Islam*, (Karachi, Pkistan Publishing House, 1976). Passim, Majid Fakhry, *A History of Islamic Philosophy*, (New York, Columbia University Press, 1983), Passim.
- 2- Arberry, op. cit. p. 23.
- 3- Ibid., p. 22.
- 4- Syed Ameer Ali, op. cit., p. 438.
- 5- Arberry, op. cit., p. 24.
- 6- Ignaz Goldziher in *Studies on Islam*, Translated and edited by Merlin L. Swarts, (Oxford University Press, 1981), pp. 185-6, References to the Original Arabic sources can be found therein, and are not indicated here.
- 7- Ibid., pp. 186-7.
- 8- Ibid., p. 189.
- 9- Ibid., p. 190.
- 10 A. L. Tibawi, *Islamic Education*, (London, Luzac, 1979), pp. 49-50.
- 11- Goldziher, op. cit., p. 192.

12- Ibid., p. 193.

13- Ibid., p. 194.

14- Ibid., pp.196-7.

15- Ibid.

16- Ibid., p. 205.

17- Ibid., p. 207.

18- Syed Jamaluddin Afghani in 'Reponse de Jamal ad-Din al-Afghani a Renan', quoted in Nikkie R. Keddie, *An Islamic Response to Imperialism*, (Berkeley, University of California Press, 1983), p. 187.

19- Ibn Khaldun, *The Moqaddima: An Introduction to History*, (London, Routledge and Kegan Paul, 1978), p. 373.

20- W. Montgomery Watt, *The Faith and Practice of Al-Ghazzali*, (London, George Allen & Unwin, 1953), pp. 32-3.

21- Quoted by Ibn Rushd in 'Tahafut al-Tahafut', (*The Incoherence of the Incoherence*) translated by S. Van den Bergh (London E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol. 1), pp. 316-317.

22- W. Montgomery Watt, *op.cit.* p.33.

23- *Fatihah al-Ulum*, (Cairo 1322), P.56. translated by Goldziher, *op.cit.*

24- Goldziher, *op.cit.*, p.201.

25- Al-Gazzali, Ayyuha-al-Walad, Translated by G. H. Scherer,
(Beirut, The American Press, 1932), p.57.

الفصل العاشر

خمسة زنادقة كبار

على نفس درجة أهمية الانتصارات العسكرية للانتشار المبكر بعد الإسلام، وقفت الإنجازات المدهشة لأساتذة المسلمين وراء تأسيس سيادة الحضارة الإسلامية على من عاصرها. يجدر بالذكر، أن غزوات المغول، التي شابهت الانتصارات الإسلامية من الظاهر فقط، أفرزت إمبراطورية مؤقتة، لكن بدون حضارة، فلم تخلف فلولهم وراءها - بعد انسحابهم إلى موطنهم الأصلية في صحراء جوبي (شمال الصين) - سوى الخراب والدمار. فى المقابل، أوجدت الانتصارات الإسلامية، حضارة عالمية، نمت وازدهرت حتى بعد تراجع السيادة العسكرية بزمان طويل.

أضاعت شعلة المعرفة سماء الحضارة الإسلامية على مدى خمسة قرون. ضمت المجرة المتلافة، كواكب مضيئة كثيرة مثل الكندي وابن سينا، وعمر الخيام، وابن الهيثم، وابن رشد وابن خلدون وغيرهم. ما كان لنسيج الحضارة الإسلامية أن يتكون بكل تلك الألوان الزاهية، لولا وجود أمثال هؤلاء الرجال العظام. تحولت تلك الأسماء اللامعة فى أيامنا هذه إلى مجرد رموز مبدلة للإنجازات السالفة. لابد من تعريف أطفال المدارس فى البلاد الإسلامية بهؤلاء العمالقة، ولا بد من أن تبرز كتب التاريخ والعلوم إنجازاتهم، كما يجب إطلاق أسمائهم على المؤسسات والجمعيات الخ. لم يأت التهديد والخطر لهؤلاء من أسراب المغول أو المسيحيين غير الأوفياء، بل جاء من أخوتهم من أنصار الأصولية الدينية.

وضح من استعراضنا فى الفصل السابق، أن التوتر بين المتطرفين والعلمانية(المدنية)، بدأ منذ اللحظة التى دخلت فيها العلوم اليونانية إلى الحضارة الإسلامية. أحياناً كان التوتر مستتراً ومكبوتاً، وأحياناً أخرى سافراً وعنيفاً. وكثيراً ما شكلت المعارضة الأصولية تهديداً قاتلاً لدارسى العلم والفلسفة والمنطق،

مما دفع الجاحظ للتساؤل بغيظ عن ورع الفقهاء المزعوم المتمثل فى مسارعتهم بإدانة المختلفين معهم والمنشقين واتهامهم بالإلحاد (مرجع ١). لذلك اعتمد العلماء الكبار على دعم الخلفاء، والولاة المنتفعين لحمايتهم من بطش الشخصيات الأصولية القوية، التى رأت فى أعمالهم ضرباً من ضروب الزندقة. ولا يخفى أن هذه الحماية فتحت الباب للغيرة الشديدة من جانب الفقهاء الذين لا حظوا كيف أن الوصول إلى أروقة السلطة وحتى إلى الخليفة ذاته كان أيسر بالنسبة لهؤلاء الأشخاص (الأساتذة)، والمفترض أنهم أقل منهم مرتبة. فرض هذا الوضع بعض القيود الهامة على كم وطبيعة النشاط الثقافى والعلمى، فقد جعل مهمة وصول العلم إلى عامة الناس أمراً صعباً، وبالتالي أصبح العلم قاصراً على الطبقة العليا فقط للمجتمع، ولعل هذا كان السبب وراء مقولة ابن رشد المأثورة لما معناه "يجب على الحكام منع وصول كتب العلماء إلى العامة". (مرجع ٢).

الكندى (٨٠١-٨٧٣)

مؤسس مدرسة المشائين^١ الفلسفية الإسلامية، وله ٢٧٠ مؤلف، تتراوح ما بين المنطق والرياضيات، إلى الفيزياء والموسيقى، ولقب بفيلسوف العرب اعترافاً بجهوده التى لم تعرف الكلال من أجل جعل الفلسفة مستساغة للفقهاء، وهو أول فلاسفة العرب، ولكونه من المعتزلة البارزين فقد كتب عن سمو الحق وشموليته الكونية، وبأن الفلسفة ما هى إلا شكل من أشكال الرسالة التى جاء بها الرسول. تجب الإشارة إلى أن لفظ "الحق" - كما استعمله الكندى - كان له معنى محدداً جداً، حيث كان يشير إلى تفسيرات الحكماء اليونانيون مثل بلاتو وأرسطو وغيرهم. أما عن دور الأساتذة، فكان رأيه "لاستكمال ما لم يوضحه السلف بقدر الإمكان وطبقاً لاستخدامنا للغة زماننا وتقاليدنا". (مرجع ٣)

كرجل عقلانى، رأى الكندى أنه يمكن النظر إلى بعض الآيات القرآنية التى يبدو ظاهرها متناقضا مع الواقع، على أنها مجازية ليسترشد بها العقلاء. آمن الفلاسفة الأوائل، بما فيهم الكندى، بوجود حقيقتين، واحدة لعامة الجماهير غير

^١ المشائين: أنظر الهامش بالفصل التاسع. (للمترجم)

المتعلمة، وأخرى للمتعلمين والمتقنين. فأما الجماهير الساذجة التي لا يمكنها إلا تقدير الأمور البسيطة، فوجب استمالتها باستعمال أمور مثل حوريات الجنة وغير ذلك من المغريات المادية. أما المتعلمين من أصحاب العقل والمنطق فيرى أن بإمكانهم الوصول إلى معانٍ أعمق من ذلك بكثير.

من منطلق التفسير المجازي المنطقي الذي اشتمله الكندي، تناول الآية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ...﴾ سورة الحج، الآية ١٨. يعطى نص الآية صورة للبطء بأن كل الأشياء "تتحني" أثناء الصلاة، تقدم الكندي في هذا الموضوع بجدل لغوي مفصل بما يفيد بأن الانحناء والسجود معناه الطاعة في حقيقة الأمر. على ذلك يتحول مفهوم السجود الساذج في العبادة، إلى معنى الطاعة الكاملة لمشيئة الله. ثم يخطو الكندي خطوة أخرى لتصحيح هذا المفهوم، بما يفيد بوجود قانون كوني عام لا بد أن تطيعه من كل أشكال المادة، حية كانت، أو جماد، وبهذا كما يقول الكندي، تتحول أمور تبدو متناقضة، إلى شيء له معنى ومقبول إذا حسن تأويله.

برز نجم الكندي في بلاط المأمون، كالمع نجم في أكثر المراكز الثقافية تقدمًا في العالم. كما ظلت أطروحاته الأكاديمية على حيوتها ونشاطها في زمن الخليفة العقلاني التالي، المعتصم، ثم الواثق وأخيرًا جاء الانحسار في عصر الخليفة السني الأصولي، الخليفة المتوكل الذي أتى معه بنهاية عصر طويل من الحرية. لم يكن عسيرًا على الفقهاء، إقناع الخليفة بخطورة معتقدات الكندي. فلم يمض وقت طويل حتى أمر بمصادرة مكتبته الخاصة، المعروفة للجميع آنذاك بالمكتبة الكندية. ولم يكن ذلك كافيًا، فقد تلقى الشيخ المناهز للسنيين عامًا، المسلم، الفيلسوف خمسين جلده أمام حشد من الناس. شهد المعاصرون للواقعة أن الحشد كان يهتف بالموافقة على العقاب مع كل جلدة. (مرجع ٤)

رغم أن أحد أصدقائه تمكن من استعادة مكتبته، فإن الكندي أصيب بحالة شديدة من الاكتئاب نتيجة الإهانة البالغة التي نالته من واقعة جلده العلني، فاعتزل

الحياة حتى توفي عام ٨٧٣ وقد ناهز الاثنين وسبعين عامًا. كان الكندي أول الرموز العلمية الإسلامية البارزة التي تقع ضحية لرد فعل الأصولية تجاه العقلانية.

الرازي (٨٣٠-٩٢٥)

اشتهر محمد بن زكريا أبو بكر الرازي^١، الفارسي الأصل كأبرز الأطباء في الحضارة الإسلامية، ولقب بأبو علم الطب، وجالينوس العربي، كما وُصف بأنه أكبر عباقرة العصور الوسطى لإنجازاته الهائلة في مجال الطب. تلقى تدريبه في بغداد، ثم عاد إلى مسقط رأسه بمدينة الري بإيران ليتولى إدارة المستشفى (المستشفى) بها، حيث اشتهر برعايته الحريصة لجميع مرضاه، سواء الفقير منهم أو الغني.

جانب إنجازاته في مجال الطب، فقد كان فيلسوفًا حر التفكير، وكان أكثر راديكالية من الكندي في ارتباطه بالعقلانية اليونانية. قيل عنه إنه معارض للنبوة، حيث تناول أهمية الوحي بخفة، وفي المقابل كان يؤكد أن الله خلق الإنسان ومنحه جزءًا من منطقته، ليصبح الإنسان قادرًا على فهم طبيعة الكون المادي. اقتضت نظرية الرازي في خلق الكون، أن تكون البداية قاصرة على وجود الله والروح والمادة والفضاء والزمن. خرج بعدها الكون المادي إلى الوجود بتدخل الله في بعض خصائص الروح، ثم يرى نهاية الوجود بعد ذلك عندما تعود جميع الأرواح إلى مستقرها في السماء. من البديهي أن هذا المفهوم لمصير الكون وارتحال الأرواح، لم يتماشى تمامًا مع المعتقدات الشائعة عن الخلق.

كانت أفكار الرازي، غير التقليدية عن الدين، سببًا في عدم شيوع محبته بين كل المسلمين. فرغم إعجاب الكتاب المتأخرين بعلمه الواسع، إلا أنهم أدانوه بالتجديف لوضعه المنطق في مرتبة أعلى من الوحي. حتى أن بعض أصحاب

^١ عاش الرازي في عصر إمارة منصور بن إسحق على مدينة الري بحيران في زمن الخليفة المكتفي (٩٠٢-٩٠٧).

البدع من الإسماعيليين، مثل نصرى خسراو (Nasr-i-Khusrau) اتهموه بالزندقة، دفع الرازى ثمنًا غاليًا لأرائه الراديكالية، حيث بقيت معظم أعماله فى طى النسيان.

فى محاولة على ما يبدو لإرضاء راعيه الأصولى، قام البيرونى بمهاجمة الرازى، حيث أرجع سبب إصابته بفقد البصر فى آخر أيامه، إلى الجزاء الإلهى. كذلك يقال أن فقدته للبصر جاء نتيجة للعقاب الذى وقع عليه من أحد الأمراء المحافظين من عائلة المنصور فى بخارى (مرجع ٥)، حيث أمر الأمير بأن يُضرب الرازى على رأسه بكتبه، فإما أن تتفلق الكتب أو تُهشم رأس الرازى. على ذلك فقد الرازى إبصاره وكذا رغبته فى الحياة. جدير بالذكر أن أحد جراحى العيون عرض على الرازى إجراء عملية جراحية له لاستعادة البصر، فرفض الرازى قائلاً: "لقد رأيت ما يكفى من هذا العالم، ولا أرحب بفكرة إجراء العملية بهدف رؤية المزيد منه" ثم توفى الرازى بعد ذلك بوقت قصير.

ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧)

يشابه الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا أبو على، نوربرت فاينر^١ (Norbert Weiner) فى أبنائنا المعاصرة، فقد كان عبقرى، غزير العلم وغطت أعماله مساحات شاسعة من المعرفة. أتم حفظ القرآن فى سن العاشرة، ثم أصبح طبيباً فى سن السابعة عشر، ثم تمكن من علوم الغيبيات لأرسطو فى زهاء عام. أكبر أعماله كتاب "القانون فى الطب" الذى ترجم إلى اللغات الأوروبية واستمر كالمرجعية الأساسية فى تدريس وممارسة الطب فى أوروبا لأكثر من خمسمائة عام، وحتى مولد الطب الحديث. لم يكن لقب الـ "حكيم" وقتها قاصراً على ممارسة الطب، وكان ابن سينا مثلاً لا يبارى فى الحكمة. امتدت أعماله المذهلة أيضاً إلى مجالات الفلسفة والمنطق.

^١ نوربرت فاينر (١٨٩٤-١٩٦٤) من علماء الرياضيات، الأمريكيين. ارتحل إلى أوروبا وتوفى بالسويد. حصل على العديد من الجوائز الكبرى.

كان التزام ابن سينا بالإسلام ثابتاً، ولكن غير تقليدياً، ويتضح ذلك من قوله،
فى أثناء فترة نشاطه الدراسى:

"كنت، إذا قابلتلى مشكلة عويصة، أتوجه إلى المسجد للصلاة، وأعكف على الدعاء لله خالق كل شيء، حتى تنفرج الأبواب المغلقة على، وحتى يسهل الصعب. كما كنت كلما أقبل الليل، أعود إلى دارى، أوقد المصباح أمامى، ثم أنفن نفسى فى القراءة والكتابة، فإذا غابنى النوم، وأحسست الوهن، الجأ إلى كاس من النبيذ لاستعادة قواى". (مرجع ٦)

يتضح أسلوبه المميز وغير التقليدى هنا، فى طريقته لاستعادة نشاطه. كان ابن سينا - كالكندى - فيلسوفاً قوياً متميزاً بحرية الفكر، ومؤكداً بإصرار على أولوية المنطق، بالرغم من اعتراضه على أمور كثيرة من أمور المعتزلة. وقد تولى منصب الوزارة للأمير حمدان، حيث اشتبك فى جدل دينى مباشر مع بعض رجال الجيش المتدينين، الذين طالبوا بإعدامه. ذهب الجنود إلى داره، فلما لم يجدوه، سلبوا ممتلكاته، ثم طلبوا من الأمير قطع رأسه. كان ابن سينا قد علم بالمؤامرة، فاختبأ عند صديقه أبو سعيد دفداق (Abu Said Dafdaq) حيث عكف على كتابة مؤلفه " القانون ". هرب ابن سينا عدة مرات من الإعدام ومن حنق الولاة. فى ضوء مصادرة كتبه ومنعها، ومع قوة أعدائه وكثرة مؤامراتهم ضده، قام أصدقاؤه باقتراح نوع من التسوية للأمور، فكان رد ابن سينا عليهم "إنى أفضل حياة قصيرة واسعة، عن حياة طويلة ضيقة"، ثم واصل أعماله فى بسالة. كثيراً ما أثار ابن سينا غيظ الفقهاء بمحاولاته المتكررة للتوفيق بين المعتقدات الدينية والعلم والمنطق. ومما يذكر أنه نظم شعراً يدافع به عن نفسه ويدرا اتهامه بالإلحاد فيقول ما معناه:

ليس من السهل اتهامى الزندقة فلا إيمان بالدين أقوى من إيمانى
فإذا كنت الزنديق الوحيد فى العالم كله فلا مسلم واحد بعدى. (مرجع ٧)

رغم كل احتجاجات ابن سينا، إلا أن سمعته كزنديق، شاعت بين الأصوليين فى عصره، كما استمرت من بعده لعدة قرون. حتى أن الغزالى، الإمام المعتدل، وصمه بالإلحاد، خاصة فيما يتعلق بنقله لفلسفة أرسطو. (مرجع ٨)

فيما يتعلق بحكم الأساتذة والعلماء المسلمين، فلا تختلف فظاظه وخشونة الأصوليون في الأزمنة الغابرة، عنها في أيامنا هذه، حيث نشرت إحدى المجلات الصادرة في لندن بتمويل سعودي، مقالاً عاصفاً جاء فيه:

"إن قصة مشاهير العلماء المسلمين من القرون الوسطى، كالكندي والفارابي، وابن الهيثم، وابن سينا، توضح أنه إذا وضعت مسألة كونهم من المسلمين جانباً، فلن يبقى فيهم ولا في أعمالهم شيء يمت للإسلام بصلة. على العكس، فقد كانت حياتهم - على وجه الخصوص - لا إسلامية. أما إنجازاتهم في الطب والكيمياء والفيزياء، والرياضيات والفلسفة، فما هي إلا امتداد طبيعي ومنطقي للتعاليم اليونانية. (مرجع ٩).

كتب محمد كاليمار رحمن (Mohammed Kalimur Rehman)، وهو هندي مسلم، في إحدى المجلات المتخصصة في العالم الإسلامي، شيئاً مماثلاً:

"كان معظم الفلاسفة إما من المعتزلة أو من الملاحدة. كثير منهم مارس الموسيقى، والتنجيم والسحر، وكلها إما محرمة أو مكروهة في الإسلام.... الرازي لم يؤمن بالوحي، والفارابي اعتمد على المنطق وحده - لا الشريعة - للفرقة بين الخير والشر. أما الكندي فلم يعترف بصفات الله، وأخيراً ابن سينا الذي لم يؤمن بالبعث... هكذا حدثت خسارة المجتمع تدريجاً للقيم الإسلامية. (مرجع ١٠)

إن تواصل الخط الفكري بين الأصولية الحديثة والقديمة، واضح تماماً. إذ يلاحظ أن مرور كل تلك القرون، لم يسفر عن العفو عن أي من فلاسفة الإسلام. كذلك يلاحظ أسلوب رفض إنجازاتهم باعتبارها كلها "امتداد طبيعي ومنطقي للتعاليم اليونانية"، وهو موقف في الحقيقة، مشابه إلى حد كبير لآراء أبناء الغرب للإنجازات العلمية الإسلامية. على فرض أن أحداً من غير المسلمين، زعم بأن العلم الإسلامي، ما هو إلا استرجاع للعلوم اليونانية، فكان يتوقع أن يهاجمه المسلمون بغضب شديد، أما وأن الزعم قادم في الأساس من زعماء حماة العقيدة، فلا عجب أن حظيت إهاناتهم للعلم الإسلامي، بأقل قدر من الاهتمام.

ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨)

بعد أبو الوليد محمد بن رشد، بلا منازع، أشهر فلاسفة المسلمين في الغرب لدوره الرائد في الربط بين الفلسفات الأرسطية، وفلسفات عصر النهضة. كما أنه أحد أساتذة الصف الأول على مستوى العالم أجمع، اعتُبرت كتبه من كتب الزندقة في فترة الثورات الفكرية والفلسفية التي واكبت عصر النهضة في أوروبا، مما تسبب في تكرار مشهد حرقها عدة مرات، إما من قبل الكنيسة، وإما من قبل الفقهاء الأصوليون المسلمين. تُرجمت أعمال ابن رشد إلى اللاتينية والعبرية. سريعاً ما ظهرت تعقيبات على تعقيباته، نظراً لأهميتها البالغة من حيث احتوائها على شروح تفصيلية وتعقيبات على فلسفات أرسطو. تعتبر الترجمات لبعض أعمال ابن رشد بمثابة الأثر الأساسي الموجود حالياً، إذ أحرقت الأصول المكتوبة بالعربية. ويشير ذلك في حد ذاته إلى مدى تأثير ابن رشد، كفيلسوف عقلاني على عقول من حوله في ذلك الوقت. أثار ابن رشد كغيره من العقلانيين السابقين، غضب معارضيه، لقوله بأن لا بد للوحي من الاسترشاد بالمنطق. ففي رأيه أن أسمى أشكال العبادة تكمن في دراسة الله من خلال أعماله باستعمال العقل. كذلك صمم أسلوباً مفصلاً لتأويل القرآن، معتمداً على الخصائص الدقيقة للغة العربية. على أية حال، يظل تفنيده لأراء وحجج الغزالي، على قمة الأسباب في شهرته.

تتضح من ردود ابن رشد على الغزالي، الذي سبقه بحوالى سبعين عاماً كثير من الأمور التي شغلت بال المفكرين في ذلك الحين. لقد استعرضنا فيما سبق رؤية الغزالي لمسألة السببية، حيث تتلخص في أن كل الأشياء والأحداث، إنما ترتبط مباشرة بالتدخل الإلهي المستمر، فقطعة القطن المحترقة، لا تحترق لأن طبيعة النار أن تحرق، لكن لأسباب فوق طبيعية كتدخل الملائكة في المسألة.

يرى ابن رشد في هذا نوعاً من الهراء، حيث لا يعقل أنه كلما احترقت قطعة قطن، وجب هبوط عدد من الملائكة أو غيرهم من المخلوقات الإلهية لإنجاز المهمة، وفي رأيه أن السبب المادي يؤدي إلى تأثير مادي. سجل الغزالي أرائه في كتابه "تهافت الفلاسفة" فرد عليه ابن رشد بكتابه "تهافت التهافت"، وفيه يقول ما معناه:

"من باب السفسطة، إنكار وجود أسباب فاعلة في الأشياء الملموسة.... إن إنكار السبب يعنى إنكار المعرفة، وإنكار المعرفة يعنى عدم إمكانية معرفة أى شىء فى العالم". (مرجع ١١)

تحولت الأيام، فبعد أن كان ابن رشد قاضياً لأشبيلية، ثم لقرطبة، أصبح الآن ضحية للمؤامرات السياسية، وهدفاً للأصولية الدينية تضاعل ثقل ابن رشد بعد وفاة الخليفة أبو يعقوب فى عام ١١٨٤، وتولى ابنه أبو يوسف الخلافة من بعده، حيث صدرت أوامر الخليفة بمنع دراسة المنطق والعلم. فى النهاية، أبعد ابن رشد من قرطبة، ورحل مع بعض الدارسين فى صمت إلى إحدى القرى القريبة، وصدرت الأوامر بإحراق كل كتبه، باستثناء الكتب ذات الطبيعة العلمية البحتة، ثم ارتحل فى نهاية القرن الثالى عشر إلى مراكش حيث توفى هناك. أما حقيقة أن معظم أعماله المتبقية - بعد ضياع وحرق أعماله بالعربية- كانت تلك الترجمات إلى اللاتينية والعبرية، فدليل واضح على أنه بالرغم من تفنيده لمهاجمة الغزالي للعقلانية، فلم يتمكن ابن رشد فى زمانه، من التأثير على الجماهير.

ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)

يجوز اعتبار عبد الرحمن بن خلدون، آخر عمالقة الثقافة فى الحضارة الإسلامية. ظل ابن خلدون راقداً فى طى النسيان، حتى تبين لبعض الدارسين، الغربيين فى القرن التاسع عشر أنه أستاذ رائد لعلم الإنسان المعاصر (الأنثروبولوجيا). السبب فى حدوث هذا الإهمال على حد قول فيليب هيتي (Philip Hetti):

"ولد الفيلسوف فى زمن خطأ، وفى مكان خطأ. جاء متأخراً جداً، فلم يوقظ أى إحساس لدى معاصريه ومجتمعه الغارق فى سبات القرون الوسطى، أو ليجد من يهتم بترجمة أعماله من الأوربيين. لم يسبقه أحد فى مجاله، ولم يخلفه أحد. على ذلك فلم تتكون له مدرسة كباقي الفلاسفة والعلماء. ومض نجمه سريعاً فى سماء شمال أفريقيا دون أن يخلف وراءه أية أضواء". (مرجع ١٢)

عقب أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) على إسهامات ابن خلدون فى التاريخ وعلم الاجتماع قائلا "استوعب وبلور فلسفة للتاريخ فكانت بلا شك هى الأعظم من نوعها على مر العصور".

لم يكن ابن خلدون من المعتزلة، كما كان معظم العلماء الكبار فى العصور الإسلامية الوسطى، بل على النقيض، رفض الافتراضات الأساسية التى طرحها المسلمون من رواد الأفلاطونية الحديثة، مثل الفارابى و ابن سينا. ورأى فى مذاهبهم البراقة، الخاصة بالوجود ونظرية المعرفة، ما يخالف الدين. كذلك فقد عارض بشدة الاشتغال بالكيمياء.

تميزت إضافات ابن خلدون للفكر الإسلامى بالإيجابية الشديدة، ويرجع له الفضل فى تشكيل قوانين السلوك الاجتماعى، وخلق جنين علم الحضارة، حيث بين بالتفصيل المرتب كيفية تداخل طبيعة الأرض والسكان والعوامل الاقتصادية فى تشكيل المجتمعات. وله فى ذلك مقولة شهيرة "ترجع أسباب الاختلافات المنظورة بين الأجيال إلى الفروق الاقتصادية التى تميز كل منهما". لا بد هنا من مقارنة ذلك بمقولة كارل ماركس "إن وسائل الإنتاج لمتطلبات الحياة المادية، تحدد - بصفة عامة - الخصائص الاجتماعية والسياسية والثقافية فى مسيرة الحياة (مرجع ١٣). لاشك فى أن ابن خلدون قد سبق غيره من مفكرى أوروبا فى عصر ما بعد النهضة.

يرى الفقهاء الأصوليون، أنه بالرغم من انتقاد ابن خلدون لمن سبقه من الفلاسفة المعتمدين على النظريات اليونانية، إلا أنه ظل عقلانياً. فقد ثاروا بحدة لتطبيقه مبدأ العصبية (الولاء للمجموعة) على النبوة، حيث أشار بلزوم اتحاد القبائل، لتحقيق عقيدة مبنية على الوحي الإلهى.

كذلك أثارهم ملاحظاته اللاذعة، بشأن خشونة وفضاظة سلوك العرب، إضافة إلى أنه عزا معظم أجاد العصر الذهبى إلى غير العرب، حيث كتب يقول:

"من الحقائق المدهشة -مع استثناء بعض الحالات القليلة- أن معظم الأساتذة سواء فى الدين أو فى العلوم الثقافية، كانوا من غير العرب، فإذا تصادف أن كان

منهم من له أصول عربية، فيلاحظ أنه غير عربى اللسان والنشأة وحتى معلميه كانوا من غير العرب. هذا بالرغم من أن الإسلام دين عربى ومؤسسه كان عربياً" (مرجع ١٤)

يلاحظ أن أصول ابن خلدون العائلية جاءت من اليمن، ثم استقرت فى إسبانيا، مما جعل معارضيه يشيرون إليه بازدراء على أنه "بربرى جاهل"، فى المقابل يشير هو إلى دولة العرب على أنها دولة همجية ذات ميول للنهب والتدمير.

فى الوقت الذى فضل فيه بعض الأساتذة المسلمين تجاهل ابن خلدون، اندفع آخرون فى هجوم شديد عليه (مرجع ١٥):

- فى محاضرة له بعنوان "مهنة الموت" أُلقيت فى بغداد عام ١٩٣٣، نادى سامى شوكت، المدير العام السابق للتعليم فى العراق، ورئيس منظمة شبه عسكرية للشباب، بنش قبر ابن خلدون وحرق كل كتبه فى العالم العربى، (مرجع ١٦)

- يصف طه حسين، الأستاذ المصرى المعاصر، ابن خلدون، كرجل منتفخ الذات، لدرجة مؤذية كما أنه عقلانى غير شريف متكرر فى زى الإسلام (مرجع ١٧)

من المؤسف فى حق الثقافة الإسلامية أن يبقى ابن خلدون أقرب إلى العدم الفعلى، حتى يكتشفه المستشرقون، والآن، وبعد اعتراف الغرب به وبريادته، يتبارى العديد من الأساتذة العرب باستثناء العرب العنصريين الأصوليين المتطرفين - فى الإشادة بابن خلدون.

-
- 1- Hayawan 1st ed. (Cairo 1325) Vol. 1, p. 80, Quoted by B Lewis in Islam in History. (New York, The Library Press, 1973).
 - 2- Encyclopedia of Islam, ed. E. J. Brill, (Leiden, 1971). Vol. 3, p. 912.
 - 3- Abu Rida, Rasail Al Kindi Al Falsafiya, p. 97, translated by A. J. Arberry in Revelation and Reason in Islam, (London. George Allen & Unwin. 1957), p. 35.
 - 4- The genius of Arab Civilization, ed. J. R. Hayes. (Mass.. MIT Press, 1983), p. 69.
 - 5- Edwin P. Hoyt. Arab Science, (Nashville. Thomas Nelson, 1975), pp. 60-4.
 - 6- Ibid., p. 66.
 - 7- Quoted in S. H. Nasr. Islamic Cosmological Doctrines, (London, Thames & Hudson), p. 183.
 - 8- W. Montgomery Watt, The Faith and Practice of Al Ghazzali, (London, George Allen & Unwin, 1953), pp. 32-3.
 - 9- Javed Ansari, ' This is a Formula for Islamic Scientific Impotence', Arabia: The Islamic World Review, 20 (April 1983), pp. 54-5.

- 10- M. Kaleemur Rehman, MAAS Journal of Islamic Science, Vol. 3, No. 1, pp. 45-56.
- 11- Averroes, Tahafut Al-Tahafut, (The Incoherence of the Incoherence), Translated by Van Den Bergh, (London, E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol.1), p. 317.
- 12- Philip K. Hitti Makers of Arab History, (New York, St. Martin's Press, 1968), p. 254.
- 13- See Ref. 2, p. 830.
- 14- Ibn Khaldun, Muqadimma, Translated by F. Rosenthal, (New Jersey, Princeton University Press, 1967), Vol. 3, p. 311.
- 15- An account of the reaction against Ibn Khaldun can be found in Shaukat Ali, International foundations of Muslim Civilization, (Lahore, United Publishers, 1977), pp. 93-191.
- 16- William L. Cleveland, The Making of an Arab Nationalist, (New Jersey, Princeton University Press, 1971), pp. 63-4.
- 17- Hitti, op. cit., p. 256.

الفصل الحادى عشر

لماذا لم تحدث ثورة علمية فى الإسلام ؟

عندما تسجل الحضارات العظيمة تاريخها بنفسها، تنتقى ما يلائمها من ماضيها، ثم تتباهى بأن عظمتها لا مثيل لها ولا منافس، كذلك فعلت الحضارة المتسيدة في زمننا المعاصر، ألا وهي الحضارة الغربية، حيث شككت رؤيتها للتاريخ الثقافي والحضاري، وحددت ضمناً مفهوم تطور العلم على أنه المسيرة الواثقة، ذات الاتجاه الواحد، البادئة من المفاهيم الإغريقية واليونانية وانتهاءً بعصر النهضة. تعدل هذا المفهوم تدريجياً عبر العقود القليلة الماضية، حيث اتسع الأفق قليلاً مع بداية تقدير امتداد جذور العلم إلى حضارات متعددة. ولعل الفضل يعود إلى أعمال التاريخيين الكبار من أمثال سارثون و نيدهام (Needham) الذين أبرزوا أهمية الدور الذي لعبته الحضارات العظيمة الأخرى مثل الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص، والحضارات الصينية والهندية، كما أكدوا على أنه لم يعد ممكناً التغاضي وإهمال دور هذه الحضارات، كما كان الحال في السابق.

نظراً لما كان لكل حضارة عظيمة من بصمات وتقدم على طريق المعرفة البشرية، فيصح نظرياً على الأقل، أن تُنادى أياً منها بأبوتها للثورة العلمية. مع ذلك تظل الحقيقة التاريخية قائمة، بأن العلم الحديث بدأ في الغرب. هنا يبرز التساؤل لماذا الغرب؟ يرى ماكس فيبر، الذي كان له أثره البالغ في تغيير نظرة الغرب إلى الحضارات الشرقية، أن السبب يكمن في سمو العقل الأوروبي الجماعي، حتى أنه تمادى في طرحه لفكرة تميز الجينات الأوروبية الحاملة لقدرة أكبر من العقلانية، مما يسمح بنمو أسرع لمبادئ العقلانية الرأسمالية. من الواضح أن هذا الجدل لا يستحق عناء المناقشة الجادة لسبب بسيط يتضح من ملاحظة النمو السريع للحضارة العلمية المعاصرة في دول عديدة غير أوروبية. مما ينفي الزعم بأن العقل الأوروبي يحتكر سيادة التفكير العلمي. يبقى رغم هذا عدد من التساؤلات مطروحة للمناقشة، خصوصاً عن السبب وراء عدم حدوث ثورة علمية في الحضارة

الإسلامية، وليكن ما بين القرنين التاسع، والثالث عشر. كان بإمكان خمسمائة عام من زعامة العلم والثقافة في العالم، أن تفرز منظومة عالمية حديثة للعلم المعاصر، ولكن ذلك لم يحدث. من البديهي أن أية تفسيرات تالية، لا يجب النظر إليها إلا على أنها مجرد افتراضات تخمينية. إذ لا يوجد معمل مناسب يتيح مراقبة ودراسة نمو جراثيم التقدم العلمي، في حالة وضعها في بيئات اجتماعية مختلفة أو دراسة مدى تأثيرها بالظروف المحيطة بها وغير ذلك. قد يستحيل تحديد عامل مسبب واحد، نظرًا لتعقيد تركيب المجتمعات البشرية وتعدد أوجه تأثيره بالعوامل الخارجية، إلا أن ذلك لا يقلل من شأن أهمية مناقشة الموضوع. قد يستوجب الأمر الخوض في مواضيع ومجالات متعددة تتراوح ما بين الفلسفة والقانون إلى الاقتصاد والسياسة، حيث إن بعض تلك الآليات التي عرقلت التقدم العلمي في المجتمعات الإسلامية في الماضي، مازالت حية وفاعلة إلى اليوم.

قد يكون من المناسب حصر الأسباب في خمس مجموعات كالآتي:

- أسباب متعلقة بالميل والفلسفة.
 - أسباب مترتبة على مفهوم التعليم.
 - أسباب ناتجة من طبيعة القانون الإسلامي.
 - أسباب راجعة إلى عدم وجود، أو ضعف المؤسسات الاجتماعية الاقتصادية مثل المدن ذاتية الإدارة والنقابات التجارية.
 - أسباب مترتبة على خصائص معينة للسياسة في الإسلام.
- يجوز الاحتجاج بأن هذه العوامل متداخلة مع بعضها إلى حد كبير وليست مستقلة ويؤثر كل منها على الآخر، على سبيل المثال تتأثر الميول والفلسفات بوضع ومدى تطور القوى المنتجة في المجتمع. فمن المعروف أن تفكير الناس في مجتمع المدينة، يختلف عنه في القرية، والعكس صحيح. إذ يستوجب استيعاب قوى إنتاجية جديدة وجود بعض الميول الاجتماعية. كذلك فإن التعليم يعكس المعتقدات الموجودة بالضرورة، إلا أنه يمكن تدخله ليكون من وسائل التغيير.

وعلى ذلك فبدلاً من الدخول فى مناقشات حول أيهم المسبب وإيهم الناتج، فسيفكتفى باستعراض وتحديد ما يبدو من تفسيرات واقعية ومعقولة.

أسباب متعلقة بالميل والفلسفة:

تحدد القدرة على اكتساب المعارف العقلانية الإيجابية، بمعنى آخر، القضية العلمية، إلى حد بعيد بالنظام الفكرى العام السائد فى مجتمع ما وفى زمن ما. حيث أن النظم الفكرية العامة، والمقصود بها المعتقدات والميول والأخلاقيات المتعارف عليها، والافتراضات السائدة، والمواقف الدينية والفكرية، تعتبر كلها من أهم الخصائص فى التاريخ البشرى. وقد شبههم جوليان هاكسلى (Julian Huxley) بالهيكل العظمى فى تطور الأحياء. فهم يكونون البنية الأساسية للحياة التى تمثلهم وتغطيهم.

يتواجد مفهوم العقلانية -المهم بالنسبة للعلم- فى كل نظام فكرى عام، إلا أن الأهمية المعلقة عليه قد تختلف من مكان لآخر. أما عن مفهوم لفظ العقلانية، فقد قدم نيتشه (Nietzsche) فيلسوف القرن التاسع عشر تعريفه الموجز: "العقلانية نسيج من التوصيلات التى تربط بين السبب والآخر". أما فى بحثه عن جذور العقلانية، فقد اضطر إلى الغوص متتبعا جذور نظرية المعرفة وأصولها فى أعماق علوم النفس.

فى رأى نيتشه أن العقلانية ناتج لا مفر منه لما يسميه "الرغبة فى السلطة" التى تقبع فى قاع الوجدان البشرى، وتحت الإنسان على التحكم فى أحداث عالمه الخارجى. هذه الرغبة فى السلطة هى المنهل الرئيسى لكل نشاط خلاق. والعقلانية ضرورية لتسامى تلك الرغبة، فبدونها يتلاشى أمل الإنسان فى السيطرة على الأحداث، أو فى إحداث أى تغيير واع للمجتمع، ويتحول الإنسان إلى مجرد "عوامة" طافية على الأمواج.

متسلحين بتلك الحجة، فيجوز التقدم لمعالجة التساؤل حول الأسباب التى تدفع بأحد المجتمعات لرعاية العلم وتغذيته بدرجات مختلفة عن المجتمعات الأخرى.

فإذا كان العلم هو الناتج التالى لرغبة الإنسان فى السلطة، وطالما أن المجتمعات كالأفراد، تختلف من ناحية مدى امتلاكها لتلك الخاصية الفطرية، يبنى على ذلك توقع أن حدة البحث عن أية علاقات سببية، عقلانية، ستفتر إلى حد كبير عند الإقرار بأن المشيئة الإلهية جزء من نسيج التوصيلات (المشار إليه سابقاً). هذا يعنى أنه كلما ازداد التدخل الإلهى فى أحداث العالم الخارجى للإنسان كلما يتضاءل تأثير مشيئة الإنسان على المشيئة العليا. ويتضاءل بالتبعية مجال ممارسة "الرغبة فى السلطة".

وفى حالة ما إذا كان التدخل الإلهى كاملاً، فيصبح حب الاستطلاع والتخيل والطموح، نوعاً من الإسراف وبلا معنى. فى الخلاصة فإن مجتمعاً يؤمن بالجبرية (القضاء والقدر) أو مجتمعاً يشغل فيه التدخل الإلهى جزءاً من نسيج توصيلاته السببية، فبلا شك سينتج عدداً أقل من غيره من الأفراد المتطلعين إلى استكشاف المجهول باستعمال آلات العلم.

لم يكن المجتمع الإسلامى فى أوج ازدهاره العلمى والثقافى، مجتمعاً جبرياً يؤمن بالقضاء والقدر، بدليل أن المجادلات الحامية بين المؤمنين بقدرة الإنسان (القدرية) وحرية إرادته وبين المؤمنين بالقضاء والقدر (الجبرية) كانت فى عمومها تحسم لصالح القدرية. لكن السيطرة التدريجية لمبادئ مذهب الأشاعرة الجبرى، أنهكت قوى "الرغبة فى السلطة"، فى المجتمع الإسلامى لدرجة قاتلة، وأدت إلى بعثرة روحه العلمية. أصر أنصار مذهب الأشاعرة على إنكار أى صلة بين السبب والآخر، من ثم أنكروا التفكير العقلانى. ليس ذلك فقط بل رفضوا أيضاً فكرة السببية الثانوية، بمعنى أن الله مسئول فى النهاية عن كل شئ، فقط فى إطار القوانين التى وضعها للعالم.

تبدو طبيعة الأشاعرة المعارضة للعلم بوضوح من اعتقادهم باستحالة توقع أى شئ. حتى أصبح من المستحيل توقع وصول سهم منطلق إلى هدفه، ذلك لأن الله يقضى بفناء العالم بأسره فى كل لحظة، ثم يعيد بنائه من جديد فى اللحظة التالية. على ذلك يصبح من المستحيل توقع مكان السهم فى اللحظة التالية لوضعه

المعروف فى اللحظة السابقة، لأن الله وحده هو الذى يعلم كيف سيعيد خلق الكون فى تلك اللحظة التالية. ولقد استعرضنا فى فصل سابق آراء الغزالى - الذى كان أكثر أتباع الأشاعرة تأثيراً - بشأن إنكاره القاطع بوجود علاقات سببية، وكيف ساق مثل قطعة القطن المحترقة التى لا تحترق بسبب اقتراب النار منها بل بسبب تدخل الله، إما مباشرة أو من خلال ملائكته، لتنفيذ عملية الحرق.

كما يُنهى الغزالى إحدى مناقشاته لذات الموضوع قائلاً "وهذا يُفند ادعاءات هؤلاء الذين يزعمون أن النار مسببة للحريق وأن الخبز مسبب للشبع والدواء طريق للصحة... إلخ (مرجع ١). وقف تسيد المنطق الجبرى بما يحمله من إنكار حرية الإنسان وقدرته على الحكم على الأشياء والأحداث ورفض المبادئ العقلانية للحضارة اليونانية، موقفاً مناهضاً ومعوقاً لإحراز أى تقدم ثقافى ذو قيمة فما بالنا بأى ثورة علمية.

كان تزايد الطبيعة الاستهلاكية لمجتمع العصر الذهبى وما بعده من الأسباب الأخرى التى أدت إلى إحباط مبدأ التعليم من أجل التعليم. حيث شاعت فكرة أن الأشياء المستعملة فعلاً، هى فقط الأشياء النافعة والمرغوبة. لم يكن الحال كذلك فى الأيام الأولى للنمو الحضارى، فعندما أسس الخليفة المأمون بيت الحكمة فى بغداد، ثم بعث بإرسالياته نحو كل صوب للحصول على وثائق العلم والتعليم، كان دافعه الأساسى تابع من رغبته فى فعل الخير، وليس بهدف الحصول على مكاسب مادية. فى الواقع لم يكن احتمال المنفعة المادية قائماً من الأساس، فلم يكن هناك مجال لاستعمال الثروة المعرفية فى تطوير التكنولوجيات الموجودة آنذاك، حيث لم تكن العلاقة بين العلم والتكنولوجيا واضحة بالدرجة الكافية وكما نعرفها الآن. كانت هناك بعض الاستثناءات كما حدث فى مجالى الطب والكيمياء القديمة، إلا أن طابع المعرفة بشكل عام لم يكن مرتبطاً بأى قيمة استهلاكية، على العكس سادت فى النهاية فكرة أن المعرفة الوحيدة النافعة هى المعرفة العملية المرتبطة مباشرة بمتطلبات الحياة. ثم تلى ذلك بالضرورة أن تنتشر تشويه سمعة المعرفة النظرية فى المجتمع الإسلامى وتزامن ذلك مع تصاعد الصرامة الدينية وغلق أبواب التساؤل والاجتهاد.

يمكن رؤية عدم الاهتمام بالمعرفة النظرية غير النافعة بين المسلمين، بداية من القرن الرابع عشر واستمرارها إلى زمننا المعاصر. حتى أن ابن خلدون - مفكر العصور الوسطى الذى لا يبارى - لم يهتم كثيراً بما يحدث فى باقى العالم:

"بلغنا أن فى أرض الفرنجة على السواحل الشمالية للبحر، يكثر الطلاب على العلوم الفلسفية وأن مبادئهم تنتعش من جديد، وحلقات دراستها منتشرة وعدد طالبيها فى ازدياد" (مرجع ٢)

لم ير ابن خلدون فى ذلك نذيراً بحدوث تطور هام، أو حدثاً يستوجب التقليد، على النقيض، ظل معارضاً لدراسة الفلسفة كما ظل معارضاً لدراسة الكيمياء القديمة. ولعل موقفه هذا يعكس بحق الأجواء والميول العامة لعصره التى افتقدت إلى روح التساؤل الحر.

يظهر ضعف حب الاستطلاع فى الأجيال التالية من المسلمين، يبدو ذلك واضحاً فى العثمانيين الأتراك الذين أسسوا إمبراطورية كبرى فى القرن السادس عشر، عرف الحكام العثمانيون استعمال بعض الابتكارات التكنولوجية للغرب كما قدروها تماماً، بالرغم من ذلك لم يظهر لديهم أى ميول لتتمة الفكر أو لتقدير أن التكنولوجيا ما هى إلا ناتج مباشر من نواتج التفكير العلمى. يلاحظ ذلك من موقف جيسلين من بوسبك (Ghiselin de Busbecq) سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى اسطنبول فى خطاب كتبه فى عام ١٥٦٠:

"لا توجد دولة أكثر تكاسلاً فى تبنى اختراعات الآخرين، فقد وافقوا مثلاً على استعمال المدافع الصغيرة والكبيرة بالإضافة إلى عدد كبير من اختراعاتنا، إلا أنهم لم يتمكنوا أبداً من طباعة الكتب أو من تشييد ساعة فى ميدان عام. ويقولون إن كتبهم المقدسة ستفقد قدسيّتها إذا طبعت أما إذا أنشأوا ساعات عامة فيعتقدون أنها ستقل من شأن مؤذنيهم وطقوسهم القديمة. (مرجع ٣)

يبدو عدم اكتراث العثمانيين بعجائب الاكتشافات العلمية واضحاً من التقرير الذى كتبه مصطفى هاتى أفندى (Mustafa Hatti Efendi) عن زيارة وفد تركى

رسمى للنمسا فى عام ١٧٤٨، إذ كان إمبراطور النمسا قد دعا الوفد لزيارة أحد مراصدهم الذى يحتفظون فيه بشئى الأشياء والآلات العجيبة. جاء فى التقرير "أما ثالث الحيل فكان عبارة عن أنابيب زجاجية سميكة رأيناها يضربونها بالخشب والحجارة دون ان تنكسر، ثم وضعوا فيها قطعاً صغيرة من أحجار الاشتعال فإذا بالأنابيب تنهشم كالدهيق. عندما سألنا عن مغزى ذلك قالوا إن هذا يحدث عند تبريد الزجاج بعد تسخينه. نحن نرى فى تلك الإجابة غير المعقولة، نوعاً من حيل الفرنجة. (مرجع ٤)

من الملاحظ أن النزعة الاستهلاكية تواجدت أيضاً عند المغول الذين حكموا الهند منذ عام ١٤٨٠ حتى انتصار الإنجليز عليهم فى عام ١٧٥٧. تنامى التفاؤل بالتكنولوجيات الحديثة فى عهد حكم "أكبر" حيث ظهرت بعض الآثار المشجعة مثل الآلات ذات التروس المحدبة وتقطير الكحول والعطور والعصيات الخاصة بالمناظير والتليسكوبات، وتبريد المياه باستعمال ملح البارود (نترات البوتاسيوم) كما تم بناء عدد كبير من السفن المشابهة لسفن الأسطول الأوروبى الحديث. رغم كل ذلك، ورغم الإعجاب الشديد بفنهم المعمارى، فإن التاريخ لا يسجل أى فضل لهم فى الإنجازات الثقافية مثل إنشاء الجامعات أو المراصد أو تشجيع الفكر الإيجابى. ...

ينتشر النمط الاستهلاكى فى زمننا المعاصر كما يظهر مقترنا بالمبادئ المعارضة للثقافة، على سبيل المثال لم يلفظ السيد م.ا. قاضى، المستشار العلمى للرئيس الراحل ضياء الحق كلامه عن الموضوع فقال: "لا علم من أجل العلم فى الإسلام، ولا معرفة من أجل المعرفة. لكل شئ غاية، وهى استعمال المعرفة العلمية لصالح البشرية جمعاء".

أما السعوديون، فقد أفصحوا صراحة من جانبهم، عن مدى سعادتهم بالرفاهيات التى قدمتها لهم عجائب التكنولوجيا الحديثة، كذلك عبروا عن عدم إعجابهم بنظريات المعرفة العلمية. أكثر الظن أنهم يخافون تأثيرها المحرر للعقول، ولأخطارها المحتملة على مجتمع قائم على نظام هرمى جامد، ونظام حكم الأسر، حيث تستمد السلطة الحاكمة شرعيتها بلجونها إلى المشيئة الإلهية وأحكامها.

لا يبشر تسيد الميول والقيم الاستهلاكية فى المجتمع الإسلامى الحديث بكثير من الأمل فى تنمية المجال العلمى، فمن المعروف أنه متى قرر البشر عدم الالتفات إلا لما يحقق نفعاً واضحاً مباشراً، نقل قدرتهم بالتبعية على تنمية الفكر التجريدى اللازم لخلق الآلية الثقافية والفكرية الضرورية للنشاط العلمى، التى يتحتم فصلها عن المنافع البديهية الواضحة. يلخص أحد علماء الفيزياء الإيرانيين الموقف فى قوله:

لم نقدر على تطوير العلم إلا المجتمعات الروحانية الحقيقية... يتأصل فى المجتمعات الاستهلاكية عدم التجانس مع القيم الروحية الخالصة. فالدولة التى لا تمتلك فلاسفة كباراً لا يمكن أن يكون بها علماء كبار. إذ أن الفيلسوف على حد تعبير هايديجر (Heidegger)، رجل قادر على دوام التأمل، وهذا ما يميز العالم أيضاً. أما الرجل الاستهلاكى فغير قادر على التأمل. على ذلك تصبح قدرته على تنمية العلم، من الأمور المشكوك فيها بشدة (مرجع ٦).

دور التعليم فى الإسلام:

تتضح القيم والأهداف التى يطمح إليها أى مجتمع، من الأساليب التى يتبعها فى تعليم النشء حيث تبين ما إذا كان المجتمع يرغب فى التغيير والتطور أم يفضل إما الوضع الحالى، أو العودة إلى الخلف.

من المفيد فى هذا المجال، حصر الفروق وتحديدّها، بين التعليم الدينى التقليدى والتعليم المدنى الحديث. فلكل منهما فلسفته وأهدافه وأساليبه الخاصة، التى تختلف جذرياً فى كل حالة منهما. هذه الأنماط تسمى بلغة علماء الاجتماع بالأنماط المثالية (Ideal Types) (مرجع ٧)، ويمكن تلخيصها فى الجدول التالى:

التعليم التقليدي	التعليم الحديث
١- موجه نحو عالم آخر	موجه نحو الحداثة
٢- يهدف إلى الذوبان فى المجتمع الإسلامى	يهدف إلى تنمية الفردية
٣- نفس المناهج منذ العصور الوسطى	تستجيب المناهج للتغيرات المحتملة فى المواضيع
٤- المعرفة ملهمة ولا اعتراض عليها	الحصول على المعرفة من خلال التجارب والاستنتاج
٥- تُحصل المعرفة بناءً على أمر إلهى	تحصل المعرفة للاحتياج إليها كأداة لحل المشاكل
٦- عدم تشجيع التساؤل عن المسلمات والفرضيات	يشجع التساؤل عن المسلمات والفرضيات
٧- نمط التعليم سلطوى بصفة عامة	نمط التعليم يشمل مشاركة الطالب
٨- التذكر مهم جدًا	استيعاب المفاهيم الأساسية مهم جدًا
٩- يُوجه عقل الطالب ليكون مستقبلاً سلبياً	يُوجه عقل الطالب ليكون إيجابياً
١٠- التعليم بصفة عامة غير محدد	يمكن للتعليم أن يكون متخصصاً جدًا

يوضع فى الاعتبار أن فكرة الأنماط المثالية، فكرة تجريدية بالضرورة، إلا أن النماذج المذكورة تفرق بكفاءة بين المدخلين المختلفين للتعليم، كما تشير إلى أن خاصية التردد والاستظهار الشائع فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة، يمكن تتبع أثارها إلى ميول متوارثة من التعليم التقليدى الذى يرى أن المعرفة شىء يُكتسب

ولا يُكتشف، كما يقف فيه العقل موقف المستقبل السلبي، لا موقف النشاط والتساؤل. إن طبيعة التشكيل الاجتماعي لبيئة تقليدية، سلطوية، لا تنتج في نهاية الأمر إلا النظر إلى المعرفة على أنها من الثوابت التي لا تقبل التغيير، وإلى الكتب الدراسية كشيء مبدل واجب الحفظ (الاستظهار). أما مبدأ النظر إلى المعرفة كأحدى آليات حل المسائل، إضافة إلى تطورها المستمر مع الزمن، فهو غريب تمامًا بالنسبة للفكر التقليدي.

في الماضي، حين كان المعلم يستمد سلطانه من قوى خارج نطاق المنافسة، تحتم تحول التعليم برمته إلى نمط سلطوي. كان من الشائع في الهند أيام حكم المغول -كما يحدث حتى الآن في مدارس القرى - أن يجلس المعلم في مواجهة تلاميذه المصطفين أمامه، ثم مع نهاية درس الإملاء أو غيره، ينطق المعلم بالكلمة المشهورة "والله أعلم" معلنا بذلك انتهاء الحصة. من ثم يتوجه التلاميذ إليه بكل توقير لتقبيل يديه قبل الانصراف. يمكن تتبع جذور فكرة الاستظهار في التعليم إلى تصميم مناهج التعليم بالمدرسة النظامية في القرن الحادي عشر. حيث انتقل المنهج بإخلاص من جيل إلى جيل، كما تم تبنيه في فترة الهند المغولية. جدير بالذكر أن المنهج كان منصبًا على حفظ القرآن والأحاديث. يشير ابن خلدون في إحدى دراساته المقارنة عن التعليم في البلاد الإسلامية في القرن الرابع عشر، إلى أن بعض المواد مثل الشعر والحساب والهندسة دخلت في مناهج التعليم في فارس وإسبانيا المسلمة فقط، أما باقي البلدان، فاعتبرت هذه المواد، مواد مدنية بدرجة كبيرة تتنافى مع تدريسها للتلاميذ. كان على التلميذ أن يكتب شيئًا على لوحة صغيرة ثم يظل يرددها حتى يحفظها عن ظهر قلب قبل أن يمحوها لكتابة الفقرة التالية. كذلك سجل أحد الكتب القديمة، أنه كان على التلاميذ في العصر العباسي، قراءة القرآن في الفترة الصباحية، ثم يقضون باقي النهار - باستثناء فترة الفسحة - في كتابة ما قرعوه، كما أنهم يقومون مرتين أسبوعيًا بعد ظهر أيام الثلاثاء، وصباح الخميس بتصحيح كتاباتهم.

خلق نظام التعليم التقليدي، بتأكيد على أهمية الحفظ الكامل، معايير الخاصة بالتفوق ومثالياته الخاصة. يتمثل أحد الأمثلة في قول محمد بن زياد العربي من

الكوفة المتوفى ٨٤٠، إنه كان يقوم بالتعليم لمئات التلاميذ على مدى عشر سنوات، فكان يملئهم دون اللجوء إلى ورقة واحدة مكتوبة في يده، متباهياً بقوة ذاكرته. كذلك يقول أحد المؤلفين من القرن التاسع بكل زهو "إن فلاناً يتميز بذاكرة أفضل من غيره من الناس، حيث استمع إلى مقولة لى، فظل يرددها طوال الليل، ثم أعادها على فى الصباح، رغم أن المقولة كان طولها خمسين صفحة". أخيراً هناك هذا الأستاذ الذى ارتحل من بغداد ليقوم بالتعليم فى إيران، ولجأ إلى حفظ الأحاديث ووقائع السيرة التى يريد تدريسها بدلاً من حمل الكتب الثقيلة، على ذلك قام بحفظ ثلاثين ألف منها. ويروى الأشخاص الذين راجعوا محاضراته بعد ذلك، أنه لم يخطئ إلا فى ثلاثة فقط. لم يتغير أسلوب التعليم الإسلامى بعد انتهاء العصر الذهبى فى القرن الثالث عشر، حيث ظلت المناهج محدودة جداً، مما استتفز إمبراطور المغول المحافظ. أورانجزيب^١ (Aurangzeb) ليوجه اللوم إلى معلمه الأول قائلاً:

"ماذا علمتني؟ لقد قلت لى إن أرض الفرنجة جزيرة صغيرة، وكان ملكهم العظيم حاكماً سابقاً للبرتغال، ثم ملكاً لإنجلترا. قلت لى أن ملوك فرنسا وإسبانيا لا يختلفون عن حكامنا التفهاء. يا إلهى، ما هذا الذى بينته لى من الجغرافيا والتاريخ ! ألم يكن واجبك أن تعلمنى خصائص دول العالم المختلفة ومنتجاتها وقوتها العسكرية، ووسائل حروبهم وأسلحتهم وعاداتهم، ووسائل الحكم وسياساتهم؟

^١ أورانجزيب: ابن الإمبراطور المغولى المسلم شاه جيهان، أمر بقطع رأس أخيه الأكبر "دارا" الذى كان مرشحاً للعرش بتهمة الزندقة كما حدد إقامة ولده ثم تولى الحكم بعد ذلك. كان متقشفاً، يفرز الطوائف للحج وينسخ المصاحف ويبيع ذلك متخفياً فى الأسواق. تولى الحكم فى الفترة من ١٦٥٨-١٧٠٧. ثارت ضده كثير من الاعتراضات بسبب تكرار قتله لغير المسلمين، وأمره بهدم وتدمير الآلاف من المعابد الهندوسية، وبنى للمساجد على أطلال بعضها. أما مؤيدوه فلقبوه بخامس الخلفاء للراشدين، نظراً لالتزامه الشديد بأحكام الشريعة، خاصة فيما يتعلق بتعامله مع غير المسلمين. (المترجم)

أنت لم تُقدر مدى أهمية التثقيف الأكاديمي لأمير. كل ما اعتقدت أنه مهم لي، كان التمكين من الحساب وغيره مما يصلح فقط للقضاة والمحامين". (مرجع ٩)

أبرز أورانجزيب في مقولته مدى ضيق أفق التعليم الذي يستبعد المعلومات العامة والعلوم الطبيعية. تسيد التثقيف الديني، إضافة إلى بعض ما يدعمه من مادتي الحساب والأدب، على التعليم. حدث بعد ذلك بعض التوسع النسبي في أفق التعليم، كما يلاحظ في المنهج الخاص بالشاه ولي الله (Waliullah) (المتوفى ١٧٦١) حيث تضمن بعض الرياضيات والفلك والطب. إلا أن التعليم المندى بصفة عامة ظل محتفظاً بأقل درجات الاهتمام بين المسلمين في شبه القارة الآسيوية. علاوة على ذلك فإن دلالات ما كان يُسمح به أحياناً من طرح بعض التساؤلات أو إجراء بعض التجارب، تظل قاصرة على العالم المادى الخامل، ولا يسمح لها إطلاقاً بالتعدى على مجالات الدين والثقافة. ظل الوضع، كما هو عليه، حتى بداية القرن التاسع عشر، عندما فكر الإنجليز في إدخال بعض العلوم الأوروبية والعلوم الإدارية والحسابية في مناهج التعليم. اختلفت ردود فعل الشريحتين الكبار، الهندوس والمسلمين. حيث رحب الهندوس بحماس شديد وطالبوا الإنجليز بفتح مجالات أكبر من التعليم المندى.

في المقابل، نظر المسلمون إلى الاقتراح الإنجليزي بشك شديد، ثم رفضوا الموضوع. قد يكون هذا الرفض نابع من الجذور التاريخية، حيث أنهى الإنجليز حكم المسلمين في الهند لقرون سابقة، مما جعلهم يرون في مقترحهم نوع من الحيل لتدمير العقيدة والحضارة الإسلامية.

تلخص رد الإنجليز بما هو معهود في المحتلين من خيلاء ومن الحط العلنى من قدر الإنجازات العلمية السابقة للمسلمين، في الخطبة التى ألقاها اللورد ماكولاى (Macaulay) فى الثانى من فبراير عام ١٨٣٥ حيث قال ساخراً:

"تعاليمهم الطبية التى يخجل منها أى طبيب بيطرى إنجليزى، الفلك الذى يضحك الفتيات الصغار، التاريخ المشحون بملوك عمالقة، طول الواحد منهم ثلاثون قدماً، ويدوم حكمه ثلاثون ألف سنة، والجغرافيا المكونة من بحار من العسل وبحار من الزبد" (مرجع ١٠)

شعر المسلمون بالاستياء والإهانة مما دفعهم إلى رفض اقتراح ماکولای بتعميم التعليم الحديث فى الهند، حيث وافق ثمانية آلاف من فقہائهم فى کلکتا على استفتاء بهذا الشأن وتقدموا بطلب إلى الحكومة لاستثناء المسلمين. (مرجع ١١) يقال أن مشروع قانون التعليم هذا، كان أحد الأسباب الهامة التى أدت إلى الأحداث الدامية فى عام ١٨٥٧. تبعًا لذلك قاطع المسلمون التعليم الحديث، وفضل معظم الآباء إرسال أبنائهم إلى الکناتیب، أما القلة التى تحدث المقاطعة فتعرضت لمختلف ألوان الضغوط الاجتماعية والتهديدات. اعتبر المسلمون المتشبهون بأمجاد ماضيهم أيام المغول، أن الأعمال المحاسبية وإمساك الدفاتر إنما تصلح فقط لأبناء طائفة الهندوس السفلى. فى هذا الجو الموحش، بدأ السيد أحمد خان معركة إصلاح التعليم للمسلمين التى نالت حظًا متواضعًا من النجاح.

فى الخلاصة، فإن التعليم السلطوى بطريقة الاستظهار، يُعد من النواتج الحتمية للتعليم التقليدى وقد يكون مناسبًا لبعض المجتمعات الخاملة، أما بالنسبة للمجتمعات النامية الهادفة إلى التطور، فلا بد من البحث عن بدائل متوازنة لتلبية احتياجات التقدم المنشود مع الإبقاء على التراث التاريخى والحضارى. لعل عدم قدرة نظام التعليم التقليدى على تلبية احتياجات العالم المتغير، من أهم أسباب حرمان المسلمين من فرصة قيادة الثورة العلمية فى العالم.

دور القانون الإسلامى (الشريعة):

لم تكن الثورة العلمية والصناعية، فيما بعد عصر النهضة فى أوروبا، بسبب الفلاسفة والمفكرين وحدهم، بل كانت خليطًا مركبًا من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية. أدى التقدم التكنولوجى إلى خلق آليات ضخمة للإنتاج سرعان ما احتضنتها الطبقة البورجوازية التى استطاعت فى النهاية تحويل مسار النظام الاجتماعى من النمط الإقطاعى إلى طريق الرأسمالية الحديثة. فالبورجوازية، حسب تعريف كارل ماركس، طبقة قادرة على التنسيق بين مختلف وسائل الإنتاج وقادرة على الابتكار والاستثمار، كذلك حددها ماركس بأنها العدو الطبقي المستغل للطبقة العاملة.

يتساوى عملياً الاستفسار عن أسباب عدم حدوث ثورة علمية فى الإسلام، والسؤال عن أسباب عدم ظهور طبقة بورجوازية قوية. أقام ماكس فيبر وتابعيه الحجة على أن طبيعة ممارسة القوانين الإسلامية (الشريعة) كانت عاملاً حاسماً فى هذا الشأن.

فى رأى فيبر أن وجود الطبقة البورجوازية يتطلب وجود نظام قضائى قادر على فض المنازعات حول عدة مسائل مثل حقوق الملكية وخصائص العقود والتبادلات المصرفية إلخ. من ثم يجب أن تستمد الأحكام من قوانين عقلانية لا من قوانين متوقفة على آراء شخصية كما أن أفق هذه القوانين يجب أن يتسع للمشاكل والحالات المتعلقة بمناخ اقتصادى مركب. كذلك يتطلب الأمر إصدار قوانين جديدة لما قد يستجد من مواقف، ولابد لهذه القوانين الجديدة أن تكون متسقة مع القوانين الموجودة بالفعل. ذلك أن العقلانية القضائية، مطلب مسبق لقيام الرأسمالية الحديثة كما أن من شأنها (الرأسمالية الحديثة)، أن تنهار بسرعة فى غيبة منظومة متماسكة من القوانين الواضحة.

علوة على ما سبق، فإن الهيكل القانونى المدنى والعقلانى المطلوب لقيام الرأسمالية لا يتوافق مع طبيعة الشريعة الإسلامية المستوحاة من العقيدة الدينية، مما يترتب عليه عدم استقرارها على قواعد محددة واضحة. حيث إنها مستمدة بالكامل من الوحي ومن السيرة النبوية. بناءً على ذلك تنحصر مهمة القاضى فى العثور على نص أو تقليد دينى سابق ليطبقه على ما بين يديه من قضايا. فليس فى الإسلام. فى رأى فيبر. صناعة القوانين، بل فقط "العثور على قوانين". إن غياب الفصل الواضح بين الأخلاقيات الإسلامية والقانون، يعنى عدم إمكان وضع نظام قانونى متماسك يخدم الطبقة البورجوازية ويحمى الممتلكات الخاصة فى ظل نظام عقلانى شامل حيث إن: "للمحاكم الشرعية صلاحية قضائية فى حالات النزاع حول الأراضى مما يجعل استغلال الأراضى مستحيلاً كما حدث مثلاً فى تونس...ينم الموقف تماماً عن الأسلوب الذى تتداخل به السلطة القضائية الدينية - ولابد لها أن تفعل - فى أعمال النظام الاقتصادى العقلانى". (مرجع ١٢)

من الناحية الشكلية البحتة، فمن الجائز أن يكون لأتباع "قيير" بعض الحق في حجتهم بمعاداة الشريعة الإسلامية لبعض العناصر الحيوية اللازمة للرأسمالية، مما أدى إلى عدم ظهور مؤسسات مصرفية على منوال المؤسسات المماثلة التي قامت في أوروبا، كذلك معهم حق، فالشريعة عبارة عن منظومة ثابتة من القواعد وغير قابلة للتغيير مع الزمن. يظهر هذا واضحاً من وضع المذاهب الأربعة الكبار في الإسلام والتي لم تتغير منذ إرساء قواعدها من قبل كل من: مالك بن أنس (المتوفى ٧٩٥). وأبو حنيفة (المتوفى ٧٦٧) ومحمد ابن إدريس الشافعي (المتوفى ٨٢٠) وأحمد بن حنبل (المتوفى ٨٥٥). تتميز الفروق الأساسية بينهم في الأهمية النسبية التي تمنحها أيها منها لبعض الآيات القرآنية وكذا مدى رؤيتهم لمصادقية أحداث السيرة. جدير بالذكر أن جميع مشكلات اختلاف الفقهاء تمت تصفيتها مع نهاية القرن الحادى عشر حيث أغلق رسمياً باب الاجتهاد.

يجب التأكيد على أن تأثير الشريعة على تحديد توجه النمو الاقتصادى فى المجتمع الإسلامى، لا يمكن التوصل إليه من خلال مجرد تصريحات شكلية، حيث تبين الممارسة الفعلية، أن المسلمين كانوا قادرين - عبر العصور - على تخطى مختلف تعاليم الشريعة، كلما اقتضت الحاجة الاقتصادية أو السياسية ذلك. فعلى سبيل المثال يطرح ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) الفرنسى الإسلامى، رأيه بأن منع الإسلام لإقراض المال نظير فائدة معينة، لم يمنع ممارسة الربا بشكل واسع فى المجتمع الإسلامى، وأن الأثر لذلك كان خلق وسائل عبقرية للتلاعب والاحتيال. حتى خُصصت كتب بالكامل، يرجع تاريخها إلى القرن التاسع، لشرح وسائل الحيل المختلفة. يحتوى كتاب رودنسون المعنون "الإسلام والرأسمالية" (Islam and Capitalism) على استعراض واف لماضى وحاضر تلك الحيل. يتعلل مفسرو الشريعة بأن الأحكام الإسلامية تغطى المعاملات الدولية والشركات المتعددة الجنسيات والاقتراض من جهات مانحة أجنبية وبعض قواعد الضرائب إلخ. لكن تبقى الحقيقة، إن هذه الأمور لم تُطرح أو تُناقش بطريقة جدية ولم يُتفق عليها حتى الآن. على ذلك فلدى كل الدول الإسلامية قواعد مستمدة من القواعد القانونية المدنية المتفق عليها عالمياً. كذلك كان من الأولى للقوانين

الإسلامية أن تمنع الدول الإسلامية من قبول القروض ذات الفوائد من الدول غير الإسلامية أو الإسلامية على السواء، لكن الواقع الفعلى يشير بأن الشريعة لم تقترب من هذه المسألة. كذلك الحال فى السياسات الداخلية للدول الإسلامية الحديثة حيث تُحترم الشريعة ظاهريًا فقط. إن إصرار بعض المتطرفين على منع تصوير أو رسم صور الوجوه، لم يمنع تلك الدول من تطبيق القوانين الخاصة بضرورة إرفاق الصور الشخصية عند استخراج بطاقات الهوية، كما لم تمنع البث التليفزيونى، مما يوضح بجلاء أن الهدف الأساسى للسلطة الحاكمة هو تأمين سيطرتها على الجماهير.

هناك أمثلة عديدة على خروج رجال الدين البارزين عن قواعد الشريعة، نذكر منها موافقة الفقهاء البارزة على تجارة المخدرات (الهيروين) فى مناطق شديدة التدين قرب الحدود الباكستانية. غنى عن الذكر أن كل مبرراتهم الدينية كانت مغرضة بكل تأكيد، فمما لا شك فيه أن المصالح المادية قادرة على قهر القيم الأخلاقية والدينية.

فى الخلاصة فرغم الاتفاق على احتياج النمو الرأسمالى فى البلاد الإسلامية إلى بعض القوانين الثابتة، المستمدة من القواعد العقلانية، إلا أنه لا يوجد أى دليل قاطع على أن ممارسة الشريعة فى حد ذاتها، منعت العالم الإسلامى من التقدم فى هذا الطريق. بناء على ذلك، فلا يمكن الوقوف عند هذا الحد فى البحث عن أسباب عدم ظهور حضارة إسلامية صناعية حديثة حتى الآن.

أسباب اقتصادية

عندما قام الاستعمار باحتلال الأراضى الإسلامية فى القرن الثامن عشر، كان المجتمع الإسلامى غارقاً فى ممارساته وقيمه المتوارثة منذ العصور الوسطى، كما لم يكن لديه طبقة بورجوازية متوسطة يمكن من خلالها من استغلال التقدم التكنولوجى لتحويل المجتمع من مجتمع إقطاعى إلى مجتمع رأسمالى. يرى البعض أن على الرغم من ذلك، فإن كلا من الهند ومصر، كانتا على قرب شديد من نقطة التحول لتكوين رأسمالية اجتماعية واقتصادية عندما تدخل الحكم الاستعمارى وحال

دون تطورها الطبيعي. من البديهي عدم إمكان رفض هذه الإدعاءات ببساطة، حيث كان هناك عاملان مهمان عرقلا ظهور الطبقة البورجوازية. يتمثل الأول في وجود طبقة مدنية حضرية تعتمد على نظام مستقر للامتصاص من الفلاحين، ويتمثل الثاني في غياب وجود مدن ذات إدارة محلية ونقابات تجارية، إذ أنها لعبت دوراً هاماً في تنمية الرأسمالية الأوروبية.

نتنقل الآن لفحص تلك العوامل عن قرب:

الاقتصاد الامتصاصي (Extractive Economy) :

سواء في الأراضي العربية تحت حكم العثمانيين، أو الهندية تحت حكم المغول، فلا شك أن الحضارة الإسلامية كانت بكل تأكيد حضارة مركزة على الحضر (أي حياة المدن) لم يكن للفلاحين اتصال كبير بحياة المدنية إلا من أجل بيع منتجاتهم لسكان المدن كما كانوا يعيشون في عالم متخلف ومنعزل تماماً عما جرى.

في المدن، عيّن الخلفاء والملوك من ينوب عنهم من ولاية وحكام وغيرهم لضمان إمداد الفلاحين لهم بالإيراد والطعام، حتى في أوقات المجاعات. كان لابد من الحفاظ على المدينة في حال أفضل من القرية. إن الاعتماد الطفيلي للمدينة على القرى، مع ضمان الإمداد بالإيراد والطعام، قلل بشكل حاسم الدافع لتبني التكنولوجيات المتطورة في عمليات الإنتاج. يلاحظ في تلك المجتمعات قبل-الرأسمالية أن هدف الإنتاج كان الاستهلاك المباشر، وهو نمط منظم من خلال التقاليد والنظم الهرمية¹ السابقة، ولم يكن الهدف تحسين أو تطوير وسائل إنتاجية جديدة. إن استقرار هذا النظام الامتصاصي، يفسر -إلى حد بعيد- بقاء المجتمع الهندي بصفة عامة على شكله منذ العصور الوسطى، يناقش الأستاذ عرفان حبيب

¹ للنظام الهرمي أي نظام ترتيب المجتمع في شرائح، تقف رموزها العليا في قمة الهرم يليها تدرج شرائح المجتمع، درجة بعد درجة حتى الوصول إلى القاعدة العريضة الممتلئة بعمامة الشعب. (المترجم)

(Irfan Habib) أستاذ تاريخ العلم بجامعة اليجار الإسلامية، أسباب تقاعس نبلاء المغول ومتفقيهم عن تحصيل المعرفة الخاصة بالآلات الميكانيكية فيقول:

"قد يكمن تفسير الوضع الاقتصادي لنبلاء المغول في استناد الطبقة الحاكمة على نظام داخلي مستقر من استنزاف الفائض الزراعي، ونقله إلى المدن في صورة مواد غذائية أو مواد خام، هذا إلى جانب توفر عدد كبير من الحرفيين والخدم بالمدينة. لم تشعر الطبقة الحاكمة بأى حاجة للحصول على "اللعبة الميكانيكية" الأوروبية لتحسين الإنتاج، طالما كان الوضع الزراعي مستقرًا. ظهر الاحتياج للتكنولوجيا فقط في حالة الرغبة في الحصول على الأسلحة الحربية. لم تكن تستورد المدافع فقط، بل والجنود اللازمين لتشغيلها أيضا. (مرجع ١٣)

يبحث الأستاذ حبيب أيضا في احتمالات ظهور تطور رأسمالي في المجتمع الهندي، حيث كان حجم رأس المال التجارى كبيرا بالدرجة التى تسمح بالاستثمار فى التكنولوجيا الحديثة. لكن المحصلة كانت سلبية:

"كانت لديهم الورش الخاصة بهم ولم يكن من المعتاد تشغيلها إلا فى حالة ما إذا كانت المواد الخام عالية الثمن بحيث يخشى من توزيعها على الصناع فى منازلهم. ويلاحظ أن معدات الورش لم تختلف كثيرا عما كان يستعمله الصناع فى المنازل. على ذلك لم يحدث أى تطوير، حتى فى رأس المال المستثمر فى الآلات البدائية الذى كان بإمكانه مع الوقت، جذب مزيد من الاستثمارات فى التأسيس لتحسين التكنولوجيا. هناك أيضا احتمال أن أرباح التجار الكبيرة من وراء تقديمهم لوسائل الراحة والرفاهية لأفراد الطبقة الحاكمة ممن يملكون ثروات طائلة، تلك الأرباح أفقدتهم الرغبة فى الاستثمار فى آلات لا علاقة لها بالكسب التجارى السريع. فى الخلاصة فإن السياسة التى اتبعتها الإمبراطورية المغولية، المتعلقة بإساءة استخدام الموارد الزراعية حصنت اقتصادها ضد أية محاولة لتقليد التكنولوجيا الأوروبية. (مرجع ١٤)

مؤسسات الإدارة المحلية

فى سياق تحليله لنهضة الرأسمالية الأوروبية، يتعرض ماكس فيبر (سبقت الإشارة إليه) للأهمية البالغة لقيام المدن الأوروبية ذات الإدارة المحلية ودورها فى تنمية الروابط والمشاركات فى الحياة، وحيث لعبت دوراً حاسماً فى ظهور مجتمع متحد اجتماعياً وقانونياً. تميزت معظم المدن الأوروبية بذاتية الإدارة، كما احتفظت كل منها بحاميتها العسكرية الخاصة، كذلك تميزت بتجانسها وتكاتها الداخلى فى مواجهة أية تحديات خارجية. أتيح تنفيذ ذلك لأن تلك المؤسسات الاجتماعية لم تكن مرتبطة بنظام سلطوى جامد، ينتقل من جيل إلى جيل بالتوريث. أرجع فيبر نجاح هذا النظام إلى طبيعة الديانة المسيحية، لكن حججه لم تكن مقنعة. على أية حال فلا شك فى أهمية قيام المؤسسات ذات الإدارة المحلية كأحد الآليات الهامة فى سبيل نمو وتطوير الرأسمالية.

تبدو الصورة مختلفة فى المدن الإسلامية حيث كانت تُحكم من خارجها بواسطة الأسر الحاكمة التى سيطرت على التجارة ووسائل النقل والأمور العسكرية . مما لم يتح الفرصة لظهور المؤسسات البلدية (المحلية) أو لضعف تأثيرها إن وُجدت. بناء على ذلك فلم تتحول المدن إلى كيانات متكاملة، بل تحولت المدن فى الأراضى الإسلامية، كما فى الهند المغولية، إلى تجمعات غير متجانسة، حيث انصب اهتمام حكامها على إدارة شئون المساجد والمرافق العامة. كما لا يخفى أن الانتماء إلى فريق أو مذهب معين كانت له أهميته البالغة فى تشكيل الوعى الاجتماعى. يلاحظ تواجد أنظمة مشابهة حتى اليوم.

فى الوقت الذى لم تتح فيه طبيعة حياة المدن المفككة الفرصة لتنمية مؤسسات نقابية واسعة. إلا أن نقابات الحرفيين كانت مشابهة إلى حد كبير لمثيلاتها فى أوروبا (مرجع ١٥)، بل إن بعضها يرجع تاريخه إلى القرن التاسع. شملت هذه النقابات منها مختلفة مثل الصاغة والأطباء والمعلمين والسقاين والنجارين وحتى للدعارة واللصوص. يلاحظ فى نفس الوقت أن تحكم السلطات العليا الخارجية فى هذه النقابات كان ملموساً إلى حد بعيد، ولعل الدافع الحقيقى وراء هذا التحكم كان

لمنع ظهور قوى معارضة لدفع الضرائب. فى الواقع كانت السلطات هى التى تؤسس تلك النقابات وتضع لها قواعد العمل، بدءا من أسلوب العمل العام ووسائل التدريب ونوعية المنتج ودرجاته، نهاية بأسعار بيع المنتج. يبدو ذلك بوضوح من الواقعة التى حدثت فى اسطنبول فى عام ١٨٠٧ حيث صدرت الأوامر إلى الإسكافيين (صانعى النعال) بمنع إنتاج أية أحذية أو نعال بأطراف مدببة حيث كان ذلك متافيا مع التقاليد القديمة (مرجع ١٦)

يمكن تلخيص الموقف كالتى: لم تنشأ النقابات الإسلامية برغبة من الحرفيين أنفسهم بهدف حماية مصالحهم، بل أنشأتها السلطات بهدف مراقبة العمل والعاملين وفوق كل شىء حماية السلطة من قيام مؤسسات ذاتية الإدارة. (مرجع ١٧)

بناءً على إنجازات التجربة الأوروبية يجوز افتراض أن تواجد مؤسسات ذاتية الإدارة فى المجتمعات الإسلامية كان من شأنه أن ينمى الصناعة ويتيح استمرار بقائها فى مقدمة العالم كما كانت حتى القرن الرابع عشر، حيث شملت صناعاتها فى تلك الحقبة صناعة الورق فى العراق وسوريا وشمال أفريقيا وإسبانيا وصناعة النسيج والملبوسات والسجاجيد والأحذية وغير ذلك. هذا بالإضافة إلى التعدين السطحى لخامات الحديد والنحاس وصناعة السفن وأشغال الحديد فى إسبانيا. للأسف لم تكن صناعات المعادن أو الآلات قد تطورت بعد. كما أن باقى المنتجات من البلاد الإسلامية لم تكن قادرة على المنافسة مع مثيلاتها من الدول الصناعية الغربية. ورغم استمرار التفوق الإسلامى فى بعض الصناعات القديمة مثل صناعة الزجاج وأشغال الحديد لفترة ما، فإن كفة الغرب رجحت تماما بحلول القرن الثامن عشر حيث تلاشت كل آثار التفوق والندية السابقة.

أسباب سياسية

أغار هولاكو المغولى بجيوشه على بغداد فى عام ١٢٥٨ وقتل الخليفة، منهيا بذلك عصر الخلافة العباسية. عم الخراب والدمار أرجاء المدينة حتى أن أحد المؤرخين يذكر أن عدد الجثث التى تراكت فى الشوارع يقارب الـ ٨٠٠٠٠٠، دُمرت أشغال الرى وظهرت المجاعة، وانتهت بذلك بغداد كمنارة للحضارة

الإسلامية. من المهم في هذا الصدد ملاحظة أن انهيار الحضارة الإسلامية كان قد بدأ بالفعل قبل كارثة الدمار المغولي. كان الخلفاء قد خسروا الكثير من قوتهم للسلطين المدنيين ونزعزت مؤسسة الخلافة حتى حان انتهاءها يلاحظ أيضا أنه رغم الخسارة الفادحة الناجمة من الغزو، إلا أن الأثر كان قاصرا على العراق وسوريا إلى حد كبير، أما باقى الحضارة الإسلامية فى إسبانيا والمغرب فلم تتأثر، تلا ذلك أن تحول الغزاة تدريجيا إلى الإسلام وبدأت مرحلة جديدة من الحضارة والنمو الاقتصادى. على ذلك فلا يجوز إلقاء اللوم على العوامل السياسية الخارجية فقط، حيث كانت هناك أيضا عوامل داخلية، نابعة من المجتمع ذاته، لعبت دورها الهام فى وقف حركة تطوره الاقتصادى والسياسى والثقافى.

إن عدم وجود طبقة برجوازية قوية، إضافة لضعف مؤسسات الإدارة الذاتية كالمدن والنقابات التجارية، ارتبط بحقيقة أن نظام الخلافة فى الإسلام باستثناء زمن الخلفاء الراشدين، لم يكن قائما على نظام مؤسسى، ومنهج واضح يضمن استمرارية السياسة أو يدعم مراكز بديلة للسلطة. وكما تشير نظرية الماوردى (Al-Mawardy) فى الخلافة فإنه كان على الخليفة أن يلتزم ببعض المثل العليا كالورع والعدالة، إلا أن الواقع كان شيئا آخر، حيث كان الطريق إلى أروقة الحكم قاصر على أصحاب الدسائس والمؤامرات وأصحاب القوة. شعر الغزالي بهذا الانقسام بين الأخلاقيات المثلى وممارسات الخلفاء للسلطة المركزية:

”يا له من سلطان همجى يتصرف تصرف الشياطين طالما ساندته القوة العسكرية، ولا يمكن عزله إلا بصعوبة شديدة، كما أن محاولة عزله ستسبب فى معاناة شديدة فوق الاحتمال، لابد بالضرورة من تركه فى السلطة مع تقديم فروض الطاعة والولاء له، تماما كما تقدم للأمراء... الحكم فى هذه الأيام تابع لمن يملك القوة العسكرية، أما الخليفة فيمكن أن يكون أى شخص يتمكن من التحالف مع القوة العسكرية. (مرجع ١٨)

يختلف أسلوب دخول الدين فى دائرة السياسة اختلافا جذريا بين أوروبا من ناحية والإسلام من ناحية أخرى. كانت الكنيسة فى حد ذاتها مؤسسة قوية أمّلت

على رعاياها الطاعة الكاملة لها واستطاعت من مركز البابوية في روما، أن تصنع الملوك وتعزلهم، ووصلت بنفوذها إلى فرنسا وإنجلترا. كما أن الاستبداد الذي مارسه لم يترك فرصة لأحد للانشقاق. يبدو ذلك واضحا من محاكم التفتيش التي أنشأتها لمحاكمة المشتبه فيهم بالزندقة، فكانت بحق أشنع فترات التاريخ التي مرت على البشرية. ولم تتهدب سلطاتها إلا بعد ثورة لوثر للإصلاح.

في المقابل لا توجد كنسية في الإسلام، ولا يوجد مركز رسمي لسلطة استبدادية. بناءً على ذلك كان عدد إدانات الأساتذة والمفكرين في الإسلام أقل بكثير منه في أوروبا. كما لا يوجد شيء مشابه لمحاكم التفتيش في الإسلام، ويمكن إرجاع الفضل في ذلك إلى طبيعة العقيدة الإسلامية التي تسمح بقدر أكبر من حرية تفسير النصوص الدينية. هذه الحرية ذاتها منعت قيام سلطة سياسية - دينية مركزية للرجوع إليها لفض المنازعات. على ذلك تمكن كثير من المغتصبين من الاستحواذ على السلطة وإدعاء الزعامة الدينية. كان باستطاعتهم إضفاء ثوب الجهاد على المنازعات حول الحدود أو على السلطة، كما كان بإمكانهم تحريك مشاعر الجماهير الدينية لقهر الأقليات أو الجماعات الدينية غير الأصولية. كذلك فإن غيبة كنيسة مركزية ساعد على عملية الانشقاق إلى جماعات جديدة.

على عكس المتوقع فإن وجود درجة عالية من الأخلاقيات، متمثلة في حرية الفرد في تفسير النص الديني دون الحاجة للجوء إلى رهبان، قادت فيما يبدو إلى ضعف مؤسسى منظم أثبت قدرته على قتل المسيرة السياسية والاقتصادية - ناهيك عن العلم والتكنولوجيا - على المدى البعيد.

- 1- Averroes, Tahafut Al-Tahafut, (The Incoherence of the Incoherence), translated by Van Den Bergh, (London, Luzac and Co., 1954), I, p. 318.
- 2- Ibn Khaldun, Quoted in the The Arabs by Peter Mansfield, (Harmondsworth, Penguin Books, 1987), p. 102.
- 3- Quoted in B. Lewis, The Moslem Discovery of Europe, (New York, W. W. Norton, 1982), pp. 232-3.
- 4- Ibid., p 232.
- 5- M. A. Kazi in 'Knowledge for what?', (Proceedings of the Seminar on the Islamization of Knowledge, Islamic University, Islamabad, (1982), p. 69.
- 6- Mohammad Hussein Saffouri in Islamic Cultural Identity and Scientific-Technological Development, Klaus Gottstein (ed.), (Baden-Baden, Nomos, 1986), p. 92.
- 7- An informative discussion on the past and present of Muslim education can be found in Modernization of Muslim Education, (Lahore, Islamic Book Service, 1983),
- 8- Muslim Education in Medieval Times, Bayard Dodge, (Washington D.C., The Middle East Institute, 1962), p. 11.

9- S. M. Ikram. *Rud-i-Kawthar*, (Karachi, 1958), pp. 426-6, Quoted in *Islam by Fazlur Rehman*, (London, Weidenfeld and Nicolson, 1966), p. 187.

10- H. Sharp, *Selections from Educational Records: Part I (1781-1839)*(Calcutta, Government Printing, 1920), p. 110.

11- Maulana Hali, *Hayat-e-Javed*, (Lahore, 1957), p. 447.

12- Max Weber, *Economy and Society*, (Vol. 2, New York, G. Roth and Wittich 1968), p. 823.

13- Irfan Habib, ' Changes in Technology in Midieval India' paper presented at the Symposium on Technology and Society, Indian History Congress, Waltair, 1979.

14- Ibid.

15- Bryan S. Turner, *Weber and Islam* (London, Routledge and Kegan Paul, 1974), pp. 100-106.

16- H. A. R. Gibb and Bowen, *Islamic Society and the West*, (London 1950), Vol. I, p. 283.

17- Turner, *op. cit.*, p. 103.

18- Al-Ghazzali in *Ihya II* 124 (Cairo, 1352), Quoted in *Studies on the Civilization of Islam*, By Hamilton Gibb (New Jersey, Princeton University Press, 1962), pp. 142-3.

الفصل الثاني عشر

بعض الخواطر للمستقبل

يحتاج العالم الإسلامي بصفة عاجلة إلى إجراء إصلاحات جذرية في النواحي التعليمية والاجتماعية والسياسية، حتى يزدهر العلم وتنتعش الكرامة الإنسانية. خاصة وأنه خاضع حاليًا لسيادة قوة الغرب العسكرية، ومستمر في التراجع أمام بعض المؤثرات الداخلية، كما أنه ممزق بالخلافات والعداوات، ومحبط بمصيره التاريخي، وملتصق بقوة بحضارته السالفة.

انتشرت الحركات الإسلامية المسلحة في جميع أنحاء العالم كظاهرة معبرة عن الإحساس بالاحتياج للإصلاح، كذلك للتعبير عن مشاعر الغضب وخيبة الأمل السائدة في العالم الإسلامي. تختلف الدوافع من مكان لمكان، تدور الدوافع حول العدالة الاجتماعية والسياسية في فلسطين وكشمير، في حين يتمثل نموذج آخر في إيران أيام حكم الخوميني، حيث وجد البعض في الإسلام نموذجًا عقائديًا لتحريك الثورات ضد النخبة المدنية. نموذج ثالث يتمثل في الجماعات الإسلامية في باكستان والإخوان المسلمين في مصر، حيث تمتد جذورهما بين طبقات الشعب المتوسطة. وهم ينشدون السلطة، لكن لا يجدون الاعتراف الكامل بهم في ظل الأنظمة الحاكمة الحالية. وأخيرًا، هناك حركة دولية، تتمركز أساسًا في الغرب وتتكون من المهاجرين الذين يجدون في انتمائهم للمنظمات الإسلامية، إحساسًا بالانتماء والأمان وسط مجتمعات غريبة عليهم حضاريًا ووسط ظروف معيشية صعبة.

يرى زعماء تلك الحركات، أن الغرب هو المسئول عن الوضع المتدهور الحالي للدول الإسلامية، من خلال الفساد الناجم عن الغزو الثقافي الغربي، إضافة للتحالفات الشيطانية بين القوى العظمى. أما الحل فيرونه في اتباع طريق إسلامي بحث مع رفض كل ما هو غربي مثل العلم الغربي، والعقلانية الغربية، والديمقراطية الغربية. كذلك يرى المؤيدون لتلك الهبات الإسلامية أن لها أهمية

تفوق كثيرًا أهمية الثورة الفرنسية التي تعتبر علامة مميزة على طريق انتصار العقل والتحرير الفعلي للشعب الفرنسي.

لعل من أشد الأمور إثارة للقلق أن التيار الديني الأصولي، كان الوحيد - على طريق الكفاح ضد الظلم والقهر - الذي نجح في تحويل استياء الجماهير إلى مكاسب سياسية. نجحت الحركات المتطرفة في تسيد الخطاب الثقافي في البلاد الإسلامية الهامة، أما الحركات الإسلامية الحديثة، التي لا ترى تعارضًا بين الإسلام، والعلم والعقلانية، فقد خسرت هيمنتها الثقافية والفكرية، حيث تم إبعاد أنصارها من مختلف المسارح السياسية والثقافية. أما نظام التعليم الحديث، الذي كان نشطًا ومتطورًا منذ حوالي خمسين سنة، فقد تهاوى بوضوح في الدول الإسلامية الكبرى. حيث أخذ الأصوليون على عاتقهم مهمة إرشاد المسلمين لمصيرهم. واتضح أن وصفاتهم العلاجية للمجتمع، ما هي إلا دعوة إلى كارثة، من المحتمل أن تكون بداية لعصر أسود جديد للمسلمين. أصبح نبذ الاستعمار مبررًا للتوجه الأعمى نحو الماضي، وللنداءات المنشّجة الرافضة للمعرفة والعقلانية، بما لا يحقّ إلا مزيدًا من الميل في ميزان القوى المائل بشدة على أي الأحوال. يبدو في الخلاصة أن وسائل الاتصال بالطرق العقلانية والتفكير العلمي قد قُطعت عن مجموعة من البشر، مما أدى تلقائيًا إلى إضفاء معالم القوة على مجموعة أخرى.

يلزم إيجاد أسلوب بديل للبرنامج الأصولي المطروح، وذلك بتأسيس إطار للفكر والعمل، على أساس من العلم والمنطق، على أن يكون متسقًا مع الموروث الحضاري للمسلمين.

أولاً: علينا إسقاط فكرة وجود حل بسيط وفريد لكل إشكاليات المجتمع، أو أن هناك موقف مماثل لكل مشكلة ممكنة، وأن حلها موجود في مكان ما في التراث. ذلك لأن الواقع ينطق بأن المجتمع المعاصر يواجه - في كل منحى من مناحي الحياة - الكثير من المشاكل المعقدة، التي يمكن التصدي لها بأساليب متعددة. كما أنه لا يوجد مثيل في الماضي لكثير من هذه المشاكل. على سبيل المثال، توجد حالياً قضايا تلوث البيئة في مواجهة متطلبات التوسع الصناعي، وتزايد الكفاءة من

خلال الميكنة على حساب العمالة، ونوعية التعليم فى مقابل الكم، والنظم المصرفية والتجارية الدولية والقوانين النقابية.. إلخ. ذلك لأن للمجتمعات الحديثة المعقدة، مشاكل معقدة ومتفرعة وتحتاج بالتالى إلى حلول معقدة ومتعددة الجوانب، ولا يتوقع أن يصل أى حل إلى درجة الكمال. فى مثل تلك الظروف، يجرى البحث عن المقاييس الكمية لا النوعية لتقدير مدى نجاح أو فشل أساليب الحلول. بالتالى يُفقد القياس المطلق وتتحوّل الأمور إلى مسائل رمادية، لا أسود فيها ولا أبيض.

نظرًا لأن قوانين المجتمعات الحديثة ليست مطلقة، لذلك فهى قادرة على التكيف والتغير فى ضوء الخبرات المتراكمة، من أجل علاج التجاوزات والأخطاء، ولا يأتى الإصلاح فجأة، ولكن يحدث تدريجيا. فى المقابل، حلم العقائديون بأن فى جعبتهم صورة فريدة للقوانين غير القابلة للتغيير، كما يحلمون بإصلاح المجتمع كله فى حركة واحدة مقدسة. يؤدى السعى للوصول إلى مجتمع مثالى، إلى مجتمع سلطوى بالضرورة، مليء بعدم السماحة والعنف، ذلك لأنه متى تم تحديد الهدف النهائى، فلا يُسمح لأحد بنقده أو تغييره. لا يخفى على أحد ما سببته عجرة هؤلاء الذين يعتقدون بأنهم وحدهم يمتلكون الحقيقة الدينية، من مأسى ومعاناة. من الملاحظ أن كثيرًا من أعمال العنف التى يقوم بها أنصار "المجتمعات الفاضلة" تستهدف عناصر من أتباع نفس العقيدة.

من الأفضل، بدلاً من التخطيط لمجتمع وهمى فاضل، الاهتمام بحل جزئيات المشاكل المطروحة على الساحة، واحدة تلو الأخرى، بطريقة مرتبة وعقلانية، وواقعية. يتطلب الوعى باستحالة وجود حلول مثالية شاملة، درجة عالية من النضج على مستوى المجتمع وعلى مستوى الأفراد. حيث أن السماحة الفكرية والعقائدية، لا يمكن وجودها إلا فى المجتمعات الناضجة، التى تستطيع أن تمنح مواطنيها القدر اللازم من الحريات.

ثانيًا: لابد من محاربة الميول التى تخلق بين التحديث والتغريب (نسبة إلى الغرب) حيث كثر الاستخدام الخاطئ للفظتين، باعتبارهما مترادفين يحملان نفس المعنى، فليس من الضرورى أن يكون غريبًا كل ما هو متمدن وحديث. كذلك

ليس من الضروري الفصل بين الحداثة والتقاليد. ذلك لتواجد بذور الأساليب الحديثة لمواجهة الحياة داخل تاريخ الحضارة الإسلامية ذاتها، يبدو ذلك بوضوح في النزعات العقلانية القوية في أعمال ابن سينا، وابن رشد والرازي وغيرهم، كما أن الشخصية الحديثة لا ترفض الروحانيات، وكل ما في الأمر أن توجهاتها واهتماماتها تتركز حول الحاضر والمستقبل بدلاً من الماضي. كذلك هي مفتوحة للأفكار والخبرات الجديدة، وقابلة للمنطق وحساب المواقف والعواقب بدلاً من التسليم بالقدر، كما أن لها رصيد ضخم من المعرفة والحقائق، وتعتمد على التخطيط والإدارة، ورغبة في قبول واحترام آراء الآخرين ومعتقداتهم. تحتاج المجتمعات المنظمة في مسيرتها الجادة إلى أناس معاصرين من أنصار الحداثة، قادرين على رؤية العلاقة بين الأسباب والآثار، وقادرين على فض المنازعات دون اللجوء إلى العنف، كما يعرفون كيف يستخدمون المرافق العامة، وكيف يرشدون إنفاق أموالهم، وكيف يقضون أوقات راحتهم بطريقة سليمة.

الحداثة في حد ذاتها هدف، يجب الكفاح من أجله، فهي جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان العقلانية الفطرية، وليست من المستوردات الاستعمارية. لا يستدعي دعم نمو ميول الحداثة في المجتمع، اللجوء بالضرورة إلى تشجيع المواد الاستهلاكية الغربية، كما أن تقليد الأنماط الاستهلاكية الغربية، لم يدعم أبداً أية أخلاقيات عقلانية، على العكس، فكثيراً ما قامت تلك الأنماط بامتهان الهوية الحضارية، علاوة على زيادة حجم المخلفات. على سبيل المثال، تنتشر في الغرب عادة إرضاع الأطفال عن طريق الزجاجات، مما أعطى انطباعاً بأن ذلك شيئاً حديثاً يجب اتباعه. لكن إذا وضع في الاعتبار ارتفاع تكلفته بالنسبة لدخل الفرد، ومخاطر عدم كفاءة تعقيم الزجاجات، خاصة في الظروف الفعلية لشعوب دول العالم الثالث، فلا مناص من الإقرار بأن الإرضاع عن طريق الزجاجات ليس دائماً أفضل الوسائل لاستعمال الموارد الطبيعية، وعلى ذلك فلا يمكن اعتبارها من ضمن ممارسات الحداثة، رغم أنها ممارسة غربية.

تسير الحداثة والعلم سوياً في هذا العصر، بحيث ينظر إلى العلم كأسمى تعبير عن العقلانية البشرية. علينا أن نتذكر، أن العلم دخل أول ما دخل إلى الدول

المحتلة فى صورة منتجاته، لا فى صورته الحقيقية كمنظومة فكرية. وما زال مفهوم العلم - فى كثير من الدول الواقعة فى شرك التجارة الغربية - قاصر على إبهارات الأسلحة الحربية، والطائرات، وأجهزة التليفزيون إلخ. إضافة إلى ذلك فإن نمو الصناعات ذات التقنية العالية فى دول جنوب شرق آسيا، التى قامت على استخدام الأيدى العاملة الرخيصة للفلاحين المقهورين، لم تقدم إلا أقل القليل على طريق تقدير قيمة المنهج العلمى. تأكيداً لذلك، فيلاحظ مدى جهل النخبة فى الدول النامية بأبسط المعلومات عن تطور علوم التفاضل والتكامل، والكهرومغناطيسية وعن استحالة وجود منتجات العلم الحديثة بدونها. لا شك فى عدم إمكان فهم واستيعاب العلم، دون التقدم فى نفس الوقت، فى تنمية برامج التعليم العقلانية الحديثة، التى يلاحظ عدم الالتفات إليها حالياً بالتقدير اللازم. لا خلاف على أهمية استثمار الموارد فى التعليم، لكن هذا وحده لا يكفى، ما لم يتم الاهتمام بمحتوى المناهج التعليمية فى المقام الأول. حيث أن الهدف من العملية التعليمية فى المجتمعات الحديثة هو إنتاج شخص قادر على الفكر الناقد، يؤمن بقوة المنطق كما يكون مستوعباً تماماً للمفاهيم والقيم الرئيسية التى يقوم عليها بناء المجتمعات المنظمة.

ثالثاً: يجب إعلان هدنة لوقف المعارضة المستمرة للعلم الحديث كمشروع لنظرية المعرفة، مع الاستمرار فى الوقت نفسه فى مناقشة أهدافه النفعية. أكد كثير من العلماء كما أكد كثير من قادة المؤسسة الدينية المستبشرين على عدم وجود تعارض حقيقى بين الدين والعلم. بل أنهما فى الحقيقة مكملان لبعضهما. حيث يجب احترام وتنمية الجانب الدينى المتعلق بقدرة الإنسان الفطرية على التأمل، وفى المقابل يمكن استخدام العلم لدعم القيم الأخلاقية للدين خاصة وأنه يؤكد بإصرار على البحث عن الحقيقة. كما أن العلم فى أغواره، بما يحمل من تقدم معرفى، يضع الإنسان وجهاً لوجه مع لغز الوجود، مما يخلق إحساساً عميقاً بالقدسية.

مع الإقرار بتكامل الدين والعلم، تلزم التفرقة الصريحة بين المجالات الروحانية والمجالات الدنيوية، فقد اختلطت المعرفة المدنية بالمعرفة الدينية إلى

حد كبير فى تاريخ الإسلام، وهى حقيقة اعتبرها بعض المسلمين العقلانيين المعتدلين من أمثال أحمد خان، ظاهرة مؤسفة ومتعارضة مع الإسلام. تركزت جهود المسلمين العقلانيين حول محاولات الفصل بين المجالين. من أجل تخفيف حدة الجدل المتزايدة، والارتباك الواقع حول معظم الموضوعات. فعلى سبيل المثال تزايدت الحيرة حول مفهوم لفظ المعرفة "علم"، ومما يذكر فى هذا الصدد أن فرانز روزنتال (Franz Rosenthal) قام بحصر ١٠٧ مفهوم مختلف له. كما قام أحد الأساتذة العرب فى القرن السادس عشر بسرد ٣١٦ تعريفاً له. وعلى الأساتذة المسلمين المعاصرين أن يتوصلوا، ويتفقا، ويحددوا رؤيتهم عن تفسير الـ"علم" كما ورد بالقرآن، وعلاقته بمختلف أوجه المعرفة فى شتى فروع المعرفة الحديثة.

من أجل التفرقة بين مجالات الدين والعلم، لابد من الاتفاق على إن العلم ما هو إلى منطق مرتب لفهم العالم المادى، أما الدين، فهو احتضان مبرر ومناسب للمنطق فيما يتعلق بكل التساؤلات الواقعة خارج نطاق العلم، مثل : لماذا وجد العالم ؟ أو " ما هدف الحياة؟". إن العلم الحديث، يتفق تماماً مع كل من الإيمان بالدين والإلحاد، تعنى هذه الصراحة قدراً كبيراً من حرية التفسير. لا وجه للتناقض، إلا إذا تداخلت المجالات بفعل فاعل كما يحدث عندما يتمسك أحد رجال الدين بإبداء رأيه فى مسائل خارجة عن نطاقه، إنما تدخل بالكامل فى نطاق المعالجة العلمية. يجب أن يتامى الوعى بأن أى تعديل فى مفهوم الدين لا يرقى إطلاقاً إلى إلغاء الدين ونفيه. إن تغيير النظرة العلمية -مثل ما حدث من تفوق للميكانيكا الكمية على الرؤية الكلاسيكية فى حينها للأمور- تم قبوله بوجه عام على أنه انتصار للعلم. فى المقابل، فإن أى تغيير فى الرؤية الدينية مثل قبول الفيضان العظيم كمجرد رمز وليس كحقيقة فعلية مستندة إلى النص، يهدم العقيدة كلها، فلا يجب النظر إلى تلك الأمور على أنها انتصار لجانب على الجانب الآخر، بل هى إما انتصار كامل أو هزيمة كاملة، ليس بالنسبة للأطراف المتنازعة فقط، ولكن بالنسبة للبشرية جميعها. تجب متابعة العلم بكل جدية ليس فقط من أجل التقدم، بل أيضاً من أجل الاستتارة العقلية، ويجب التأكيد على أن العلم ليس بديلاً عن الدين بحال من الأحوال، كما أنه لا يمثل منظومة أخلاقية بذاته فالعلم يقدم هيكلًا

ونموذجاً لحساب الأمور وتقديرها، ولا يعرف شيئاً عن العدالة أو الجمال أو الإحساس. يخطئ البعض حين ينظرون إلى العلم بنظرة ضيقة، فيقدسونه ويرفعونه إلى مرتبة الأخلاقيات والقيم، فلم تنتج هذه النظرة سوى الفراغ العاطفي في الحضارة التكنولوجية، والسعى من أجل الحصول على أسلحة الدمار، إضافة إلى التدمير القاسي للبيئة باسم التقدم الاقتصادي والاجتماعي بين البشر. لابد من محاربة هذا اللبس بنفس قوة الكفاح من أجل العقلانية، مع مراعاة أن أرض المعركة من أجل تصحيح النظرة المعيبة للعلم، تقع في الغرب، في حين تقع أحداث معركة العقلانية في الشرق.

رابعاً: يجب الإقرار الواضح بعدم وجود قانون في الطبيعة يقصر التقدم العلمي والتكنولوجي على دول الغرب. فالعلم والتكنولوجيا ليسا بحال من الأحوال تحت إمرة، أو في خدمة مصالح الغرب السياسية أو القومية. كذلك لا يوجد سبب لقبول عدم المساواة الواقع بين الدول أو بداخلها - كما لو كانت بأمر إلهي. لابد من إزالة تلك الفوارق بقدر المستطاع حيث إن البشر في جميع أنحاء العالم متساوون في القدرات ويجب أن يكون لهم نفس الحقوق.

يتطلب الأمر تجريد مراكز الهيمنة من أسلحتها، هذه المراكز التي لا تسمح فقط، بقهر وامتهان الدول، بل تسمح بذلك أيضاً بين شرائح المجتمع المختلفة. تبدو هذه النقطة الأخيرة واضحة تماماً في الدول النامية، حيث تشاهد الفوارق الصارخة بين رفاة الطبقة العسكرية الحاكمة وبين باقي أفراد الشعب. كذلك يتطلب التقدم نحو الحدائق تشجيع الجماهير على الاشتراك في التخطيط والتنفيذ كلما أتيت ذلك. فالاعتماد على الناس، في حقيقته تعبير عن احترام الموروث الحضاري، حيث إنهم وحدهم حملة الحضارة والتقاليد. في نفس الوقت، يجب اتخاذ الحذر الشديد فليست كل التقاليد إيجابية بالضرورة ولا تؤدي كلها للتقدم.

يجوز للمرء أن يتفاعل بشأن انتصار المنطق حتى ولو بدت الأمور على غير ذلك. فبرغم ما قد يبدو أحياناً من ضعف قوة المنطق، إلا أنه مستمر ودائم ما يتحرك في اتجاه واحد. وعلى العكس فقوى اللا منطق تتصارع باستمرار

صراعاً عقيماً للقضاء على بعضها. يشهد التاريخ أن البشرية لم تتقدم كجسد واحد، بل لم يأت أى تقدم إلا بعد صراع طويل بين قوى المنطق والا منطق وبين من ينشدون النور وبين من يخافونه. إن أهداف المعركة القادمة واضحة، وتكثُر حول إثراء الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية وتحرير روح الإبداع والدفاع عن الحرية.

فى الختام، أود أن أذكر أن الهدف من هذا الكتاب لم يكن أبداً السعى للحكم على العقيدة الإسلامية من واقع التخلف العلمى للدول الإسلامية. قد تبدو هذه الملاحظة غير لازمة لثلاثة أسباب، السبب الأول أن هناك اتفاق عام بين المسلمين على أن الإسلام فى صورته الحق لا يمارس فى أى مكان فى العالم. من ثم، ومن وجهة النظر هذه، فلا علاقة بين وقائع الحاضر والمثاليات الإسلامية. السبب الثانى يكمن فى وجود تفسيرات متعددة للعقيدة بما يسمح بالفصل التام بين العالم الذى نعيشه وبين العالم الآخر، بما يسمح بالتوافق مع الفكر العلمى. السبب الثالث والأخير أن النجاح المادى للتأبوع المخلصين لأى عقيدة، لا يفيد شيئاً عن مدى صدق أو صلاح دينهم.

لنقطة الأخيرة أهمية خاصة، ولتقدير أهميتها علينا أن نتذكر أنه عندما وصلت العقيدة البوذية إلى اليابان فى القرن السادس الميلادى، ساور الحكومة كثير من الشك حول صدقها، فأمرت أحد رجال الحاشية بتبنيها على سبيل التجربة، بحيث يتم تبنيها وتعميمها إذا تحسنت أحواله وازدهرت أعماله، وإلا فلترجع الديانة بأدب من حيث أنت. من الواضح أن هذا الاعتماد القاطع على عنصر النجاح المادى لم يلق قبولاً واسعاً. فى الخلاصة، فالحكم على الإسلام كعقيدة لا يتم من خلال تقييم إنجازات أو سقطات أتباعه.

ملحق

يسمونه علماء إسلاميًا

هذا الملحق عبارة عن مقالة معدلة، أنشرها هنا بعد موافقة مجلة هيرالد الشهرية التي تصدر في كراتشي حيث نشرت أصل المقال في يناير ١٩٨٨.

ظهر في السنوات الأخيرة أحد الأعراض البارزة للأصولية الدينية، يتكون في جوهره في محاولة لنشر مجال الأسلمة في باكستان إلى ما هو أبعد من دوائر الاهتمامات الاجتماعية، بحيث تشمل أيضًا مجال الظواهر الطبيعية، ويسمونه علماء إسلاميًا.

نهض فجأة هذا المارد من مخلفات العصور الوسطى البائدة منذ زمن طويل. ينشد هذا الـ"علم" الجديد إثبات أن كل ما هو متاح من علم ومعرفة اليوم، قد جرى التنبؤ به منذ ١٤٠٠ سنة، كما يزعم أن كل التوقعات العلمية يمكن الوصول إليها من دراسة الكتاب المقدس. ومرة أخرى، كما حدث في العصور الوسطى، تُوج الفقه ملكا على رأس العلوم. يأتي الدعم المادى بسخاء من بعض الدول الإسلامية، سواء من خلال بعض الشخصيات المرموقة أو المؤسسات الكبرى. لقد أتى هؤلاء بشيء وقدموه على أنه البديل الإسلامى لمواجهة تحديات العلم الغربى الحديث. وعلى حد تعبير أنصار ذلك التيار فلا مكان للعلوم المدنية العادية فى أرض الأطهار، كما يجب إعادة ذلك العلم، بالإضافة إلى كل المنتجات الغبية لحضارات بلا آلهة مثل الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، إلى مصدرها فى الغرب حيث يجب أن تكون.

مؤتمر المعجزات العلمية :

كان لى شرف مراقبة العلم الإسلامى الجديد عن قرب، حيث وانتهى الفرصة عندما عقد المؤتمر الدولى للمعجزات العلمية فى القرآن والسنة (International conference on Scientific Miracles of Qu'ran and Sunnah)

تحت رعاية الرئيس الجنرال ضياء الحق، في إسلام آباد في ١٨ أكتوبر ١٩٨٧. وحضره المئات من مختلف الدول الإسلامية. شارك في تنظيم هذا الحدث الضخم، كل من الجامعة الإسلامية الدولية بإسلام آباد، ومؤسسة المعجزات العلمية بمكة. كانت الترتيبات رائعة بلا شك، ولحسن الحظ أذيع أن التكاليف الباهظة لن يكون لها أثر على دافعي الضرائب، حيث ساهمت الحكومة السعودية الشقيقة بنصف تكاليف المؤتمر المقدرة بأربعمئة ألف دولار. جدير بالذكر أن الحكومة السعودية كثيراً ما قامت بدعم مثل هذه الأنشطة النبيلة. وحتى لا يذهب الظن إلى أن هذا المؤتمر كان واقعة فريدة أو مجرد نزوة عابرة، فأود لفت النظر إلى مؤتمرين سابقين في نفس الإطار عُقدَا في كراتشي منذ شهور قليلة، إضافة إلى عدد غير قليل قبل ذلك. ولا شك في وجود النوايا لتنظيم مؤتمرات مشابهة في المستقبل وسياخذون مكانهم المناسب في التاريخ.

أتاح لي، مؤتمر المعجزات العلمية فرصة مدهشة للتطلع في المواضيع والاهتمامات التي تعنى العالم الإسلامي الجديد. يُرجى من القارئ بكل إخلاص أن يطّلع بنفسه على الإصدارات المنشورة التي تتضمن الأبحاث الرائدة التي أُقيمت في تلك المؤتمرات. فيما يلي مجرد قائمة موجزة ببعض العناوين المثيرة لبعض المقالات التي عُرِضت في مؤتمر المعجزات العلمية، والتي توحى بالكثير في حد ذاتها:

١ - التركيب الكيميائي للجن وعلاقته بسورة النحل في القرآن الكريم.

٢ - وصف الإنسان في طبقات الجو العليا في القرآن.

٣ - وصف السحاب المتراكم في القرآن.

٤ - هل راقبت النار؟

٥ - الكشف عن بعض الظواهر الحديثة للمحيطات في القرآن الكريم.

لقى المشاركون الورعون الملتحون، ٦٥ بحثاً مماثلاً، جرت مناقشتهم بكل جدية. بصفتي مجرد أحد الحضور، فقد أحسست بحيرة شديدة، حيث تميزت

عناوين بعض الجلسات بإيهامها الشديد. على سبيل المثال، كانت هناك إحدى ندوات الحوار التي خصص لها "وقت ما" في المساء بعد صلاة العشاء، كان عنوانها "ندوة للنقاش حول أشياء لا يعلمها إلا الله". لم أتمكن من حضورها لكنني لم أتوقف عن التساؤل حول ماهية تلك الأسرار التي سيبحثها المشاركون.

الاستنتاجات المدهشة للعلم الإسلامي

يقال أن بعض إنجازات العلم الحديث معقدة إلى حد ما ويصعب فهمها. قد يكون ذلك صحيحاً إلا أن إنجازات العلم الإسلامي أصعب بكثير وتستعصى على الاستيعاب يزجى من القارئ الرجوع إلى أصل البحوث التي أُلقيت في تلك المؤتمرات وأن يتمعن فيها، وله أن يخلص إلى ما يشاء من استنتاجات. فيما يلي مختارات من هذه البحوث:

- ألقى الدكتور محمد مطلب، الذي يقوم بتدريس علوم الأرض بجامعة الأزهر المشهورة بالقاهرة بحثاً مستفيضاً عن علاقة الظواهر والحقائق الجيولوجية بالآيات القرآنية (مرجع ١).

لم يكن البحث سهلاً على فهم للعالم العادي، كما أنه مازال محيراً لي. على حد قول الدكتور، فإن للجبال جنوراً في الأرض والله جعلها كالأوتاد التي تشد إليها الخيام لتثبتها وتمنعها من الطيران مع الرياح. ويؤكد أنه بدون الجبال فإن دوران الأرض سيتسبب في بعثرة كل شيء. من ثم تقع الكارثة الكاملة، فلا أرض بدون وجود الجبال.

أود أن أقر بأنني أجد هذا الاستنتاج مربياً إلى حد ما. حيث يبدو أن صاحب البحث المتعلم لم يكن على دراية بظاهرة الجاذبية التي وقع نيوتن في غرامها. كلنا يعلم قدرًا متفاوتًا من علم الفيزياء العادية، التي تخبرنا بأن قوة الجاذبية الأرضية تفوق بكثير قوة الطرد المركزي الناتجة من دوران الأرض حول نفسها. لو صح العكس، لتبعثرنا جميعاً وانطلقنا فرادى ننز في الفضاء. كذلك تشير الفيزياء إلى أنه بافتراض قيام كل الجرافات في العالم بإزالة الجبال وتسطيحها، فلن يؤثر هذا مطلقاً

على تماسك الأرض. من البديهي أن ذلك لا يعنى المطالبة بفعل مثل تلك المأساة الجمالية والبيئية. النقطة الأساسية أن تشبيه الجبال بالأوتاد قد يعطى تشبيهاً مجازياً رائعاً، فى الوقت الذى لا يمثل فيه أية دلالة فعلية. على أية حال، إذا كان الكون يجرى حسب قوانين فيزياء الدكتور مطلب، غير الطبيعية، وليس بناء على الفيزياء المعتادة، فلا شك أن نقدى لأطروحته يقف بلا أساس.

- تناول بحث آخر من ضمن ما قدم فى مؤتمر المعجزات العلمية، موضوع فى غاية الأهمية، بطريقة غير طبيعية بشكل بارز. قدم المهندس الفقى من مصر دليلاً مثيراً، مستخلصاً من خبرته التى اكتسبها أثناء خدمته العسكرية فى أثناء الحرب فيما يتعلق بالقذائف الصاروخية المضادة للدبابات، فانه يريد منا أن نستخدم أغلفة القذائف النحاسية الخاوية للقضاء على من يتجاسر من الإنس أو الجن بالمغامرة فى سفن الفضاء والتعدى على مناطق محرمة من السماء (مرجع ٢)، أما عن السبب وراء استخدام أغلفة القذائف الخاوية بدلاً من المشحونة بالمتفجرات، فيفضل هذا المهندس التقى بتقديم حجته - المقنعة تماماً فى رأيه - بأن الأغلفة الفارغة تسمح بتنامى موجات الصدمات المدمرة بكفاءة أكثر كثيراً من الأغلفة المشحونة، وبما أن الحكمة الإلهية، كاملة من جميع النواحي، بما فى ذلك اختيار المواد المناسبة للقذائف السماوية، بناء على ذلك فالأغلفة النحاسية الفارغة لا بد وأن تكون هى الاختيار الإلهى. كل هذا يبدو رائعاً جداً فيما عدا ملاحظة واحدة، أرجو أن لا تؤخذ بمعنى الحط من قدر العمل، حيث يرى خبراء الأسلحة أن زمن الأغلفة النحاسية قد انتهى، وتحولت الصناعة إلى استخدام سبيكة من الموليبدنوم لتمييزها. فهل تُصنع القذائف السماوية من النحاس حسب "المودة" القديمة أم سيستخدم الموليبدنوم بدلاً منه ؟ يبدو أنه سؤال صعب.

- يعتبر النفاق بكل تأكيد من المشاكل المستوطنة فى مجتمعنا. تقع هذه الحقيقة محل موافقة غالبية الناس، ورغم هذا فلا يوجد إلا ندرة قليلة ممن

لديهم الموهبة أو الشجاعة الكافية لتطبيق المعادلات الرياضية على هذه المسألة. إلا أنه حدث في الندوة الدولية عن القرآن والعلم، التي عقدت في باكستان في يونيو ١٩٨٦ ونظمها الاتحاد الباكستاني للعلماء وأصحاب المهن العلمية، أن عرض أحد العلماء الشجعان نظرية جسورة جديدة عن النفاق (مرجع ٣)، حيث قام الدكتور أرشاد على بيج (Arshad Ali Beg)، العالم الكبير بالمجلس الباكستاني للبحوث العلمية والصناعية، بعرض معادلته الرياضية التي يقول إنها قادرة على قياس درجة النفاق في المجتمع. تركز معادلة هذا العالم المسلم على التشابه بين قوى الاستقطاب المؤثرة على جزيئات ذائبة في محلول ماء، والقوى المؤثرة على الأشخاص في المجتمع. بناءً عليه، فكل شيء يتم من خلال معادلات كيميائية مثل كفار + تعليم الدين ← مجتمع متدين. يمكن للقارئ أن يرجع إلى التفاصيل في البحث ذاته، يكفي هنا إلقاء نظرة سريعة على نتائجه التي جاء بها، أن قيمة النفاق في المجتمع الغربي تصل إلى ٢٢، في الوقت الذي تصل فيه في إسبانيا والبرتغال إلى ١٤. من اللافت للنظر، إغفال ذكر النفاق في المجتمع الباكستاني الذي يُزعم أحياناً أنه يدار بالمنافقين. برغم كل شيء، فمن المؤكد أن القارئ سيقر بما في عمل الدكتور من طرافة وحدائثه ويغفر له الإغفالات البسيطة.

- يبدو أن الأستاذ سالم محمود، رئيس المنظمة الباكستانية للفضاء - الممثلة لوكالة الفضاء الأمريكية ناسا - من المتحولين حديثاً إلى العلم الإسلامي الجديد. اقترح في ورقة له في مؤتمر كراتشي للقرآن والعلم، استعمال نظرية النسبية لأينشتاين لتفسير المعراج. كما يعلم كل المؤمنين، فإن المعراج لم يستغرق زمناً يذكر، حتى أن بعض الروايات تذكر أن السلسلة المعلقة على باب الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت ما تزال تهتز عند عودته من المعراج. ذهب العديد من المفسرين كما جاء أيضاً في أحد الأفلام اللامعة التي أنتجتها الجامعة الإسلامية الدولية، إلى اعتبار قصر الوقت دليل على نسبية تمدد الزمن. جدير بالذكر أن ظاهرة تمدد الزمن من

الظواهر التي يعرفها الفيزيائيين. بكل أسف، هناك مشكلة بسيطة في هذا التفسير. لأن نظرية النسبية في حقيقتها تشير بعكس ما ظن صاحب الرئاسة. حيث تنص جميع الكتب الخاصة بنظرية النسبية، بلا استثناء، على مرور مزيد من الوقت على الشخص الساكن مقارنة بمن يرحل ويعود في رحلة طويلة بسرعات عالية. لعله كان من المستحسن قيام سيادة الرئيس المؤقت، باستقطاع بعض من وقته لدراسة مبادئ نظرية النسبية قبل اندفاعه الحماسي باقتراحها لحل الغوامض العقائدية. لعله أيضاً من الممكن تحسين برنامج الفضاء الباكستاني الهزيل، بالالتفات إلى بحوث الفضاء المادية بدلاً من الاهتمام بالديناميكيات الروحانية.

- تصدر كل ثلاثة شهور من إسلام آباد مجلة علمية محترمة باسم " العلم والتكنولوجيا في العالم الإسلامي"، وهي من الدعامات الهامة لنشر العلم الإسلامي الجديد. يضم تشكيل هيئة تحرير المجلة عدداً من الأسماء البارزة في المؤسسة العلمية الباكستانية، فهم الذين يحددون مصير العلم في باكستان من خلال قراراتهم السياسية ويمولون المشاريع البحثية، وينشئون المعاهد والمؤسسات إلخ. فيما يلي عينة من المقالات التي يبدو أنها حازت إعجابهم، ونشرت بالفعل بالمجلة في أعدادها الحديثة:

١ - بعض الآيات القرآنية المحتوية على مرجعيات للعلم والتكنولوجيا.

٢ - تناسق الكون، والقواعد القرآنية بالخلق في أزواج.

٣ - بعض الأحاديث المحتوية على مرجعيات للجهاد

٤ - طريقة رسم الحروف المعبرة عن اسم اثنين من البنوك الباكستانية ودلالاتها.

٥ - ثنائية الإنسان والجن ومصيرهما.

يبدو أن العلم العادي والتكنولوجيا لا يدخلان ضمن اهتمامات تلك المجلة الرائدة، كما أنها تستعيز بمقالاتها المبتكرة عن المتعارف عليه من باقي العلوم. على سبيل المثال، فإن صاحب البحث الأخير في القائمة المذكورة أعلاه، هو

الدكتور سافدار يانج راجبوت (Safdar Jang Rajput)، أحد العلماء الكبار بمنظمة الدفاع للعلم والتكنولوجيا (مرجع ٥).

نقطة البداية في البحث معروفة بالتأكيد لدى كل القراء، إن الله خلق الجن من نار في الوقت الذي خلق فيه الإنسان من طين (أو طين أسود كما يقول البعض). يرى المؤلف في هذه المخلوقات النارية، حقيقة حية، كما أن أمرها يستحوذ تمامًا على فكره للدرجة التي يجعل منها موضوع بحثه. فيما يلي موجز لنتائجه الأساسية في عالم الجن:

١ - من المحتمل جدًا أن يكون أصل الجن من غاز الميثان، إضافة إلى بعض مركبات الهيدرو كاربون المشبعة، ذلك لأن احتراق هذه المركبات، ينتج نارا بلا دخان. هذا الاستنتاج قائم على الحقيقة المعروفة بأن الله خلق الجن من نار. إضافة إلى الحقيقة الأخرى المعروفة بعدم مشاهدة أى دخان عند احتراق الجن.

٢ - إن بكورة وجمال حوريات الجنة حقيقة معروفة، أضف إليها أنهن خلقن للاستعمال، ولأن المستعمل يمكن أن يكون إما من الرجال وإما من الجن، بناءً على ذلك فالرجال والجن متشابهان وتتماثل صفاتهم الوراثية (الجينات)

٣ - بعد مناقشة مجهدة تأتي الخلاصة فيما يتعلق بطبيعة الجن كما يلي: "لا أملك إلا أن أقول بأن الجن هم الأجناس (البشرية) البيضاء" (مرجع ٦).

٤ - لا يقف الدكتور راجبوت منفردًا بين العلماء الباكستانيين الكبار، من حيث اهتمامه العميق بالجن، هناك أيضًا الأستاذ بشير الدين محمود (Bashiruddin Mahmood)، المدير الكبير لهيئة الطاقة الذرية الباكستانية، الذي تقدم بنصيحته في عام ١٩٨٠ بوجوب البحث عن وسيلة للحصول على طاقة الجن باعتبارها مخلوقات نارية، ثم التحكم فيها وضخها وبذلك يتم حل مشاكل الطاقة في باكستان. (أنظر الخطابات الملحقة بهذا الملحق والتي تتناول هذه النقطة بالحوار).

• ما حدث عام ١٩٨٣ فى مؤتمر العلم الإسلامى بإسلام آباد كان أشبه بالقصص الخرافية، زعم المندوب الألمانى أنه قام بقياس "زاوية الله" باستعمال الرياضيات الخاصة بتخطيط ومسح الأراضى. كما حدد الزاوية بأنها "ط/ن" (π/N) حيث ط^١ = 3.1415927 وأما ن" فلم يحددها. من حق من يقرأ الكتاب أن يتشأع. كيف يمكن لأى شخص أن يفكر فى قياس شيء بهذا الشذوذ؟ - للتخلص من أية شكوك فأنى أقترح على القارئ أن يرجع إلى صفحة ٨٢ من كتيب المؤتمر، الخاص بموجز البحوث، الذى نشرته وزارة العلم والتكنولوجيا الباكستانية عام ١٩٨٣. لا يبقى بعد ذلك إلا أن يتشكك الإنسان فى صحة عينيه. للقارئ أيضاً أن يتأكد أن هذا المعنوه تمت استضافته بالكامل على نفقة الحكومة الباكستانية.

يبدو أن هناك سببان منعا مساءلة الرجل وإدانتة على أباطيله، السبب الأول أن تقاضاته لم تكن مترابطة بأى صورة من الصور بحيث لم يع الناس شيئاً مما كان يقول، والسبب الثانى أنه لم يكن وحده فى سباق المتسلقين.

هل هذا علم ؟

ينظر الإنسان المتعلم من خارج المناخ الصارم للأصولية، إلى هذه البحوث على أنها غمغة لا معنى لها لعقول مريضة. كذلك له أن يقترح استشارة بعض الأطباء النفسانيين الكبار. قد يرفض بعض الناقدین بغضب هذا النوع الجديد من العلم المسمى بالعلم الإسلامى، ولا يعتبرونه علماً من الأساس. لكن هذا الأسلوب من النقد قد لا يكون عادلاً، ذلك لأن مفهوم العلم قد يختلف عند بعض الناس عن غيرهم. لالتهاء من هذه البلبلة، يجب أولاً تحديد مفهوم العلم الحديث، ثم النظر بعدها فى أمر ما يسمونه بالعلم الإسلامى.

^١ ط بالعربية أو (π) باللاتينية وهو رقم ثابت يعبر عن العلاقة بين محيط الدائرة وقطرها. (المترجم)

يتكون العلم الحديث من منظومة من القواعد، يسعى الإنسان من خلالها إلى مزيد من الفهم العقلاني للكون المادي، وهو يستمد قوته الضخمة وسلطانه بالكامل من أسلوب يجمع بين المشاهدة والاستدلال. كما أن كل المعرفة العلمية مشيدة على الأساس الموضوعي القائم على خبراتنا الحسية. أصبحت الموضوعية ممكنة لأن التجربة والتوافق المنطقي هما الحكام الوحيدين للحقيقة. لا دخل لميول العالم ومزاجه الخاص أو أخلاقياته، أو انتمائه السياسى أو القومى، ولا حتى مركزه فى عالم العلم.

تقول الحقيقة التى لا خلاف عليها إن العلم الحديث، علم مدنى (علمانى) فى طبيعته، سيان إذا قبل بعض الناس بذلك أو رفضوه، ثم أن التيقن من الحقائق العلمية لا يحتاج إلى اللجوء إلى السلطة المقدسة، فوجود هذه السلطة لا يتأكد ولا ينتفى. على أية حال، لا يمكن إنكار وجود بعض فرادى العلماء من المتدينين بشدة ممن تذهلهم أسباب الوجود، ودقة الكون ونظامه، ويكفى أن نذكر هنا، رجالا، المفترض أنهم من مؤسسى العلم الحديث، مثل جاليليو ونيوتن الذين كانوا من المتكئين بشدة. وعلى الرغم من ذلك فقد ذهب كلا من العلم، والدين فى طريقه منذ بداية إعلان الفرقة على أيدي الثورة الكوبرنيكية فى القرن السابع عشر.

نأتى هنا إلى مثل معاصر، يوضح بجلاء النقطة السابقة. فى عام ١٩٧٩، منحت جائزة نوبل للعلوم الفيزائية لكل من عبد السلام، ستيفين فاينبرج وشيلدون جلاشو، لتوصلهم إلى النظرية الأساسية لتوحيد القوتين الرئيسيتين فى الطبيعة، (القوة الضعيفة، والقوة الكهرومغناطيسية) المعروفة باسم نظرية عبد السلام - فاينبرج، وهى تعد واحدة من أكبر اكتشافات القرن. بالنظر إلى الانتماءات العقائدية للمكتشفين، نجد عبد السلام مواظب على صلواته، دائب على ترديد الاقتباسات من القرآن للدرجة التى أفلقت حتى بعض الذين يتمنون له الخير، ذلك نظرا لتحمسه الشديد وإخلاصه لمذهبه الأحمدي. تجدر الإشارة إلى أن هذا المذهب قد تم تحريره عام ١٩٧٤، وعليه فلا يعتبر عبد السلام مسلما فى باكستان. لكن ذلك لم يفت من عزيمته، بل قواها. من ناحية أخرى نجد فاينبرج يهودى بالمولد لكنه ملحد بكل

المقاييس، ويرى الكون على أنه حقيقة وجودية، خالية من أى منطق أو غرض. كانت بين هذين العالمين العباقرة، فجوة عميقة فيما يتعلق بمبادئهم العقائدية، إلا أنها لم تمنع وصولهما فى نفس الوقت، إلى نفس النظرية الفيزيائية.

النقد : أحد عناصر العلم:

يا ترى، كيف نتسنى التفرقة بين العلم، واللا علم؟ بأسلوب آخر، ما هى المقومات اللازمة للارتقاء بمنظومة من الاقتراحات إلى مستوى النظرية العلمية ؟ يراعى أن المسألة لم تستقر تمامًا حتى الآن، إلا أن أحد العناصر الملفتة، يكمن فى وجود قاعدة النقص، التى أعلنها بوضوح فيلسوف العلم الإنجليزى كارل بوبر (Sir Karl Popper) (مرجع ٧) حيث يقول إذا كان لنا أن نسمى هذا أو ذاك، نظرية علمية، فلا بد أن تكون قادرة على إفراز توقعات قابلة للاختبار صحتها بالملاحظة والتجربة، فإذا لم تأت النظرية بتوقع قابل للاختبار، فلا وسيلة إلى نقضها. وأى نظرية غير قابلة للنقص، هى ببساطة شديدة ليست نظرية علمية. لا يعنى ذلك بحال من الأحوال أنها سيئة أو خاطئة، أو أى شئ آخر، إنما يعنى فقط أنها ليست نظرية علمية، من البديهي أن أشياء كثيرة جيدة- وقد تكون أجود الأشياء فى الحياة - لا علاقة لها على الإطلاق بالعلم.

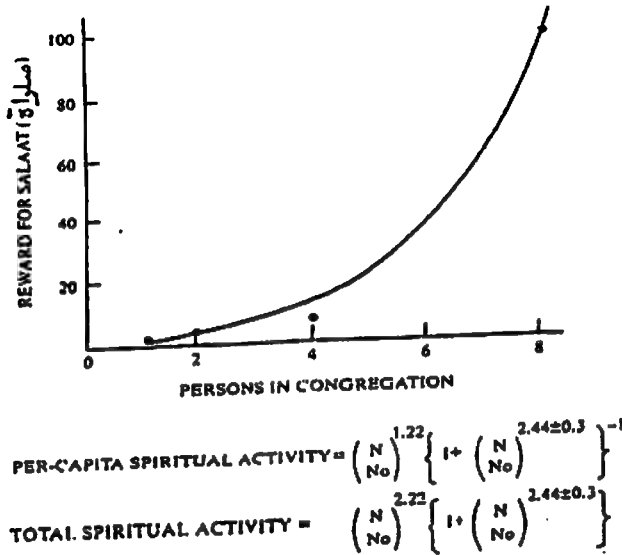
يمكن توضيح قاعدة النقص باستعمال نظرية أرسطو عن الأماكن الطبيعية. آمن أرسطو بأن الحجر يسقط على الأرض لأن الأرض هى أم وأصل الحجر، والحجر يود السقوط فى حضن أمه، حيث أنه المكان الطبيعى الذى يود الحجر الذهاب إليه. يجوز إلقاء سؤالين بهذا الشأن، السؤال الأول، هل هذه نظرية علمية ؟. والسؤال الثانى، هل كان أرسطو على حق؟ فيما يتعلق بالسؤال الأول، فالإجابة القاطعة بالنفى. فنظرية أرسطو لا تخبرنا شيئاً عن تسارع الحجر الساقط مع مضى الوقت، أو سرعة سقوط الأشياء الثقيلة مقابل الأشياء الخفيفة، إلخ. إنها تشرح فقط سبب السقوط، دون أن تعطى أية توقعات يمكن إخضاعها لأية تجارب، ونظراً لعدم وجود وسيلة لنقضها، فهى بالضرورة ليست نظرية علمية. فيما يتعلق بالسؤال الثانى عن مدى صحتها أو خطئها، فالإجابة مثيرة حقاً: لا يعلم أحد. قد يظن بغض

القراء بأن لديهم الإجابة بثقة شديدة، لكن هل يملك أى منا برهاناً قاطعاً على أن الحجر ليس لديه ميل للانجذاب نحو الأرض؟.

ندعو القارئ لمحاولة تطبيق عنصر النقض على ما سبق من أمثلة من العلم الإسلامى، إضافة إلى ذلك فهناك المثل التالي:

يوضح الرسم البياني التالي (شكل ٢) والمعادلات الرياضية المبينة تحته، طريقة حساب كمية " الثواب " التى يحصل عليها الفرد كلما زاد عدد المصلين بجواره. يُذكر أن صاحب المعادلة هو الدكتور م.م. قريشى (M.M. Qureshi) أحد الأعضاء الرواد بالمؤسسة العلمية الباكستانية والرئيس السابق للمجلس الباكستانى للبحوث العلمية والصناعية، والرئيس السابق لقسم الفيزياء بجامعة القائد عزلم، والممثل الرسمى لباكستان فى عدة محافل دولية إلخ. يا ترى هل صاحب "الدكترة" على صواب؟ لا يمكن لأحد أن يحكم، وقد يكون علينا الانتظار إلى يوم القيامة لنعرف الإجابة. من المؤكد أن النظرية ليست نظرية علمية لاستحالة تصميم أية تجربة لاختبارها.

Figure 2: The Quantity of Sawab (Divine Reward) Earned by Prayer

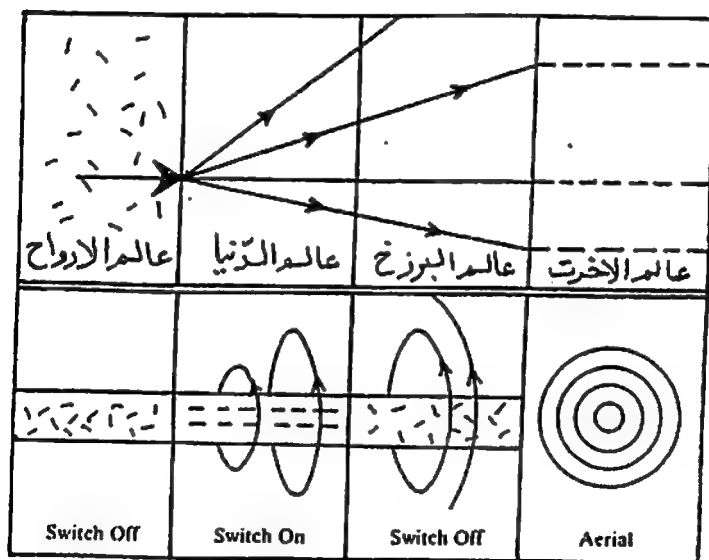


(شكل ٢) حساب كمية الثواب

ملحوظة: الشكل السابق والمعادلات الرياضية نسخة مصورة من الكتاب الأصلي

المصدر : كتيب بحوث مؤتمر العلم الإسلامي ١٩٨٣، الجزء الثاني، ص ٢٢٥)

- نلقى الآن بنظرة على الرسم رقم ٣. المنقول من كتاب بعنوان "آليات يوم القيامة والحياة الآخرة" لمؤلفه بشير الدين محمود، مدير هيئة الطاقة الذرية الباكستانية، الذي أوكل إليه تصميم الأجزاء الكبرى الهامة في المفاعل النووي. يضع الدكتور في كتابه النظريات حول كيفية تحول العالم ومراحل انتقاله من عالم الأرواح وصولاً إلى يوم القيامة. ويشرح كيف أن هذا مماثل لحدوث مجال معنطيسي عند مرور تيار كهربائي في سلك موصل للكهرباء، مع ما يلي ذلك من انبعاث للموجات من أحد الهوائيات. تُترك تجربة تطبيق عنصر النقض على هذا المثل لاختيار القارئ (ملحوظة الشكل منقول هنا بحذافيره وبه خطأ مستتر، وتُرك على حاله، حيث كان سبباً في بعض النقد، اللادع الوارد ضمن الخطابات الملحقة بنهاية هذا الملحق).



(شكل ٣) الكون، بدايته ونهايته

ملحوظة: أحد العلماء المسلمين يشرح مفهومه عن كيفية بداية الكون ونهايته. ويقوم بتشبيه المسألة بمرور تيار كهربائي في سلك. في البداية لم يكن هناك نظام في عالم الأرواح، كمثل الإليكترونات المبعثرة في أحد الأسلاك، ثم... وأخيراً تبعث الروح في عالم الآخرة تماماً كما تتبعث الموجات الكهرومغناطيسية من الهوائيات بفعل حركة الإليكترونات

Mechanics of the doomsday and life after death by- S. Bashiruddin Mahmood, published by the Holy Qur'an Research Foundation. Islamabad.

ما هي حقيقة العلم الإسلامي :

أرجو في محاولتي هذه، أن يتفق معي أنصار العلم الإسلامي على أن هدفه ديني من الأساس. يلاحظ أن السبعين بحثاً التي قُبلت وقُدمت في مؤتمر المعجزات، تم تحكيمها أولاً من قبل المحكمين المتدينين بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد للتأكد من صحتها الدينية، في المقابل لم تعرض على أية لجنة علمية لإبداء الرأي في صحتها العلمية.

إن مجالات واستنتاجات العلم الإسلامي الجديد واضحة تماماً، فهو يسعى لتأكيد ما هو معروف بالفعل ولا يسعى للبحث عن المجهول. كذلك لا يسعى لاستنباط قواعد رياضية جديدة، وعلى ذلك فلا يمكن تصميم تجارب جديدة لاختبارها ولن تخرج إلى الوجود أية أجهزة أو آلات جديدة. إن العلم الإسلامي الجديد، مثله مثل " حركة الخلق" في الغرب. مجرد حركة معاكسة للعلم الحديث وليس اتجاهاً جديداً للعلم، فإنا نرى إلى أي حد هو إسلامي ؟

إن القول بأن شيئاً ما أكثر أو أقل إسلاماً من غيره، أمر مخوف بالمخاطر، إذ قد يغفو شيطان التطرف قليلاً، لكن سيفه دائماً بيد، ومن السهل إيقاظه بمثل هذه المناقشات، كما لا تجب الاستهانة بتصريحات الفقهاء.

ومع ذلك تبقى الفكرة مقلقة للغاية، حين يقوم شخص ما بكتابة معادلة رياضية لقياس النفاق، وبذلك يختزل المفهوم الديني إلى سخر رخيص. أما أعمال ذلك

المعنوه الألمانى الذى قام بقياس " زاوية الله"، هل كان ذلك فى خدمة الإسلام؟. ثم ماذا نقول عن هذا العالم الباكستانى الذى يشغل أعلى المناصب العلمية وينصح باستخدام الجن لتوليد الطاقة.

فى حقيقة الأمر، فإن العلم الإسلامى الجديد ما هو إلا احتيال فى استخدام لفظ العلم. كما يسعى إلى استغلال علم المسلمين الأوائل، مع الوضع فى الاعتبار افتقاره التام للصفات النوعية التى ميزت علوم السابقين وخلدت أعمالهم. لو قدر لهؤلاء العلماء العظام مثل ابن سينا وعمر الخيام وابن الهيثم وغيرهم، الحياة اليوم لانتابهم حرج شديد من رؤية ما يسمونه الآن علما إسلاميا. مارس هؤلاء العظماء العلم المدنى (العلمانى) رغم التزامهم الشديد بالإسلام، أما النطق بالتفاهات الفارغة، فلم يكن من شأنهم. فلم يحاولوا العثور على معادلات لقياس النفاق والثواب، على العكس اكتشفوا قوانين فيزيائية هامة وخلقوا مفاهيم جديدة. نتذكر اليوم نصير الدين الطوسى (Nasir Udin Altusi) لإنجازاته فى حساب المثلثات، وعمر الخيام لحلوله فى المعادلات التكعيبية، وجابر بن حيان لعبقريته أجهزة الكيمائية، والجزرى^١ (Al-jazari) لآلاته للمعدة إلخ، لقد تعاملت علومهم مع الواقع، لذلك بقى مكانهم فى التاريخ. ولعل هذا هو السبب الذى جعل الأصولية العقائدية لا تغفر لهم أبدا، وتعتبرهم - حتى اليوم - من الزنادقة والكفار. كثيرا ما ننسى اليوم أن التهديد لهؤلاء الأبطال، لم يأت من المسيحيين الخونة أو من جحافل المغول، بل جاءهم من قطاع خبيث مضاد للعلم من بين فقهاء المسلمين الأصوليين.

^١ بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزرى (لقب بالجزرى أو الجزائرى نسبة إلى مسقط رأسه بإحدى الجزر بين دجلة والفرات بالعراق). كتب موسوعة كبيرة فى الميكانيكا وفى تفاصيل تصنيع الآلات الهندسية التى تشمل ساعات المياه وضبط أتران العجلات وطلاء المعادن وغير ذلك. ترجمت أعماله إلى الإنجليزية عام ١٩٧٤. (المترجم)

الجذور السياسية

يا ترى إلى أين تمتد جذور هذه الظاهرة المسماة بالعلم الإسلامى ؟ وما هى القوى السياسية التى تدعمه؟ وأى القطاعات الاجتماعية تحتضنه؟ هل ستعيش الظاهرة وتستمر، أم أنها مثل فقاعة قريباً ما تنفخ. تحتاج كل هذه الأسئلة الهامة إلى كثير من التفكير. بدلاً من التحليل المطول، فكل ما أستطيع فعله هنا، هو مجرد إبداء بعض الملاحظات.

أولاً: جرى تبنى العلم الإسلامى الجديد من قبل النهضة الشاملة للأصولية فى الدول الإسلامية، وليس فقط فى باكستان. إذ توجد مراكز نشطة فى كل من مصر والسعودية العربية وماليزيا، كذلك لا توجد حدود جغرافية لظاهرة دعم العلم الإسلامى الجديد، وتكثر أنصاره بين المهاجرين فى دول الغرب، حيث يمدّهم بوسيلة سيكولوجية للوقوف ضد وابل الاعتداءات التى يمارسها العلم الحديث فى كثير من ظواهره. لهذا السبب لا يُعتقد أن الظاهرة ستختفى فى العقود المقبلة. ثم يلاحظ أن أنصار هذا العلم الشاذ، ليسوا من الفقهاء العاديين، بل من بين حملة الشهادات فى المجالات العلمية، استقر معظمهم فى الغرب، كذلك ليس لغالبيتهم أية إنجازات مهنية تذكر فى مجال تخصصهم - حيث يوفر العلم الإسلامى لهم، ملاذاً يلجأون إليه بدلاً من خوض التحديات الصعبة للعلم الحقيقى. من هنا يتضح عدم وجود علاقة قوية بين العلم الإسلامى والنهضة العقائدية. كما يتضح أن هذه الردة إلى أسلوب تفكير العصور الوسطى لها أنصار حقيقيين ينتمى أكثرهم إلى الطبقات المتوسطة المتعلمة، وهى فى حقيقتها لعبة تمارس من أجل المنفعة الشخصية والتسلق. ليس غريباً أن السلطات الحاكمة تدعمهم وتجعل من هؤلاء المهرجين والبداء من العلماء، أصحاب حظوة، طالما كان شدوهم على هواهم، وتأتى جوائزهم فى صورة التعيين فى الوظائف، والترقى، وتحمل نفقات الرحلات إلخ. لا يمكن إغفال الدور السعودى الذى حقق العجائب من خلال خزائنه النقدية اللانهائية. على الأقل فى بلدى (باكستان) فإن جذور العلم الإسلامى الجديد، تتبع من حلول الوسط التاريخية بين الفقهاء الأصوليون وبين من حكم باكستان باسم الإسلام.

فبالنسبة للفقهاء، يمثل العلم الإسلامى فرصة رائعة لمد مجال سلطة الدين إلى مناطق الظواهر الطبيعية، وبهذا يعتبر سلاحاً لمواجهة التسديد المتنامى للعلوم المدنية (العلمانية)، أما بالنسبة للنخبة الحاكمة، فهو جزء من التلاعب المحسوب بالمشاعر الدينية. وخلاصة القول، لم يكن ممكناً وجود العلم الإسلامى بدون رعاية السلطة.

يتسم موقف الحكومة بالانفصام، ففي الوقت الذى تقدم فيه الأجهزة الحكومية الدعم المالى اللازم لنشاط مجموعة العلم الإسلامى، إضافة إلى إلقاء الخطب الرنانة فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم، فهى تقوم، كأفراد، بالاستهزاء بفكرة أسلمة العلم، حيث يقبلون مبدأ تفوق العلم التحليلى الحديث، فعندما يمرض أحدهم، يفضل العلاج على أيدي أحد الأطباء بدلاً من اللجوء إلى الحكيم الشعبى. ثم أنهم يرسلون بأبنائهم للتعليم فى المدارس الإنجليزية بدلاً من مدارس الـ "أوردو" الشعبية أو الكتاتيب. ولا تروق لهم حقيقة وقوع السيطرة على الجامعات فى أيدي الطلاب الأصوليين، غير أن الخسارة ليست كبيرة بالنسبة للحكام نظراً لقدرتهم على إلحاق أبنائهم بالجامعات الأمريكية كلما اقتضت الأحوال.

ينظر كبار رجال الجيش والمسؤولين الإداريين إلى الفقيه الكبير (الملا) بعين يمتزج فيها الاستهزاء بالخوف. الاستهزاء باعتباره (الملا) نموذج غريب من العصور الوسطى وضع خارج سياقه التاريخى، حيث تنحصر كل اهتماماته ومخاوفه فى أمور لا تمت إلى واقع الحاضر بصلة. والخوف من إغضابه، إذ تتبخر شرعية حكم البلاد باسم الإسلام بدون موافقته.

تعقيب

أثارت المقالة السابقة غضب - على الأقل - أحد العلماء المسلمين المذكورين فيها، فيبدو من العدل نشر وجهة نظره هنا مع ردى عليه بعد ذلك.

إشارة إلى المقال المعنون "يسمونه علماء إسلامياً" لصاحبه بيرفيز هودبهوى، المنشور فى عدد مجلتكم الصادر فى يناير ١٩٨٨. اقتراف الكاتب ظلماً كبيراً، ليس

فقط بالنسبة لى (ولغیری من المشتغلين بالقرآن الكريم وسنة آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم) فيما يتعلق بالتطورات الحديثة للمعرفة) لكن أيضاً لقراءتكم المحترمين. لقد شوه الحقائق المقتبسة من كتابى، وحاول السخرية من أمر غاية فى الأهمية.

إشارة إلى مرجع ٢ (انظر الشكل ٣ السابق) فى مقالته، نجد أنها صورة مشوهة من الرسم رقم ٢٥ من كتابى "آليات يوم القيامة والحياة الآخرة" الذى أصدرته مؤسسة بحوث القرآن الكريم. قام السيد هودبهوى، ليثبت وجهة نظره، بتغيير النص الأصيل حيث كتب "أحد العلماء المسلمين يشرح مفهومه عن كيفية بداية الكون ونهايته" ويقوم بتشبيه المسألة بمرور تيار كهربائى فى سلك....وأخيراً تتبع الروح إلى عالم الآخرة، تماماً كما تتبع الموجات الكهرومغناطيسية من الهوائيات بفعل حركة الإليكترونات"

يجب أن يعرف القراء أن السيد هودبهوى قام بخداعهم بإظهار شيء ليس من الكتاب، وأود أن أنسخ صورة طبق الأصل من الصفحة التى شوهها السيد هودبهوى. هذا الشكل يبين بالرسم، المفهوم الإسلامى للروح، وليس لمفهوم كيفية بداية الكون ونهايته كما كتب السيد هودبهوى. التشابه المذكور - توصيل أو فصل التيار الكهربائى - إنما المقصود به ظاهرة الحياة البشرية، ولا علاقة له ببداية الكون ونهايته كما أخطأ وكتب فى مقاله.

بناءً على ذلك فالسيد هودبهوى مدان بعدم أمانته فى التقرير، وبلا أدنى قدر من الأخلاقيات. هذا ليس كل شيء، فهو لم يدع حتى باقى الشخصيات المحترمة، حيث أشار السيد هودبهوى بسخرية إلى بحث رئيس المنظمة الباكستانية للفضاء. سالم محمود، حول علم الفضاء، حيث سجل أن صاحب الرئاسة قدم تفسيراً للمعراج مبنى على أساس استعمال نظرية النسبية لأينشتاين، ثم قام بتشويه النص الأصيل للفقرة المعنية بما يخدم أغراضه. بإمكان أى شخص ملاحظة الفرق الواضح بين ما كتبه رئيس المنظمة وبين ما كتبه السيد هودبهوى. فى الواقع قصد السيد محمود توضيح أن المعرفة العلمية الحالية غير قادرة على تفسير مثل هذه الظواهر المعجزة. لم يكن السيد هودبهوى غير شريفاً فقط فى تقريره، بل إن لديه

الوقاحة الكافية ليقال بملاحظاته من قدر السيد محمود والمنظمة الحكومية التي يرأسها.

علاوة على ذلك، أشار السيد هودبهوى إلى بحث المهندس الفقى من مصر، حول علوم الأرض، الذى قدمه فى المؤتمر الدولى: فلا علاقة لنص البحث بمزاعم السيد هودبهوى. كذلك سخر من المؤتمر ومنظميه، ذلك المؤتمر الذى قُدم فيه هذا البحث، إضافة إلى سبعين بحثاً آخرين لشخصيات متعلمة وعلماء مختلفين.

من حق المرء أن يختلف حول فلسفة معينة، لكن ليس من حق أحد أن يسخر أو يسبى إلى سمعة شخصيات، أو يخدع الراى العام بتقارير مضللة. لقد تمادى السيد هودبهوى حتى وصف العاملين فى مجال الإسلام والعلم بالمعتوهين، وبذلك تعدى كل حدود الأدب، لكن هل يتوقع الإنسان أى شرف أو أى أدب من القوى المضادة للإسلام ؟

س. بشير الدين محمود

رئيس مؤسسة بحوث القرآن الكريم

إسلام أباد

ردى على السيد محمود:

بعد قراءتى لتعقيب السيد محمود على مقالى، أعترف بذنبى وأقر بخطئى الجسيم وأتوسل إلى القراء طالباً للمغفرة. فى حقيقة الأمر وقع سهواً استعمال لفظ الـ"كون" بدلاً من الـ"روح" (انظر شكل ٣- المترجم) وأعتذر عن احتمال وقوع أى لبس حدث بسبب ذلك لدى أى من القراء. حيث يبدو أننى اقترفت خطأ جسيماً باستبدالى لإحدى السخافات بغيرها، كما لو كنت نسيت رسم همزة على الألف.

أما فيما يتعلق بصلب الموضوع، فلا أشعر بأى أسف. يقول السيد محمود أن تشبيهه لمرور تيار كهربائى فى سلك، بتحول الروح، مبنى على الإسلام. قد يكون هذا هو مفهومه عن الإسلام، لكنه بالقطع ليس مفهوماً. حيث لم يرد فى القرآن الكريم أو أى من الأحاديث، أى إشارة إلى إليكترونات أو مجالات مغناطيسية، أو موجات كهرومغناطيسية أو هوائيات. وبالقدر الذى أراه، فلا أساس لتخيلات السيد محمود الشاذة من واقع النصوص الإسلامية. تلك التخيلات التى تعطى رسماً كاريكاتيرياً غريب الشكل لفكرة دينية. جدير به أن يحذر، فلا يروق للمسلمين الصالحين التندر بدينهم، أو استخدامه فيما لا معنى له.

ينبرى السيد محمود للدفاع عن السيد سليم محمود رئيس المنظمة الباكستانية للفضاء، ويزعم أن الرئيس لم يحاول الربط بين المعراج ونظرية النسبية لأينشتاين.

هذه مغالطة، وما قلته صحيحاً، حيث إن النص الذى يستند إليه لإثبات موقفه، هو محاولة صريحة للربط بين المعراج والنسبية. يحمل النص بعض التفكير وتشتت الأفكار، إلا أنى أعدت قراءته عدة مرات، فلم أجد فيه سبباً يشير بخطأى فى فهمه.

أما فيما يتعلق بالسيد الفتى وبحثه عن طبيعة القذائف السماوية، فأدعو القارئ إلى الإطلاع على بحثه المنشور، الذى يمكن الحصول عليه من الجامعة الإسلامية، ولا أرى سبباً فى احتمال عدم الدقة، فقد نقلت فى مقالى ما جاء بالبحث.

فى النهاية، أود ان أذكر القارئ بأن السيد بشير الدين محمود رئيس مؤسسة بحوث القرآن، معروف ليس فقط بتشبيهه للموجات الكهرومغناطيسية بالروح البشرية، بل إن شهرته الأساسية مستمدة من مقال يشير فيه إلى وجوب استخدام الجن، الذين خلقهم الله من نار، كمصدر للطاقة.

يسعدنى أن أكون هدفًا لنم السيد محمود، حيث يعنى ذلك أن مقالى قد نجح فى لمس أحد مراكز الأعصاب الحساسة للهرء الظلامى.

رغم ادعائه، فلم تكن لدى نية لوصف كل من عمل فى مجال العلم والإسلام، بالتزوير أو الجنون، لكن هل يستطيع أحد إنكار أن أناس من هذا النوع يتدافعون هذه الأيام من أجل الوصول إلى عربة الفرقة الموسيقية التى أسموها العلم الإسلامى ؟

دكتور / برويز أمير على بيود

قسم الفيزياء - جامعة القائد عزالم

إسلام آباد

.....
التقطت بعض الصحف والمجلات العلمية، كما أجرت صحيفة وول سترريت تحقيقًا صحفيًا حول موضوع الإسلام والعلم، نشرته فى صفحتها الأولى فى عددها الصادر فى ١٣ سبتمبر ١٩٨٨. فيما يلى جزء من ذلك المقال، نظرًا لما له من علاقة مباشرة بالحوار السابق:

"فى حى هادئ من أحياء المدينة، أصبح س. بشير الدين محمود رئيس مؤسسة بحوث القرآن الكريم علامة مميزة. ينشغل السيد محمود بعمله كمهندس نووى، فى تصميم أنظمة الكشف عن تسرب الإشعاعات فى المفاعلات النووية، وفى المساء يبتكر النظريات الإسلامية.

يقول الذين يجروون على معارضة هذه المحاولات أن السيد محمود سبق وقدم بحثًا فى عام ١٩٨٣ إلى مؤتمر الإسلام والعلم، يقول فيه بإمكانية تسخير الجن،

لحل مشاكل قصور الطاقة. ينكر السيد محمود أنه قال ذلك، حيث أصر على موقفه أثناء الحوار قائلاً "كلام فارغ تماماً". ثم استطرد السيد محمود منتقياً كلماته بكل دقة، شارحاً كيف أن الجن مخلوقون من طاقة وأن الملك سليمان توصل إلى وسيلة لتسخيرهم للعمل من أجله. يقول "أعتقد أننا إذا نمينا أرواحنا، فسنستطيع التواصل معهم". لا يتعجب السيد محمود من عدم ترحيب بعض الناس بأرائه الإسلامية، فيقول "هناك معارضون لكل فكرة جديدة". "لكن ليس هناك ما يدعو لهذا الخلاف حول الإسلام والعلم، حيث لا يوجد خلاف بين الإسلام والعلم".

- 1- Mohammed Mutallib, 'Geology in The Light of Quranic Verse', presented at the First International Conference on Scientific Miracles of Qur'an and Sunnah, 1987, available in published form from the International Islamic University, Islamabad.
- 2- Muhammad Abd Alkader Al Fequi, 'Views on the Scientific Miraculous Aspect of the Holy Qur'an in Relation to the Earth Sciences', Presented at the Scientific Miracles Conference, op. cit.
- 3- M. Arshad Ali Beg, 'Qur'an and Scientific Interpretation of Munafiqat', published in proceedings of the International Seminar on Qur'an and Science, (Karachi, Pakistan Association of Scientists and Scientific Professions, 26 June 1986), pp. 46-55.
- 4- Salim Mahmood, Elm-e-Falkiat, published in proceedings of the International Seminar on Qur'an and Science, (Karachi, Pakistan Association of Scientists and Scientific Professions, 17 June 1987), p. 42.
- 5- Safdar Jang Rajput, 'Dichotomy of Insan and Jinn & Their Destiny', published in Science and Technology in the Islamic World, Vol. 3, No. I, (Islamabad, Jan.-March 1985), pp. 28-48.
- 6- Ibid., p. 35.

7- K. R. Popper, The Logic of Scientific Discovery, (London, Hutchinson, 1968), Passim.

المؤلف فى سطور

برويز أمير على بيود

PERVEZ AMIRALI HOODBHOY

ولد فى عام ١٩٥٠ وحصل على ماجستير الهندسة الكهربائية ثم ماجستير فى الرياضيات وماجستير فى فيزياء الحالة الصلبة^١ (Solid State Physics)، ثم الدكتوراه فى الفيزياء النووية من معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا (Massachusetts Institute of Technology, MIT). حصل على جائزة بيكر فى الإليكترونيات من الجمعية البريطانية للراديو والهندسة الإليكترونية فى عام ١٩٦٨، وبدأ التدريس فى جامعة القائد عزام (Quaid-e- Azam) بإسلام آباد فى عام ١٩٧٣، حيث كان يجرى بحوثه فى فيزياء الجسيمات الدقيقة، ثم نال جائزة عبد السلام فى الرياضيات عام ١٩٨٤، كما حصل فى عام ١٩٩٠، على جائزة فايز أحمد فايز عن إسهاماته فى مجال التعليم بباكستان. كما حصل على منحة أستاذ زائر من جامعة واشنطن بأمريكا حيث عمل كأستاذ زائر بجامعة كارنيجى ميلون (Carnegie Mellon)، ومازال يشغل وظيفة عالم أبحاث زائر بمعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا، حيث يقضى فيه شهرين من كل عام.

وتشغله عدة مسائل عامة، يجنب اهتماماته المهنية فى تخصصه، مثل تبسيط العلوم، والأمور التعليمية والاجتماعية.

^١ فرع الفيزياء الذى يدرس الخواص الفيزيائية للمادة فى الحالة الصلبة. تشمل الخواص الفيزيائية الخواص الميكانيكية، الكهربائية، الحرارية، المغناطيسية. وتشمل حالات المادة، الحالة الصلبة والسائلة والغازية. (المترجم)

مقدم الكتاب فى سطور البروفيسور محمد عبد السلام

محمد عبد السلام، باكستانى الأصل، ومن أبرز علماء الفيزياء فى العالم، وأول مسلم يحصل على جائزة نوبل فى الفيزياء فى عام ١٩٧٩ بالمشاركة مع كل من ستيفن فاينبرج وشيلدون جلاشو، وقد مُنح الدكتوراه الفخرية من ٣٦ جامعة من مختلف أنحاء العالم. وتوفى فى نوفمبر من عام ١٩٩٦. ومن أشهر مؤلفاته: القرآن الكريم والعلم، مستقبل العلم فى الدول الإسلامية، العصر الذهبى للعلم فى الإسلام. ومؤسس المركز الدولى للفيزياء النظرية.

المترجم في سطور

الدكتور: محمود أمين خيال

- أستاذ متفرغ بكلية طب الأزهر بقسم الفارماكولوجى (الأدوية).
- تخرج من جامعة القاهرة ثم حصل على الدكتوراه من جامعة هايدبرج بألمانيا الغربية فى ١٩٧١.
- سكرتير عام الجمعية المصرية للفارماكولوجى والعلاج التجريبي.
- مقرر اللجنة القومية للفارماكولوجى بأكاديمية البحث العلمى.

منافذ بيع مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المبتديان

١٣ ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالبحر الجامعى
بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوييس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوييس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

٢٥٧٧٥٠٠٠

ت : ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخل ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (١) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإداري - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١٤، ١١ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحي - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب - جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلي - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومي - توزع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢ - ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب